قسطنطين زريق

نحن والتاريخ

مطالب وتساؤلات في صناعة التأريخ وصنع التاريخ

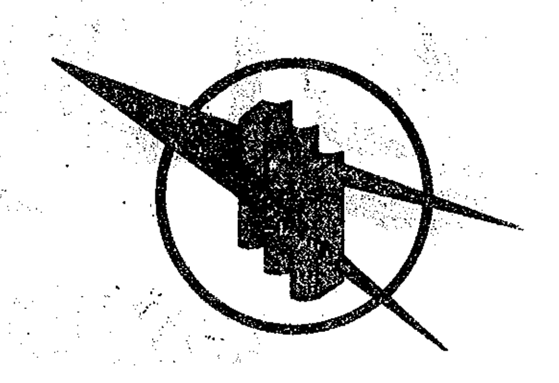
(طبعة جديدة منقحة)

دار العلم للملايين

ص.ب: ١٠٨٥ - بيروت

تلكس: ٢٣١٦٦ - لبنان

دار العلم للملايين
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر
شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو
ص.ب ١٠٨٥ - تلفون : ٣٠٤٤٤٥ - ٨١٦٦٣٩
برقيا : ملايين - تلكس : ٢٣١٦٦ ملايين
بيروت - لبنان



الطبعة الاولى : تشرين الاول ١٩٥٩

الطبعة السادسة
كانون الثاني (يناير) ١٩٨٥

إلى مُعَلِّمَيَّ

ومُرْشِدَيَّ الأوَّلَيْن في مِعْراج التاريخ

الدكتور فيليب حتي

والدكتور أسد رستم

تقدمة ولاءٍ واعترافٍ بالجميل



توطئة

ليست هذه الفصول التي اتقدم بها اليوم الى القراء عرضاً شاملاً لقواعد علم التأريخ ، او بحثاً مستفيضاً في فلسفة التاريخ ، او دراسة مكتملة لعلاقة الانسان بماضيه . وانما هي ، كما ذكرت في عنوان الكتاب ، « مطالب وتساؤلات » تدور حول هذه الموضوعات ، أثارتها في ذهني معاناة الجهد التأريخي — بحثاً وتعليماً — عدة سنوات ، كما دعا اليها النظر في الواقع العربي واختباره ومجابهة المشكلات الفكرية التي تنجم عنه .

ولا يقوم هذا الكتاب مقام دراسة الفلسفات التأريخية البارزة التي ظهرت في الماضي ، او التي تسود الاجواء العقلية الحاضرة ، فهذا مطلب آخر ، له جلاله وخطورته ، لم يتصد له بعد مفكرونا ومؤرخونا بصورة منتظمة ، ونرجو ان يوفى حقه في اللغة العربية في اقرب حين . نقول هذا لأن وضعنا الحاضر ، والوضع العالمي في هذا العصر ، يتميزان — كما ذكرنا مراراً في سياق الكتاب — بتنبه الاحساس التاريخي وانتشاره وبتيقظ وعي الأفراد والشعوب لماضيهم وتأثرهم به . فحري بهذا الوعي عندنا ان يسترشد المحاولات الجبارة المثمرة التي حاولها قادة الفكر عبر العصور للنفاذ الى لب الحياة الماضية ، وادراك سننها وقوانينها ، وفهم الروابط التي تشدها الى الواقع الحاضر والى المراحل المقبلة .

ومع ان الكتاب لا يطمح الى ما ذكرت ، فانه حصيلة قراءات واسعة في هذا الحقل ، وتأملات للمسائل التي تبرز فيه . ولئن لم اشر فيه صراحة

الى ما استفدته من هنا ومن هناك ، ولم اثقله بالهوامش والحواشي ، فان القارىء المطلع ليلحظ مدى استمدادي من المؤلفات المختلفة في هذا الموضوع وتأثري بها .

وتبقى صفة الكتاب الاولى انه محاولة شخصية احببت ان اشارك بها القارىء العربي : محاولة لتامّس الاسئلة الهامة التي تثيرها علاقتنا بماضينا . وكل ما ارجو هو ان تكون الاسئلة التي تبينت لي اسئلة صحيحة ، اساسية . باقية — لا اسئلة زائفة ، سطحية ، عارضة — وان تكون قد بدت لي من خلال اختبار صادق مدرك للواقع العربي وللواقع الانساني ، وعلى هدي الفكر الصحيح الصريح — وقبل كل شيء ، ان اكون قد أقدمت على هذا كله بحسّ عميق بالمسؤولية الجسيمة الملقاة على عاتق المفكر في كل آن ، وبصفة خاصة في هذه الآونة الخطيرة .

●

وكما اني مدين للكتب ولمؤلفيها الاعلام ، كذلك اجدني مديناً لزملاء كرام يجدر بي ان انوه بفضلهم . في مقدمتهم الدكتور جورج طعمه ، الزميل السابق في التدريس في الجامعة الاميركية في بيروت ، الذي شاركني ، خلال قيامي باعباء رئاسة الجامعة ، في الكثير من القراءات والتلخيصات والدراسات التي تطلّبها إعداد مواد هذا الكتاب ، والذي افادني — خلال المناقشات الكثيرة التي جرت بيننا — في ايضاح مسائله وتركيز افكاره ، ثم عاد فقرأ مسودته وأمدني بملاحظاته السديدة وبآرائه المستقاة من مطالعاته الواسعة في هذا الموضوع . وقد جاءت الفصول التالية تحمل الكثير من آثار جهده وعلائم فضله . وانه ليسرني ابلغ السرور ان اقر باسهامه الجزيل في الكتاب ، او بالاحرى بشركته فيه .

وقد تكرّم فريق من زملائي في الجامعة فقرأوا اصول الكتاب وافادوني بآرائهم المرشدة وتصويباتهم الجمة وهم الاساتذة البرت بدر وجبرائيل جبور وشفيق جحا ومحمد توفيق حسين وزين نور الدين زين وجورج

شهلا وفؤاد صروف ونبيه امين فارس ومحمد يوسف نجم . فاليهم جميعاً عاطفة التقدير والامتنان العميق .

على ان المؤلف هو وحده مسؤول عما في الكتاب من نقص وخطأ . وحسبه ان يكون قد اجتهد ، وحسبه ان يؤدي جهده هذا الى الانتقاد الذي يكمل النقص ويصحح الخطأ ، ويوضح المسائل المثارة ويمهد السبل لحسن الاجابة عنها . حسبه ان يكون هناك من هذا كله اسهام ضئيل في ادراكنا لتحدي الماضي ، على ضوء مقتضيات الحاضر وآمال المستقبل ، وفي صحة ردّنا على هذا التحدي .

برمانا في ١٨ تموز ١٩٥٩

قسطنطين زريق

يؤسفني اني سهوت عن ان اذكر في هذه التوطئة ان هذا الكتاب قد اعدّ ضمن منهاج الابحاث والدراسات التي تتعهدها هيئة الدراسات العربية في الجامعة الاميركية في بيروت بادارة زميلي الدكتور نبيه امين فارس . واني انتهز مناسبة هذه الطبعة الثانية لاقر بفضل الهيئة ومديرها في رعاية هذه الدراسة وعضدها

شباط ١٩٦٣

ق . ز .

لماذا التاريخ ؟

الكتاب الذي نضع الآن بين يدي القارىء محاولة تمهيدية في سبيل تفهم الوعي التاريخي عند الافراد والشعوب ، وادراك معنى التأريخ كعلم ينتظم فيه هذا الوعي ، وتحليل موقفنا - نحن ابناء العربية اليوم - من ماضينا وتاريخنا وأثر هذا الموقف في حاضرنا ومستقبلنا .

ولا بد لنا بادىء بدء من ان نوضح لبساً يكتنف لفظة « التأريخ » وينساب الى جميع نواحي الموضوع الذي يدور عليه هذا الكتاب . فهذه اللفظة تطلق تارة على الماضي البشري ذاته ، وتارة على الجهد المبذول لمعرفة ذلك الماضي ورواية اخباره ، او العلم المعني بهذا الموضوع . ويظهر ان الذهن البشري يتنقل عفواً بين المعنيين دون تمييز دقيق بينهما . فنحن نرى هذا اللبس ذاته في اللغات الاجنبية الحية . فـ : Histoire الفرنسية و History الانكليزية و Geschichte الالمانية تستعمل للمعنيين على السواء ، اذ يراد بكل منها احياناً حوادث الماضي واحياناً اخبار هذه الحوادث او العلم الذي يحققها . وقد حاول بعض الباحثين الغربيين محاولات شتى للتمييز ، فأطلق بعض الفرنسيين مثلاً Histoire (بـ H كبرى) على الماضي و histoire على العلم ، واحتفظ بعض الالمان بـ Geschichte للمعنى الاول و Historie

للمعنى الثاني ، واضطر هيجل الى ان يعود الى اللاتينية ليميز بين res gestae و historia rerum gestarum (١) . ولكن العادة الجارية ظلت غالبة ، ولا يزال هذا اللبس قائماً ، ولعله ناشيء عن شعور أصيل في الانسان بالارتباط الدقيق بين معرفة الماضي والماضي ذاته . ويقوى هذا الشعور بصفة خاصة في الادوار التي يزداد الانسان فيها احساساً بماضيه وتلفتاً اليه وتأثراً به .

اما في العربية ، فان استخدام لفظة « التاريخ » للتعبير عن حوادث الماضي امر حديث الشيوع . وقد جاءنا ، فيما نعتقد ، من اللغات الاجنبية والفكر الغربي الحديث وشاع في الآونة الأخيرة مع تنبه شعورنا بالماضي وتجدد اهتمامنا به . ولكي نجتنب هذا اللبس بعض الاجتناب جرينا في هذه الفصول على اطلاق « التأريخ » (بالهمز) على دراسة الماضي و «التاريخ» (بالألف اللينة) على الماضي ذاته الذي هو موضوع هذه الدراسة . ونحن نقر بان هذا التمييز ليس من البيان والوضوح بحيث يؤدي الغرض المقصود على افضل شكل ، ولكنه يجاري الاستعمال الشائع ، وليس هو ، على كل حال ، اقل دقة من التمييزات التي حاولها البعض في اللغات الاجنبية الكبرى .

•

ولقد يتساءل البعض عن جدوى هذه الدراسة التي نقوم بها — بل جدوى الاهتمام التاريخي بكامله — في الوقت الحاضر : في هذا الوقت الذي تتصارع فيه الامم والشعوب ، ويسعى كل منها الى السلامة والظفر ، وتغشّي سماء العالم غمائم قاتمة تنذر بشرّ العواصف ، ويطغى على الجميع القلق والاضطراب والخوف من المصير . أليس أجدى ، في مثل هذه الحال ، ان تنسى الانسانية الماضي او تتناساه ، وتنصرف الى ما يكفل بقاءها ويقيها الاخطار الداهمة ويضمن لها سبل الامن والاستقرار ؟

(١) *The Philosophy of History* ترجمة **J. Sibree** (نيويورك ، ١٩٠٠)، ص ٦٠ .

الحق ان الاضطراب الشامل المسيطر على العالم اليوم يهدد الانسانية جمعاء بأخطار لم تعرفها سابقاً ، وبكوارث لم تكن تتصورها . وهو يتطلب — اول ما يتطلب — تضافر الجهود وتوجيهها الى كفالة السلامة وضمان البقاء . و لكن هذا الاضطراب لا يعالج معالجة صحيحة حاسمة تزيح كابوس الخطر الا بالنفاذ الى جذوره العميقة واستئصال اسبابه البعيدة . فكل معالجة تنصرف الى المظاهر السطحية البارزة ولا تتصدى للعلل الباعثة الخفية مقضي عليها بالخيبة والخسران ، مهما يكن نجاحها الآني باهراً ومهما يبدُ فعلها في وقته عظيماً .

واول ما تفرضه المعالجة الجذرية تبيّنُ هذه العلل الباعثة وادراك الاسباب الاصيلة الفاعلة في تكوين المشكلات الانسانية الحاضرة ، وكشف طبيعة هذه الاسباب والعلل وتعيين مداها ونوع اثرها . فالانسان ، فرداً ومجموعاً ، هو ، الى حد بعيد ، نتاج الماضي . وكل مشكلة من المشكلات التي تعترض الانسانية في هذه الفترة الحاسمة من حياتها لها جذورها واسبابها المغروسة في التراث الذي تسلمته من الاجيال السابقة والذي يفعل فيها ، كما تفعل هي ايضاً فيه . ومن هنا نرى ان اية معالجة صحيحة للقضايا الكبرى التي تجابهها الانسانية اليوم يجب ان تستند الى معرفة تأريخية شاملة المدى بعيدة الغور ، معرفة تثير الاسئلة الاساسية عن واقع المدنية الحديثة وعن كيفية تكوّن هذا الواقع . ما هي المفاهيم الاساسية التي تقوم عليها هذه المدنية ؟ ما هو نظرها الى الطبيعة ، والانسان ، وما وراء الطبيعة والانسان ؟ ما هي القيم التي تؤمن بها وتسعى لتحقيقها ؟ ثم — وهذا ما يهمنا الآن بصفة خاصة — كيف تكونت هذه المفاهيم ، والنظرات ، والقيم ؟ من اية جذور نبتت وتفرعت ، وبأي غذاء اغتذت حتى بلغت ما بلغته في مرحلتها الحاضرة ؟ ما هي عناصر القوة في هذا الغذاء وفي تلك الجذور التي ولدت مآثر هذه المدنية الجليلة وفتوحاتها الباهرة ، وما هي عناصر الضعف التي تبث فيها الفساد وتكاد تدنيها من الانحلال بالرغم من تلك الفتوحات

والمآثر ؟ ما هي طبيعة التراث الذي يتمتع به الانسان المشارك في المدنية الحديثة ، وكيف يختلف هذا الانسان عن غيره من الناس الذين لم يتلقوا هذا التراث ولم يفيدوا منه ؟

هذه الاسئلة . وسواها مما يكمن وراءها او ينتج عنها ، تدلنا على ان الانسان الذي يعيش الحياة الحاضرة لا يمكنه ان يشيح بوجهه عن الماضي ، وان نشدان السلامة والاستقرار لمركب الانسانية المتأرجح — الذي يجب ان يتوجه اليه ويسهم فيه كل انسان وكل شعب — لا يكون مجدياً الا اذا استند الى فهم صحيح للاصول والاسباب الموروثة وحكم صادق عليها ، والى ادراك نيّر لكيفية الافادة مما تنطوي عليه من قوة وغنى والتغلب على ما يشوبها من ضعف وفساد . وهكذا ، لا بد لنا ، كأفراد وكأمة ، اذا اردنا ان نحيا ، كما هو واجب علينا ، واقعَ الانسانية الحاضر — لا بد لنا من ان نجابه التاريخ .

وثمة ناحية أخرى نصطدم فيها بالتاريخ . ذلك ان من مظاهر الاضطراب الانساني الحاضر هذه المذاهب المتنافرة والعقائد المتناحرة التي تقتسم الافراد والجماعات والامم ، وتوجههم وجهات متباعدة وتنمي في نفوسهم ولاءات متناكرة ، وتدفع بهم الى العداء والاعتداء والتخاصم والتنازع . ونحن اذا نظرنا في هذه المذاهب والعقائد وجدنا أن كلاً منها يتضمن تعليلاً معيناً للماضي وللعوامل التي سيرته ، وفهماً خاصاً لاسلوب مجابهته في عملية بناء الحاضر واعداد المستقبل . وقد يكون هذا التعليل واضحاً منتظماً بارزاً ، وقد يكون خفياً مرتبكاً غامضاً ، ولكنه هناك على كل حال ، لأن الماضي منساب في جوانب حياتنا جميعاً ، وليس باستطاعتنا ان نقف من حاضرنا او من مستقبلنا موقفاً يهمله او يتغاضى عنه . ولعلنا نكتفي ، تدليلاً على ما ذكرنا ، بالاشارة الى ان النظامين الكبيرين اللذين يتنازعان العالم اليوم — النظام الديمقراطي الغربي والنظام الشيوعي — ينطويان على اختلافات اساسية في فهم الماضي وتعليله . وهكذا الأمر في جميع الفلسفات

والعقائد التي يتأثر بها الأفراد او تفعل في الامم في هذه الأيام . فلا غنى لنا اذن ، اذا اردنا ان نحدد موقفنا من هذه العقائد ، لنقبل او نرفض النتائج النظرية والعملية التي تصدر عنها — لا غنى لنا عن ان نتبين ، في ما نتبين منها ، موقفها من الماضي ، والتراث ، والتطور ، والتقدم ، والتأخر ، وامثالها من المفاهيم التاريخية التي تتضمنها . فنحن اذن ، هنا ايضاً ، امام التاريخ .

•

هذا ، فيما يتعلق بالواقع الانساني . ولنا نحن ، ابناء البلاد العربية ، علاوة على هذا الواقع الانساني الذي نشارك فيه او يجب ان نشارك فيه ، واقعنا العربي الخاص . وفي هذا الواقع يطل علينا التاريخ من نوافذ متعددة ، فنلقاه اينما التفتنا او توجهنا . نلقاه في خضم هذه الهبة القومية التي تدفعنا الى اقامة حياة جديدة والتي تدعونا في الوقت ذاته الى ان نستلهم الماضي ونستمد منه عناصر القوة والفخر والاعتزاز . ان هذا العود الى التاريخ طبيعي في كل آن ومكان ، ولكنه يشتد بصفة خاصة في عهود النهضات القومية عندما تهب الشعوب لتنشد الوحدة والقوة فتجد ان من اهم مقومات وحدتها تقاليدها الماضية وامجادها وبطولاتها السالفة ، فتعود الى هذه الامجاد والتقاليد ، ويعيدها اليها قادتها وموجهوها ، لتتقوى بها ولتفيد منها العضد المعنوي والروحي في نهضتها المتوثبة وفي سعيها لبناء حياتها القومية الجديدة .

والعرب اليوم في مثل هذه الحال . لقد كان تنبهنا لتاريخنا من اعظم العوامل في نهضتنا الحديثة منذ بزوغ فجرها في القرن الماضي ، وما زال كذلك حتى الآن . فما دمنا نعود اليه مختارين او غير مختارين ، واعين او غير واعين ، وما دمنا نستلهمه ونستوحيه ، فمن الخير لنا ان تكون عودتنا عودة اصيلة متبصرة ؛ يهديها العقل ويوضحها فهم صادق لعلاقة ماضينا بحاضرنا ومستقبلنا ، وتمييز دقيق بين عناصر تراثنا المختلفة : بين تلك التي يجب ان نحرص عليها ونبني على اساسها وتلك التي ينبغي

ان نطرحها جانباً ونتخطاها الى ما هو افضل وابقى . وبعبارة اخرى : ما دمنا مدفوعين في هبتنا القومية الى وعي تاريخي ، فليكن هذا الوعي صحيحاً ، متفتحاً ، مستنيراً ، كيّ يكون لنا مصدر قوة دائمة لا مبعث هزات عابرة ، وعاملاً من عوامل البناء والانتاج والابداع لا قوة تجرنا حيناً الى الوراء وحيناً الى الامام فتحيرنا وتعيق سيرنا وتحول دون ما نبتغي من تقدم ثابت وانطلاق خيّر حثيث .

ونجابه التاريخ بوجوه واشكال اخرى ، منها تلك الاختبارات المريرة ، والنكبات والمآسي التي عرفناها في العقود الاخيرة . فلقد جهدنا ، وما نزال ، للتخلص من التحكم الاجنبي ، وجهدنا ، وما نزال ، لمكافحة الادواء الداخلية المتوارثة عن الاجيال . فظفرنا في ميادين ، وهزمنا في ميادين اخرى اهمها ميدان فلسطين ، ولا تزال هذه الهزيمة طعنة نكراء لكرامتنا وعزتنا وخطراً على كياننا ومستقبلنا . ورافق هذا كله سفك دماء ، وتشريد واجلاء ، وقلق واضطراب . هذا ، بالاضافة الى الاضطراب الناتج عن تبدل الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية ، وتحوّل الاخلاق والعادات والعقائد والتقاليد .

ان هذه التجارب التي نمر فيها لتدفع الكثيرين منا الى التساؤل عن اسباب هذه الاحداث التي توالت علينا ، وعن اصول العلل التي اضعفتنا وأوقفتنا زمناً طويلاً عن النهوض واخضعتنا لغيرنا ونشرت في جسمنا الادواء . ويقودنا هذا التساؤل الى التلفت الى تاريخنا ، فمنا من يرتمي في احضانه ليستريح وينتشي ، ومنا من يجابهه ممتحناً ناقداً حاكماً . وكل من هذين الموقفين ، او اي موقف آخر ، يتضمن لقاء للتاريخ ويقتضي فهماً صحيحاً لواجبات هذا اللقاء ونتائجه .

ويذهب البعض منا في مجابهتهم ونقدهم الى حد الثورة . ففي عرفهم اننا في هبتنا الحاضرة لبناء مجتمع جديد ناهض ووطن قوي زاهر لأحوج ما نكون الى نقض ما ورثناه من الماضي مما يعرقل سيرنا ويحد

انطلاقنا ، هذا الانطلاق الذي يجب ان يكون مندفعاً سريعاً دون ما هوادة او تخلف . فلنحجم اذن عن الالتفات الى الوراء ، ولنمعن في الحاضر قلباً وتبديلاً ، متطلعين بانظارنا كلها الى المستقبل والى مُثل الحياة التي نعتزم تحقيقها . تجاه هذا القول يجدر بنا ان نلاحظ ان هذه الثورة ذاتها تستدعي – اذا اردناها صحيحة مثمرة – ان نكون مدركين لما نثور عليه حق الادراك ، والا قضت على الصالح والفاسد دون تحقيق او تمييز . وهي تتطلب ايضاً تقديراً مضبوطاً لنطاقها وحدودها – للمدى الذي تستطيع فيه ان تتجرد هي ذاتها من الماضي او ان تجرد اصحابها منه . ثم أليست هي نفسها ، بعد هذا وذاك ، دليلاً على إحساس متنبه بالماضي وبالاثر الذي له في حياة الأفراد وفي واقع الأمة ؟ فما دام الامر كذلك : ما دمنا لا نستطيع ان ننفصل كل الانفصال عن الماضي حتى عندما نثور عليه ، فخير لنا ان تكون هذه الثورة قادرة هذه الحقيقة حق قدرها ، مهيبة بنا الى تفهم جديد لتراثنا ، ووعي متنبه للعوامل التي كونته ، فتزيد بصرنا حدة ، وادراكنا نفاذاً ، ونقدنا وحكمنا رجاحة وحسماً ، وتقودنا الى ان نعرف انفسنا وكيفية تكوننا وامكانات غدنا معرفة ادق واصدق . انها اذا فعلت ذلك سارت الى اهدافها على هدى وبصيرة ، وعملت على جعل ازمة الواقع العربي الحاضرة مصدر خلق وابداع ، فاذا القلق المهيمن لا يتهرب من الحياة بل يجبهها ويشق لها طرقاً جديدة ، واذا الاضطراب يغدو سبيلاً الى فهم اوفى وعمل اجدى واجدى .

من هذه الوجوه جميعاً نرى ان واقعنا العربي ، بالاضافة الى الواقع الانساني ، يفرض علينا مجابهة جديدة صريحة لماضينا القومي وللتاريخ الانساني عموماً ، مجابهة ترتفع الى مستوى هذين الواقعين الخطيرين وتنهض بمطالبها الدقيقة العسيرة .

●

ان القلق والاضطراب ليفعلان فعلها اليوم في تنبيه الوعي التاريخي

عند الامم السائرة في طليعة المدنية الحديثة في الغرب والشرق . فهما يهيبان بالمفكرين والفلاسفة والعلماء الى المزيد من التساؤل عن الماضي واستجلاء معانيه ، والى التطلع بشوق والحاح الى استكشاف ما يتضمنه هذا الماضي من عناصر استقرار يمكن ان يركن اليها في خضم الاضطراب الشامل ، ومن عوامل تقدم ورقي يجب ان يسعى اليها ويتمسك بها ويحرص على الاستفادة منها .

وقد لاحظ المفكر الروسي نقولا بردايف ، كما لاحظ سواه من المفكرين المحدثين ، ان عهود النكبات في التاريخ الانساني كانت دائماً حافزة الى التفكير في الماضي وفي المصير ، ومثيرة للاهتمام في تفسير التاريخ وتعليله . فأغسطينوس الذي عاصر نكبة من اعظم النكبات — وهي تداعي العالم القديم وسقوط روما — وضع اول مذهب شامل في تعليل التاريخ كان له اثر عظيم في المذاهب التي تلته . وكذلك كان عصر الثورة الفرنسية والحروب النابوليونية خصباً في ما اثمره من محاولات لتفهم التطور التاريخي ولاستكناه جوهره ومعناه (١) .

وفي التراث العربي نلاحظ كذلك ان جهد ابن خلدون الجبار في دراسة العمران البشري واستخراج قوانين التطور الاجتماعي جاء في عهد كان فيه العالم الاسلامي المترامي الاطراف قد انقسم دولاً متناحرة تغير عليها جحافل الغزاة ، وكانت مدنيته قد سارت خطى واسعة في طريق الانحطاط والانهيار . فأثار هذا كله في نفس ابن خلدون تساؤلات خطيرة عن نشوء الامم وتطورها وتداعيها ، وجاءت تلك المقدمة الرائعة التي نظم بها هذه التساؤلات واجوبته عنها فكانت اثراً خالداً من ابرز آثار التفكير التاريخي والاجتماعي .

ولقد قال هيجل ، كبير فلاسفة التاريخ الجرمان ، ان بومة مينرفا

---

(١) ص ١ الخ ، (لندن ، ١٩٤٥) **Berdyaev, Nicolas,** ***The Meaning of History***

(الحكمة) لا تبدو الا عند الغسق .. وها نحن نرى ان شعوب الارض يعتريها اليوم خوف وقلق ملحان ، اذ تخشى ان تكون شمس المدنية الحديثة قد مالت الى الغروب ، وان يكون الغسق قد بدأ يغشاها ويغشى العالم الذي آمن بها . فهذه الفتوحات الباهرة التي رفع لواءها العلم ، والخيرات المتدفقة التي فجرتها الآلة من بطون الطبيعة ، والانتاج الضخم الذي يندفع كالسيل الهادر من المعامل والمصانع — هذه وسواها من مآثر المدنية الحديثة تبدو وكأنها لم تجلب للانسانية الامن والصفاء والسعادة المرجوة ، بل توشك ان تقودها الى شفير هاوية لا يعلم الا الله قرارها . فلا عجب في ان يتساءل العقل الانساني في مثل هذه الحال عن الاتجاه الذي تسير البشرية فيه ، وعن المجرى الذي يحملها من ماضيها الى حاضرها ، ومن حاضرها الى مستقبلها . لا عجب في ان يتساءل ويلح في التساؤل عن المصير : ما هو ، وما هي طبيعته ، ما هي القوى التي تدفعنا اليه ، وكيف يمكننا ان نسيطر على هذه القوى ونوجهها الى ما فيه السلامة والخير ونحولها عن سبل الخسران والشر .

ونحن ابناء البلاد العربية ، الذين يكتنفنا هذا الاضطراب العالمي الشامل كما يكتنف سوانا ، والذين خبرنا في تاريخنا الحديث فوق هذا كثيراً من المآسي والنكبات ، خليقون بان نبذل جهدنا لنسبر اغوار هذا الواقع المتأزم المزدوج في مظهريه القومي والانساني ، وبأن يدفعنا هذا كله الى ادراك ادق لاسرارنا وسبر اعمق لأغوارنا ، فنتساءل عن ماضينا الذي نندفع منه وعن مصيرنا الذي نندفع اليه ، كي نعي حقيقة هذا وذاك ، ونعمل ما في استطاعتنا للتحكم بالمصير ، بدلاً من ان نكون له محكومين مسيرين .

●

وسواء كنا في عهد اضطراب عالمي او لم نكن ، وسواء انطلقنا في انبعاث قومي او لم ننطلق ، فكل منا ، من حيث هو انسان ، مرتبط بماضيه

وباحساسه بهذا الماضي ارتباطاً محكماً غير منفصم . فالانسان ، كما سنوضح في ما يلي من الفصول ، « تاريخي » بجوهره . فمنذ ان بدأ يدرك ما حوله ويدرك ذاته — منذ ان بدأ يصبح انساناً ، كان تذكره واحساسه بما جرى له جزءاً من وعيه المتنبه ، وبالتالي جزءاً من انسانيته . هذا التذكر والاحساس هو عنصر من العناصر الهامة التي تميز الانسان عن الحيوان . فلا انسان بلا تاريخ ، ولا تاريخ بلا انسان .

وتاريخية الانسان لا تقتصر على تذكره للماضي وتسجيله له . وانما الإنسان، كما سنرى ، تاريخي بمعنى آخر : بمعنى انه كائن حيّ فاعل ، وبهذه الصفة لا يتأثر بالواقع فحسب ، بل يؤثر فيه ، ولا يكتفي بان يكون نتيجةً ومحصولاً بل يطمح الى ان يغدو سبباً فاعلاً — لا يقف عند التأثر بالتاريخ والخضوع له ، بل ينشىء الحياة ويصنع التاريخ . ان اهتمامه ، وقلقه ، وفكره ، وتطلعه الى المستقبل تدفعه الى الاحساس بانه في وسط مجرى الحياة المتدفقة ، فهو مدفوع ودافع ، وموجَّه وموجِّه ، هو ابن التاريخ وابو التاريخ في وقت واحد ، وتاريخيته تتضمن هذين المعنيين معاً .

وارتباط الانسانية بالتاريخية ليس هو من حيث الاصل والكيان فحسب ، بل من حيث التفاعل والتأثير المتبادل ايضاً . فكلما ارتفع الانسان في مراتب الانسانية ، ارتقت نظرته التاريخية وغزر فعله التاريخي ، وكذلك كلما كان وعيه للماضي اصفى ومجابهته له اصدق واعمق اغتنى كيانه الانساني وغدا اقدر على الانتاج والابداع .

ونحن نرى هذا بين شعب وشعب : نرى الفارق بين الفهم التاريخي المبدع عند الشعوب المتطورة والشعور التاريخي المائع الغافل او المسكن المخدر عند الشعوب المستكينة المتأخرة . وكذلك نرى هذا الفرق بين ادوار حياة الشعب الواحد : الادوار البدائية الاولى ، وادوار العز والابداع ، وادار الهلهلة والانهيار .

وما دام الامر على هذه الحال ـ ما دامت انسانية كل منا مرتبطة بحسه التاريخي وفعله التاريخي ، وقيمتنا كأمة متأثرة بهذا كله ـ فحري بنا ان ننفذ الى ذلك الحس ونتفحص هـذا الفعل ، لنرى صحتهما ونضجهما وجدارتهما بما نطمح اليه من مرتبة انسانية وقيمة ذاتية ، كأفراد وكأمة .

هذا الاعتبار ، المستقل عن ظروف واقعنا القومي الخاص والواقع الانساني الذي يشملنا ، هذا الاعتبار الذي يمس كلاً منا من حيث طموحه ومرتبته كانسان ، ويمسنا كأمة من حيث المزايا الانسانية العريقة التي نجهد لتحقيقها والتي نريد ان نُعرف بها ـ هذا الاعتبار يجب ان يكون حافزاً آخر من الحوافز التي تدفعنا الى السعي لادراك الماضي على حقيقته ، ولاتخاذ موقف سليم منه ، ولربطه ربط فعل وانتاج بالحاضر الذي نعاني مشكلاته وبالمستقبل الذي ننشد بناءه .

●

وبعد ، فلكل منا عمله ووظيفته اللذان قد اختارهما او دفع اليهما . وعليه ان يسهم ، من خلالهما ، في تعزيز الفهم الصحيح ودعم العمل البناء . على كل منا ان يضع الحجر الذي يخصه في الصرح القومي وفي الصرح الانساني . والذين منا قد اتجهوا الى التأريخ واتخذوه مجالهم في ميادين الفكر والعمل مدعوون الى ان يثابروا على توضيح وظيفتهم لانفسهم كي يستطيعوا ايضاحها لسواهم . انهم مدعوون الى ان يرتفعوا فـوق مجرد رواية الاحداث وترديد الاخبار الى استجلاء معانيها لهم ولقومهم وللانسانية ، والى تبيان آثارها في مشكلات حياتهم الحاضرة وفي المصير الذي يتوجهون اليه او الذي يهيئونه هم بأيديهم وعقولهم . فاذا هم لبوا هذه الدعوة ووفوا بمقتضياتها ، حققوا اسمى مطالب وظيفتهم ، وكانوا مبدعين فكراً وعملاً : في تبين المصير وفي اعداده والتحكم فيه .

هذه الدعوة التي تتوجه للمؤرخ في الايام العادية ـ ايام الدعة والاستقرار ـ يشتد الحاحها ويعظم خطرها في اوقات الاضطراب وفي ازمنة الهبات

والثورات . ذلك ان الحاجة الى الفهم والافهام تغدو في هذه الازمنة والاوقات ابلغ منها في سواها ، واثرها يكون اعظم واضخم . فان هذه الادوار من حياة الامم تتميز بالتغير السريع والتبدل المتتابع ، وبتراكم النتائج وتضخمها . ولذلك كانت التبعة فيها على المفكرين والعاملين اثقل منها في الادوار الاخرى : اذ ان طاقات الخير والشر وامكانات الاصلاح والافساد هي فيها اشد سعة واسرع انطلاقاً مما هي في سواها . وعلى المؤرخ ، كمفكر وكعامل ، ان يلبي هذه الدعوة وان يضطلع بهذه التبعة ، وان يرد على تحدي الشدة والاضطراب بالجد المتزايد لاستيضاح مهمته وايضاحها ، واستجلاء الموقف الذي يجب ان يتخذه هو ومجتمعه من الماضي ، والعمل لجعل هذا الموقف فعالاً مبدعاً في انارة الفكر وتقدمه ، وبناء الحياة ورقيها .

على ضوء هذه الاعتبارت كلها نرى ان الواجب يدعو الى اثارة التساؤلات التي نعرضها في الفصول التالية ، والى الاجابة عن هذه التساؤلات بقدر ما يتبين لنا من نور ، وما يتراءى لنا من حق .

وانا لنأمل ان تثير هذه التساؤلات تساؤلات اخرى اعمق منها وابعد نطاقاً واشد خطورة ، توسع مدى اختراق الحجب واطلال نور الحقيقة . اذ بهذا النور يجب ان نهتدي في حل مشكلاتنا ، وبناء حياتنا الحاضرة ، واعداد مستقبلنا - وبصورة خاصة - في تنقية كياننا الذاتي وتأصيله واغنائه : هذا الكيان الذي هو السند الاخير والجوهر الباقي لأية خطة نختطها ، او اي نظام ننشئه ، او اية قومية نبعثها ، او اي مجتمع انساني نبنيه ، لانه اللب والمحتوى ، وكل ما سواه رهين به وقائم عليه .

وبنتيجة سعينا هذا ترتفع « تاريخيتنا » ، وبالتالي ، « انسانيتنا » ، الى مستوى الواقع الذي نعيش فيه ، فنكون به خليقين وعليه قادرين .

موقفنا من الماضي

ان موقفنا من ماضينا – شأننا في هذا شأن اي مجتمع من المجتمعات – مظهر من مظاهر موقفنا العقلي او موقفنا الكياني العام . فنحن اليوم في دور تحول وتبدل : من مجتمع تسطو عليه نظم القرون الوسطى وذهنيتها الى مجتمع يتطلع الى حياة جديدة قائمة على النظم التي تمثل المدنية الحديثة وعلى العقلية التي انشأت هذه النظم والتي لا تزال تعمل في تحويلها وتعديلها .

والظروف والاحوال التي نعيش فيها – ظروف العالم الذي يحيط بنا من كل صوب وظروفنا التاريخية الخاصة – تدفعنا الى الاسراع في التحول والقفز في مجالات التطور ، والى الاندفاع الثوري في الفكر والعمل . فقد ضقنا ذرعاً بما حملنا في القرون الماضية القريبة من اثقال ، وما تعرضنا له من أخطار ، وما اصابنا من نكسات ، ونفد صبرنا ، واخذنا نحس بقوى تنبعث منا وتلح علينا الحاحاً مشتداً مدوياً للتخلص مما نحن عليه من تخلف واستكانة ولتحقيق كرامتنا في الوجود ، وذلك بأسرع وقت واقصر سبيل .

هذا الشعور الدافق الذي يعترينا ، وهذه القوى الصاخبة التي تفعل فينا ، هي التي ادت الى الهبات الثورية التي نعانيها في العالم العربي ، والتي تعمل في قلب نظم الحكم ومفاهيمه ، وتصب همها على تجميع القوى

للتأهّب الكامل والاصلاح العاجل . وهي نفسها وراء التيارات الثورية التي تجتاح تفكيرنا ومسالك عملنا في نواحي الحياة الاخرى : في النظم والعلاقات الاجتماعية ، في المبادىء الخلقية والاتجاهات الادبية والمعتقدات الدينية .

في مثل هذا الموقف ، المتصف بالتحول السريع ، تتلاقى التيارات المندفعة من كل صوب وتختلط ، وتصطدم النزعات بعضها بالآخر فتتقارب او تتنافر . وهذه حال تختلف عما يحدث في التطور البطيء الرفيق الذي تؤدي به كل مرحلة الى ما يليها بهدوء وفي جو من الاستقرار والاستمرار . في الدور الذي نشهده ونختبره تتلاقى المراحل المتباعدة جنباً الى جنب وتصطرع العقليات التي تمثلها اصطراعاً شديداً قد تكون نتائجه خيراً ونفعاً او قد تنقلب شراً ومضرة وفقاً لاستعدادنا الفكري العام وما يتصف به قادتنا وموجهونا من نفاذ في الفكر وصدق واتزان في العمل . فمنا مثلاً من لا يزال يعيش في القرون السحيقة في القدم وبذهنيتها ، ومنا من يصارع تيارات القرن العشرين الصاخبة ، ومنا من يقف في مرحلة من المراحل العديدة بينهما . بل منا من يفكر ويعيش في جانب من حياته في مرحلة ، وفي جانب آخر في مرحلة اخرى بعيدة عنها كل البعد مختلفة عنها اشد الاختلاف . فاذا بالشخصية الواحدة منقسمة على ذاتها : انقساماً لاشعورياً مضحكاً في بعض الاحيان ، وانقساماً في احيان اخرى واعياً ثائراً منطوياً على كثير من الالم المولد والتفاعل النفسي المثمر .

❁

هذا الوضع ذاته من حيث تعدد التيارات وتصادم النزعات نجده في موقفنا من تاريخنا ، اذ لا يعدو ان يكون هذا الموقف ، مظهراً من مظاهر موقفنا من الوجود والحياة بوجه عام . فنظرتنا الى الماضي هي في هذه الايام مزيج مشوش تختلط فيه تيارات متنوعة ونزعات مختلفة او متناقضة . ولئن بدأت بعض هذه النزعات تتفاعل تفاعلاً ايجابي المحتوى والاثر ،

فان هذا التفاعل لا يزال في ادواره الاولى ، ولا يزال زاخراً بالامكانات التي تنتظر الفكر النير والعمل الجريء لتعطي ثمارها يانعة خصبة محيية .

من هذه التيارات يمكننا في هذا العرض التمهيدي الاكتفاء بأربعة نعتقد انها اهمها وان كانت تتفاوت فيا بينها سعة انتشار وقوة اثر . ولا شك في ان كلاً من هذه التيارات يختلف شدة وشكلاً ولوناً حسب الظروف والاحوال والطبقات الاجتماعية التي يجري فيها . على ان لها جميعاً ايضاً — ضمن هذا الاختلاف — مميزات اصيلة هي مصدر الموقف التاريخي الاساسي الذي تنبعث منه . وهذا الموقف الاساسي هو ما سنحاول النفاذ اليه وعرضه في الملاحظات التالية :

اول هذه التيارات : التيار التقليدي . وهو الذي لا يزال ينبع من مصادر القرون الوسطى ، ويجري ضمن الحدود والسدود التي تكونت في خلال القرون الماضية ، ولا يُقبل مطلقاً — او لا يقبل الا متردداً — على الاستمداد من منابع ومصادر اخرى ، اذ انه مكتف بمنبعه ، وواثق بانه مصدر كل حق ، وبأن الابتعاد عنه او التوجه الى سواه زيغ وضلال .

يتميز هذا التيار بالاتجاهات التاريخية التالية :

١ — لا يزال تاريخنا في عرف السائرين في هذا التيار هو تاريخ « الأمة » الاسلامية كما ان مجرى التاريخ الاسلامي هو عندهم المجرى الرئيسي في التاريخ العالمي ، ولذا يكاد اهتمامهم يكون مقصوراً عليه ، واذا نظروا الى سواه فمن خلال احداثه ومراحله الماضية والحاضرة . ولما كان اي موقف من الماضي لا ينفصل عن الموقف المتخذ من الحاضر والمستقبل ، فان همّ اصحاب هذا الموقف هو تمتين بعث « الأمة » الاسلامية وانقاذها من الاعتداءات الخارجية التي نزلت بها ومن الشوائب الداخلية التي لحقتها ، واحياء امجادها لتعيد رسالتها الماضية الحافلة بالعز والعطاء .

٢ — ان تعليل نشوء الاحداث وتطورها هو ، بحسب هذه النظرة ، تعليل الهي . فدوافع التاريخ ليست ، او على الاقل ليس اهمها وابلغها

فعلاً ، في يد الانسان ، بل تحكمها مشيئة الهية وقوانين سماوية . وحياة الافراد والشعوب على هذه البسيطة ليست سوى مقدمة للحياة الحقيقية ، حياة السعادة الدائمة او الشقاء الدائم ، في العالم الآخر . فمن العبث اذن ان نحاول تعليل الاحداث الانسانية باعادتها الى الجنس او المحيط او اي عامل من العوامل الطبيعية او البشرية الاخرى . ان محور التاريخ ليس في هذا العالم بل في العالم الاعلى .

٣ — من حيث اسلوب المعرفة التأريخية ، لا يزال الاتجاه السائد عند اصحاب هذا الموقف هو التصديق والركون الى اخبار السلف . فمع ان الدين في جوهره ومبادئه الروحية الاساسية لا ينفي النظر النقدي الى مصادر التأريخ والاسلوب العلمي في استنتاج حقائقه بل يقبلها ضمن حدود معينة يرسمها لها ، فان الكثرة الغالبة من اصحاب الموقف التقليدي عندنا لم تطلع على اساليب التحقيق التأريخي التي استنبطت في القرون الثلاثة الاخيرة ، بل لا نغالي اذا قلنا انها ضعيفة الصلة باساليب النقد التي استنبطها العلماء المسلمون في عصور نهضتهم وانتاجهم .

واذا اردنا ان نوجز موقف هذا الفريق من مواطنينا قلنا انه موقف متميز بالعقلية التي كانت سائدة في الشرق والغرب في القرون الوسطى ، بل في اواخر تلك القرون ، عندما فقدت تلك العقلية حيويتها وانتاجها ، بخسرانها الاقدام والتفتح ونقد الذات .

وليست هذه النظرة الدينية التقليدية مقصورة على الكثرة الاسلامية في المجتمع العربي ، بل تبدو ايضاً عند فريق من الاقلية المسيحية يتصف اساساً بنفس العقلية التي حاولنا رسمها وان كان يتجه اتجاهاً مختلفاً من حيث مصدر وحيه وغاية احيائه . انه يلتفت الى الماضي ويجابه الحاضر ويتطلع الى المستقبل ضمن الاطار التقليدي المسيحي ، ويرى في هذا الاطار متن التاريخ الانساني ، وكل ما عداه هامشاً له او حاشية . ويعلل احداث التاريخ تعليلاً الهياً خارقاً للطبيعة ، ويهمه ان يتحقق في هذا العالم المجتمع

المسيحي الافضل الذي لا يتعدى ان يكون صورة ومقدمة للعالم الحقيقي السرمدي وراء التاريخ البشري وبعده وفوقه .

قلت ان هذه النظرة تنطبق على فريق من المسيحيين في المجتمع العربي. وهو فريق اصغر ، بالنسبة الى مجموع المسيحيين العرب ، مما هو الفريق التقليدي الاسلامي بالنسبة لمجموع المسلمين . وما هذا الاختلاف سوى نتيجة لعوامل تاريخية فعلت فعلها في القرون الاخيرة . فالاقلية المسيحية كانت بحكم اوضاعها اسبق الى التأثر بالفكر الغربي وبالحياة الغربية عموماً . ثم ان المسيحية في مراكز ثقلها وتجمعها في الغرب قد تعرضت في القرون الخمسة الاخيرة لتنبهات العقل الحديث المتتابعة المتراكمة منذ عهد النهضة الأوروبية وتفاعلت واياها ، فكان لا بد لها من ان تتأثر بها ، وكان لا بد من ان تتسرب بعض نتائج هذا التأثر الى المسيحية في الشرق عن طريق الصلات المتعددة التي قامت بينهما في غضون هذه القرون .

ويلاحظ القاريء اننا في وصفنا لهذا المجرى التقليدي ، لم نجد غنى عن توجيه النظر رأساً الى المفاهيم الدينية ، الاسلامية والمسيحية . فهذه المفاهيم هي ، عند الذين لا يزالون ضمن هذا المجرى ، الدليل الامين الى حقائق الحياة الاساسية ، والى معنى الاحداث المتعاقبة في الزمن والى العلة الفاعلة في هذه الاحداث . ولنذكر ثانية ان هذه العقلية هي التي كانت سائدة في القرون الوسطى ، في الغرب المسيحي وفي الشرق الاسلامي ، وهي تختلف عن العقلية الغالبة في العصر الحديث والتي تنزع الى الاهتمام بهذا العالم الارضي ، وبالعوامل البشرية والطبيعية المسيرة للاحداث ، وبالعقل المنطلق الى استكشاف الحقيقة بالملاحظة والاختبار والذي يخضع كل شيء ، مهما قدم عهده او عظمت حرمته ، لمحك الامتحان الدقيق والنقد المحكم المتزن . ولا ننكر ان فريقاً من ارباب الفكر في العصر الحديث ، ممن هالهم ما اصاب المدنية البشرية من كوارث في هذا العصر ، وممن لاحظوا عجز هذا العقل الذي وصفنا عن كفالة السلام والسعادة

لبني الانسان ، اخذوا يرتدّون الى الاصول الدينية ، ويتطلعون الى ما وراء هذا الكون ، ويعودون الى التعليلات الالهية ، ويدعون الى الايمان بالحقائق الانسانية والالهية التي لا سبيل للعقل المنطقي الى كشفها . ومن هؤلاء من يدعو صراحة الى بعث تفكير القرون الوسطى ويحمل لواء موقف عقلي « وسيطي » متجدد (**neo-medievalism**) . ولكن هذا الفريق واقرانه قد تمثلوا جوهر العلم الحديث والتقليد العقلي الذي تراكم في القرون الخمسة الاخيرة ، وشعروا في الوقت ذاته بالحاجة الى تخطيها . اما عندنا ، فلم يحدث هذا التمثل والتخطي ، وانما لا يزال التقليديون منا يحتفظون بتقليد القرون الوسطى — او بالاحرى بما اتصف به هذا التقليد من ركود وجمود في ادواره الاخيرة ، دون ان يجوزوا اختبارات العقل ومكاسبه في العصور الحديثة .

ان الذين يقفون هذا الموقف التقليدي اليوم — وسواهم من المواطنين — يجب ان يعرفوا جوهره واتجاهه وحدوده ، كما يجب ان يعرفوا جواهر المواقف الاخرى واتجاهاتها وحدودها — كل ذلك بتفتح تام لنور الحقيقة وايمان بها وخضوع لها ، كي لا نزيغ ولا نخدع انفسنا في تصور ماضينا او معالجة حاضرنا او بناء مستقبلنا .

●

اما التيار الثاني الذي يتجلى في نظرنا الى الماضي ، فهو تيار صاعد متضخم يزداد يوماً بعد يوم سعة مجرى وقوة اندفاع . نعني به التيار القومي ، سواء أعربياً شاملاً كان ام اقليمياً محصوراً ، والتضخم والتصاعد أبين في الاول واعظم .

ان هذا التيار ، ككل تيار قومي ، يصدر من منابع كيان الانسان من حيث هو فرد من جماعة ، يشاركها لغتها وتقاليدها وآمالها وآلامها ؛ ويجد سلامته ومنعته في سلامتها ومنعتها ، ويطمح الى ان يراها تحتل مراتب العز والفخار . ولكن المجاري التي يجري فيها هذا الشعور تختلف باختلاف

النظم الاجتماعية والاقتصادية والعقلية السائدة . ولقد كان المجرى الرئيسي الذي اتخذه في العصر الحديث هو المجرى القومي . فغدا هذا الشعور ، بتأثير قوى هذا العصر واتجاهاته يتمثل بمفاهيم ونظم معينة : مفاهيم تقول بوحدة الامة المستمدة من وحدة لغتها وتقاليدها ومصالحها وآمالها وآلامها ، ونظم تتجلى فيها ارادة تمتين الكيان القومي واغناء نتاجه المادي والعقلي والروحي والجهد لحمايته من الاخطار الخارجية .

وقد حدث هذا التطور اول ما حدث في بلدان غربي اوروبة بفعل الاختبارات الاقتصادية والاجتماعية والعقلية التي جازتها في اوائل العصر الحديث حين ثارت على مفاهيم القرون الوسطى ونظمها . ومن هذه البلدان تسرب هذا التطور الى البلدان الاوروبية الأخرى والى القارة الاميركية ، وها هو منذ اوائل القرن الحاضر يجري باندفاع متزايد نحو شعوب آسية وافريقية سواء العريقة منها التي اصابها انتكاس فتراخى فعلها وطمر مجدها الغابر ، او التي بدأت تلج اليوم ميدان التاريخ الحي الفاعل . وقد كانت هذه وتلك قد خضعت لنفوذ الأمم الغربية واستعمارها ، فأخذت بنتيجة تأثرها بتطورات الحياة الحديثة تستفيق لتتحرر منها ؛ ولتنشد الاستقلال والوحدة ورفع مستوى العيش والإسهام في الحضارة .

هذا ما اخذنا نتحسس به نحن العرب منذ منتصف القرن الماضي ، فكان تنبهنا وئيداً في بادىء الأمر ، ثم اخذ يزداد قوة وسرعة الى ان بلغ ما بلغه اليوم من حدة وانتشار . وقد تكيّف ، في خلال تطوره ، بعوامل متعددة داخلية وخارجية ، منها : اقتباسنا لمفاهيم الحياة الحديثة ونظمها ، وسرعة تطور هذه النظم والمفاهيم في السنوات الاخيرة ؛ ومنها اختبارنا في جهادنا الامم التي تغلبت علينا ، والصراع القائم بين هذه الامم ذاتها ؛ ومنها ما يصاحب التنبه القومي عند جميع الشعوب — وبخاصة عند الشعوب العريقة — من التفات «رومانطيقي» الى الماضي ، ومن تأثر بالغ بما يوحيه .

وهذا يقودنا الى الناحية التي تهمنا هنا : وهي النظرة التأريخية التي

تتجلى في هذا التيار القومي . ان هذه النظرة ، في ما يبدو لنا ، تتصف بما يلي :

١ــ اقبال على الماضي اقبالاً يكاد في بعض الاحيان يبلغ حد الانغماس التام والخضوع الكلي له ، بحيث ينصرف الخيال والفكر والسعي الى ما يبدو لنا في ذلك الماضي من امجاد ، فنقف عندها ونتغنى بها وننزع الى احيائها وبث روائعها في القلوب والنفوس . يتجلى هذا الاقبال وهذا الاستيحاء في مظاهر عدة : منها المكانة التي تحل بها التأريخ القومي في مناهجنا الرسمية ، واتجاه هذه المناهج والكتب التي تؤلف لتطبيقهـــا ، ومنها هذا الميل الجارف الذي نجده عند أدبائنا الى معالجة موضوعات التاريخ القومي ، والى كتابة سير ابطاله واحياء امجاده باسلوب شعبي مشوق (راجع مثلاً انتاج عباس محمود العقاد وطه حسين ومحمد حسين هيكل وأمثالهم، مع ملاحظة اختلاط الاتجاه القومي عندهم بالاتجاه التقليدي) ومنها الرواج الذي يجده عند الناشئة وفي صفوف الجماهير هذا النوع من الادب التأريخي وما يكتب على نهجه ، مما ينشر في سلاسل المطبوعات العامة او في المجلات والصحف السيارة ، ومنها اخيراً ــ بل اولاً ــ هذا الصدى المحبب الذي تلقاه في صدورنا أية استثارة للماضي في الخطب السياسية ، او القصائـــد الحماسية ، او الروايات المسرحيـــة ، وأية دعوة ، مهما كان مصدرها ولونها ، لتبيان محاسن السلف واحياء مآثرهم .

ولسنا في هذا كله بمختلفين عن سوانا من الشعوب التي اجتازت هذا الطور نفسه الذي نجتازه اليوم . ذلك ان كل احياء قومي في العصر الحديث قد رافقه بعث للتاريخ القومي . حصل هذا في انكلترة وفرنسة والمانية وايطالية وروسية وغيرها في القرنين الماضيين ، كما يحصل اليوم ، لشعوب اخرى ، في الشرق والغرب ، في مثل هذه المرحلة من التطور . ففي هذه المرحلة يرتد كل شعب الى تاريخه وحضارته الماضيين ــ الى سير الابطال ، وسجل الفتوحات والانتصارات ، وروائع الادب والفن ، ومآثر العلم والفلسفة

والى التقاليد الشعبية والاخلاق والعادات المتوارثة — يعود الى هذا كله لاحيائه وبثه في الحياة الجديدة ، ايماناً منه بوحدة الحياة القومية واستمرارها ، وبخصائص تقاليده القومية وضرورة بقائها وتجددها لحفظ كيانه من جهة وللاسهام في الحضارة الانسانية من جهة اخرى .

٢ — ان هذا الاحياء القومي الذي نبتغيه ونسعى اليه يختلف حسب تقديرنا لواقعنا وحسب الصورة التي نرسمها لمستقبلنـــا . فالذين يؤمنون منا بقومية عربية شاملة ينصبون على التاريخ العربي والحضارة العربية . اما الذين يؤمنون بقومية اخرى — سورية كانت او لبنانية او مصرية او عراقية — فان كل فريق منهم ينصرف الى احياء مجد البلد الذي يخصه والحضارة التي يعتقدها لب قوميته وميزة أمته . وهنا ايضاً نجد ما يماثل هذا الاختلاف في اختبارات الامم التي سبقتنا في هذا التطور . نجده في تاريخ فرنسة والمانية وايطالية وغيرها من الامم . وهو ان دل على شيء، فعلى حقيقة اساسية تتغلغل في فكر الانسان وفي كيانه ، وتتراءى لنا من مختلف نوافذ البحث الذي نتناوله في هذه الفصول . هذه الحقيقة هي ان نظرة الانسان لماضيه تتأثر الى حد بعيد بنوع تقديره لحاضره وبالصورة التي يرسمها لمستقبله . ففي ذهن الانسان الحي ونفسه يتجاذب الحاضر والماضي والمستقبل تجاذباً دائماً ، وتتفاعل جميعها تفاعلاً مستمراً ، فلا يستطيع الفرد او الشعب ان ينصرف الى اي منها انصرافاً تاماً مستقلاً بل هو ابداً في وسط تجاذبها وملتقى تفاعلها . والنظرة التي يكونها لكل منها ، وقيمة هذه النظرة واثرها ، تأتيان دائماً نتيجة لنظرته المشتركة لها جميعاً .

٣ — ان لب الماضي ، حسب هذه النظرة القومية ، هو الماضي القومي . وهذه النظرة ، اذ تضخم هذا الماضي ، تهمل في احيان كثيرة الروابط التي تشده الى تواريخ الشعوب والامم الاخرى ، وتسهو عن وحدة التاريخ البشري المتشابكة . والخطأ الذي يؤدي اليه مثل هذا الموقف هو بتر هذه الوحدة واغفال المؤثرات الخارجية التي تعرض لها الشعب في مراحل حياته ،

او الانتقاص من قيمتها واثرها . فكثيرون منا مثلاً يبدأون درس التاريخ العربي بالجاهلية ، ويتابعون مجراه تحت حكم الخلفاء في الحجاز والشام وبغداد ومصر والاندلس حتى سقوط بغداد في ايدي التتر او زوال ملك ابي عبد الله في غرناطة ، ثم يقفزون متخطين قروناً عديدة الى عصر النهضة الحديثة . وهم في غالب الاحيان يضربون صفحاً عن كل ما جرى في هذه البلاد العريقة قبل ظهور العرب في ميدان الفعل التاريخي ، ويهملون التفاعلات الحضارية التي حدثت بعد ظهورهم بينهم وبين سواهم من الشعوب ، فيعزلون بذلك التاريخ العربي عن المجاري التي انصبت فيه وتلك التي انصب فيها ، ويخلون بوحدة الحياة الكبرى التي يؤلف هذا التاريخ جزءاً منها .

ان اي فصل بين اجزاء الحياة المتماسكة او اي تقطيع للخيوط التي تربطها او اي سد مصطنع نقيمه بين مجاريها — ان اي انحراف من هذا القبيل يقف دون فهمنا الصحيح للحياة البشرية وحكمنا الصادق لها او عليها وتحكمنا الفاعل بها . وسنعود الى هذا في مناسبة اخرى .

٤ — اما من حيث نقد حوادث التاريخ او تعليلها ، فان الذين يتجهون هذا الاتجاه لا يتخذون موقفاً معيناً ثابتاً بل يختلفون في نوع مواقفهم ودرجة وضوحها وحدتها . فنراهم من جهة النقد يتأرجحون بين التصديق التام لروايات التأريخ وتغليب الخيال والوهم على النقد والتجريح وبين النظرة الموضوعية التي تنزع الى التحقيق والتدقيق واستخراج اللب الصحيح مما علق به من خطأ وبطلان . منهم من هو في الطرف الاول ، ومنهم من هو في الطرف الآخر ، ومنهم من هو على درجات متفاوتة بينهما ، وان كانت الغلبة لا تزال ، فيما نعتقد ، للتصديق وللانسياق في مجرى الخيال المثير المضخم اكثر مما هي للنقد الضابط المقيد .

وكذلك الأمر في التعليل : فبين تعليل لا يزال ثيوقراطياً في جوهره واتجاهه وآخر يشد الحياة القومية الى جذورها الطبيعية والبشرية ، تضطرب

الميول وتختلف المنازع ، واعية او غير واعية ، وتتخذ مواقف متفاوتة ، بحيث لا يمكننا ان نطلق عليها حكماً عاماً او وصفاً مميزاً . ونحن نرى هذا لا عندنا فحسب ، بل عند شعوب اخرى ، في حال كحالنا او في احوال مختلفة . اذ قلّ بين الناظرين الى الماضي – بل قلّ بين المؤرخين الاختصاصيين انفسهم – من اوضح في ذهنه تفسيره لنشوء الحوادث وتطورها وسلك مذهباً صريحاً ثابتاً في تعليله . فلا غرابة في ان يصدق هذا على امة في حال تكوّن سريع وتبدل جذري وما يعتور هذه الحال من تشويش وميعان لا يقتصران على النظرة التأريخية بل يكتنفان جوانب الحياة جميعاً . لا غرابة في هذا ، ولكن لا ضرورة لبقائه واستمراره ، فان وضوح المواقف النهائية والتمييز بينها شرط من شروط الادراك الصحيح ، والتقدير المتزن ، والعمل المنتج .

هذه هي ابرز خصائص التيار القومي في انطلاقه الى الماضي . وهو ، كما قلنا ، تيار يتسع ويتضخم ويتشعب . غير اننا لا نود ان نختم هذا الرسم الخاطف له دون الاشارة الى ظاهرتين هامتين من الظواهر العديدة التي يبدو فيها في حالته المتموجة الجائشة في الوقت الحاضر . الظاهرة الاولى هي من رسوبات الماضي . واعني بها ان الفكرة القومية – خاصة عند الذين يقولون بالقومية العربية – لا يزال يعتريها غموض وابهام ، ولا تزال تلتبس في كثير من الاذهان بجوانب من الموقف التقليدي الذي وصفناه سابقاً . فهذا الماضي الذي نريد احياءه أهو ماض عربي ام اسلامي ؟ وهذا المستقبل الذي ننشد بناءه أهو مستقبل قومي بكل ما في هذه الكلمة من معنى ؟ نعود فنقول ان للقومية معنى وخصائص اذا فقدتها ، فقدت جوهرها . وفي مقدمة هذه المعاني علمانية الحركة القومية وعلمانية الدولة التي يراد انشاؤها . وليس معنى هذه العلمانية انكار الدوافع الروحية او الكفر بالله تعالى ، بل بالعكس ان القومية تؤيد كل ما يقوي الايمان في النفوس وينزهها عن الشر ويدفعها في سبل الخير ، ولكنها تقيم المجتمع

على اساس علماني ، وتنبذ كل عصبية طائفية ، وكل تمييز بين مواطن ومواطن على اساس الدين والعقيدة . وبهذا المعنى تفهم « القومية » و « الأمة » في العصر الحاضر . والقومية العربية اذ تنظر الى التاريخ الماضي يجب ان تراه على حقيقته الثيوقراطية ، والا تسعى الى تجريده من هذه الحقيقة ، ولكن يجب ان تعلم ايضاً انه لا يمكن ان تكون امينة لذاتها وللقومية اذا لم تع مفاهيمها الجديدة وتعمل بمنطق القوى التي اوجدت القومية في العصر الحديث .

اما الظاهرة الثانية التي نريد الاشارة اليها فهي من حوافز المستقبل ، وتنبعث من الرغبة في التبدل السريع والانقلاب الجذري والاخذ باسرع ما يمكن من الوقت بأسباب القوة والمنعة لحماية الكيان وابراز الاثر القومي . ان فريقاً من الذين يحسون بهذه الرغبة وينزعون هذا النزوع يشعرون بان الاغراق في التلفت الى الماضي والانغماس فيه قد يورث الضعف بدلاً من القوة ، ويشيع التواكل بدلاً من التوثب ، ويصدر في احيان كثيرة عن هرب لاشعوري من مشكلات الحاضر ومتطلبات المستقبل الى سحر الماضي ومخدراته . فاذا سطا هذا الاغراق وتملك النفس اصبح حالة مرَضية تشل الارادة وتضعف العزم وتصرفنا عن الجهد الملح الذي يفرضه علينا اللحاق بركب المدنية المنطلق . ان هذا الفريق يفكر ويعمل ضمن النطاق القومي ، ولكنه يؤمن بالانقلاب السريع لا بالتطور البطيء وبالتبديل الجذري لا بالمعالجة المترفقة الوئيدة . وهو يوافق سواه من القوميين في الدعوة إلى الانشاء القومي ويجهد معهم في هذا السبيل ، ولكنه لا يذهب الى الحد الذي يذهبون اليه في استيحاء الماضي والاستمداد من منابعه ، بل يذهب في بعض الاحيان الى الطرف المعاكس : الى التمرد الشامل على الماضي ، والرغبة في التحرر منه ، والتحول عنه تحولاً تاماً الى الحاضر والمستقبل . فاذا اردنا ان نصف اتجاهه الاساسي وصفاً مبسطاً قلنا انه ارادي فعلي اكثر مما هو شعوري انفعالي ، ثوري جذري اكثر مما هو

تطوري تدرّجي ، « مستقبلي » متطلع اكثر مما هو « تذكري » متلفت . وليس اتصافه بهذه الصفات على درجة واحدة ، بل على درجات متفاوتة تقربه من النزعات القومية الاخرى او تبعده عنها . وهنا ايضاً نلاحظ كيف ان الموقف المتخذ من الماضي يتأثر بصورة الواقع المجابه والغد المرتجى ، وبنوع الفكر والعمل اللذين تبعثهما هذه الصورة .

●

يقودنا هذا الى التيار الثالث من التيارات التي تندفع فيها اتجاهاتنا الى الماضي والاحكام التي نطلقها عليه . ذلك هو التيار الماركسي والفلسفة التأريخية المادية . انه تيار ينبع من العالم الشيوعي وقد بلغنا وشق مجراه بيننا وجرف فريقاً منا ، كما فعل ، بدرجات والى حدود مختلفة ، في اجزاء اخرى من عالم اليوم .

هذا التيار يجري في مجرى معين واضح المعالم ، لانه يصدر عن فلسفة شاملة في تعليل الكون والانسان والتاريخ . فالمادة في نظره اصل الكون ، والانسان قد نشأ منها بالتطور والارتقاء . وليست ثمة قوة فوق هذه الطبيعة قد سببت هذا النشوء او احدثت الارتقاء او اثرت فيه . اما المجتمع البشري ، فهو مجتمع متطور ، والعامل المسير المحتم لهذا التطور هو التطور الذي يحدث في وسائل الانتاج والذي يعين نوع العلاقات الاقتصادية في كل مرحلة من المراحل . وهذه العلاقات الاقتصادية تحتم بدورها نوع الاوضاع الاجتماعية والعقائد الدينية والمذاهب الاخلاقية — بل الحياة العلمية والفكرية والروحية بكاملها .

ومن طبيعة هذه العلاقـات الاقتصادية ان تقسم المجتمع البشري طبقات تختلف في مقادير تسلطها على وسائل الانتاج . ومن طبيعة الطبقة السائدة في دور معين ان تتمسك بسيادتها ، بينما الطبقة او الطبقات المحرومة تنهض لاقتناص هذه السيادة منها متنبهة الى تطور جديد في وسائل الانتاج ، وساعية لامتلاك هذه الوسائل الجديدة . فتكون هذه الطبقة طليعة الدور

المقبل ، وقائدة لركب التاريخ في مرحلته التالية . اما الطبقة الاولى فتمثل الرجعية التي تقف في وجه التاريخ .

ولا تتمكن الطبقة الجديدة عادة من التغلب الا بالثورة — الثورة التي قد تتأخر او تعاق ، ولكنها ستنجح حتماً لانها تمثل تقدم القوى التاريخية التي لا تخطىء . فالتاريخ البشري ليس في النهاية سوى صراع طبقات تفوز فيه الطبقة التي تنسجم مع تطور وسائل الانتاج والعلاقات الاقتصادية الناشئة عنها ، والتي تكون مؤهلة بفعل هذا الانسجام والتجاوب الى الثورة على الماضي وتحقيق الدور التاريخي الذي يليه . ويظل هذا الصراع قائماً الى ان تفوز طبقة العمال فتزيل الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ، فيتساوى الناس المساواة الاقتصادية التامة ، وهي في نظرهم المساواة الحقيقية ، ويصبحون كلهم طبقة واحدة ، وتذهب بذلك اسباب الحروب وتنتشر ألوية العدل والاخاء والسلام .

وما الدولة القومية ، في نظر هذا التعليل ، سوى نوع من التنظيم السياسي والاجتماعي تفرضه علاقات اقتصادية معينة وسيادة طبقة من الطبقات — طبقة البرجوازية — في دور معين محدود من ادوار التطور . فاذا انتهى هذا الدور زالت الدولة بزواله ، وتغيرت طبيعة الأمة والقومية ، وتكيف هذا كله بحسب مصلحة الطبقة الجديدة ومفاهيمها .

ان للمذهب الماركسي الذي يتضمن هذا التعليل سحره وفتنته ، خاصة لمجتمع في مثل وضعنا السياسي والاجتماعي والعقلي . فهو صادر من البلاد التي تنازع الغرب السلطة والنفوذ والزعامة ، وسائد فيها . ولما كنا نحن في خضم ثورة على الاستعمار الغربي ومآسيه ، فان الكثيرين منا يجدون فيه وفي كتلة الشعوب التي تعتنقه حليفاً لنا في هذه الثورة وسنداً في معركة التحرر السياسي .

ثم انه مذهب يبدو محكماً متماسكاً ، يعلل الاشياء والاحداث تعليلاً مبسطاً حتمياً ، ويبشر بالثورية سبيلاً للتقدم ، وينظر الى المستقبل نظرة

تفاؤلية ، قاطعاً الوعود العذبة الخلابة وناسجاً الآمال الزاهية الزاهرة . وفي هذا ما فيه من جذب وسحر للشعوب التي ناءت بالذل والجمود زمناً طويلاً ، واخذت تتطلع اليوم الى الرخاء والعدل والمساواة وتؤمن بالثورة سبيلاً الى تحقيق هذه الآمال . يضاف الى ذلك وضع هذه الشعوب العقلي ، القابل للتعليلات المبسطة الحتمية ، غير المتنبه لتعقد الحياة وتشابك عواملها ، ولتعقد الطبيعة الانسانية ذاتها وتداخل اغراضها وميولها ونوازعها.

لسنا الآن في معرض تحليل الماركسية كمذهب فلسفي او كنظام اقتصادي او اجتماعي او سياسي ، ولا نتصدى هنا لنقد نظرتها التأريخية ، كما أننا لم نتصد لنقد المجريين التأريخيين — التقليدي والقومي — اللذين ذكرناهما سابقاً . ذلك اننا مكتفون ، في مجال هذا الفصل ، بالوصف والعرض دون النقد والتجريح ، وغايتنا لا تتعدى رسم صورة نرجو ان تكون صحيحة واضحة للمواقف التي نتخذها اليوم من تاريخنا وللعوامل التي تكيف هذه المواقف . فكل ما نريد ان نؤكده ، على ضوء هذا الغرض المحدود ، هو ما تنطوي عليه الماركسية من نظرة الى الوجود والى التاريخ ، وانسياب هذه النظرة من مصادرها الخارجية الينا ، وشقها طريقها في مجتمعنا بفعل التطاحن العالمي القائم وبعض نتائج المدنية الحديثة التي نقتبسها ، وبتأثير ظروف داخلية تابعة للمرحلة التطورية التي نجتازها الآن . وهنا دليل آخر على تأثر الموقف المتخذ من الماضي بمشكلات الحاضر وآمال المستقبل . فالقوة التي تشد من تشد منا الى هذا الموقف الذي نصفه صادرة عن الوضع السياسي — وضعنا والوضع العالمي — وعن الثورية التي تجتاحنا للتخلص من هذه الاوضاع الحاضرة واقامة اوضاع جديدة ، اكثر مما هي ناتجة عن دراسة موضوعية لهذا الماضي او عن اقبال اولي على التعليل الماركسي للتاريخ واقتناع مسبق بصحته . ولذا فان من اهم الصراعات الفكرية والسياسية التي تنتظرنا والتي اخذت تبدو مقدماتها ، الصراع بين الثورية القومية التي اشرنا اليها آنفاً والثورية الماركسية : بين مذهبين يتفقان في

الوسيلة — وهي الثورة — ويختلفان في المصدر والاتجاه والغاية وفي النظر الى التاريخ وتعليل الكون والانسان . فالخير كل الخير في توضيح اسس كل منهما ، وتبيان ما فيهما من صواب او خطأ ، وتعيين مركزنا في هذا الصراع ، اذ ان على نتيجته يتوقف اتجاهنا الجديد ويتعين مصيرنا الى زمن بعيد . وعسى ان يكون في الدعوة التي تمثلها هذه الفصول الى ايضاح موقفنا من ماضينا ما يؤدي الى اثارة هذه المسائل الاساسية بكاملها ، والى تحليلها تحليلاً مجرداً عن العاطفة والهوى ، مفعماً بروح المسؤولية ، متفتحاً للحق ، منصتاً للضمير ، كي نكون مجهزين التجهز الكافي لمعركة المصير .

•

بقي ان نصف تياراً رابعاً واخيراً من التيارات البارزة التي يتوزع فيها نظرنا الى الماضي . هذا هو التيار العلمي الذي يتكون تدريجاً بفعل تنبهنا للمدنية الحديثة واقتباسنا عقليتها . ولعلنا نبالغ ونعدو الحقيقة اذا دعوناه تياراً ، فهو لا يزال جدولاً صغيراً يتزايد يوماً بعد يوم ، ولكنه لا يعادل التيارات الاخرى زخماً واتساعاً . زد الى ذلك ان من طبيعته ان يجري هادئاً ، وان يسير بحذر وتبصر ، مبتعداً عن الصخب مجافياً للدعاوة وحب التسلط . غير أنه ، على هدوئه وتدرجه ، يمثل املاً من آمال المستقبل لانه لا يقبل الا العقل هادياً ومرشداً والا الحق الذي يكشفه العقل هدفاً وسيداً .

يتوجه هذا المجرى الى الماضي دون فكرة مسبقة او فلسفة مفروضة ويحاول استعادة الماضي من اصوله ، اي من آثاره المادية والادبية ، فيقبل على هذه الآثار ليستخرج نصوصها واشكالها الاولى — ما استطاع الى ذلك سبيلاً . ثم يستنطقها ويحقق في رواياتها ، ويخضع هذه الروايات للتدقيق والنقد ، فلا يقبل منها الا ما تثبت صحته وعدالة رواته حسب احكام العقل وقواعد العلم . واخيراً يسعى الى ربط الحقائق المفردة المضبوطة

بعضها ببعض لكي يستخرج منها صورة للماضي ، ان لم تكن صادقة كل الصدق ، فهي اقرب ما يمكن الى ذلك . وتبقى هذه الصورة ، على كل حال ، خاضعة للتبديل والتعديل حسبما يظهر من اصول جديدة ، او ما يكتشف من حقائق مجهولة ، او ما يصحح من اخطاء في التدقيق والاستنتاج .

هذا الاسلوب العلمي كانت له جذوره عند المؤرخين العرب القدماء ، وكانت بدايته مرتبطة بما بذلوا من عناية في جمع احاديث الرسول ونقدها وتجريحها . ثم اخذت الرواية تتغلب على التحقيق ، والعقل يخضع للتصديق ، فلم يكتمل هذا الاسلوب ولم يعم المؤرخين ، بل لم يكن مقدراً له ان يكتمل ويعم ما دامت العقلية السائدة حينذاك — في الشرق والغرب — هي عقلية القرون الوسطى . فلما حدثت ثورة العقل في مطالع العصر الحديث ، واخذت هذه الثورة تتكامل وتتسع ، اكتسحت في ما اكتسحته المجهود التأريخي ، وتكوّن في القرون الثلاثة الاخيرة تقليد علمي متراكم ، وتيار متضخم ، هو التيار الغالب في دوائر العلماء المؤرخين في الغرب ، والصابغ عقلية مثقفيه بشكل عام .

اما عندنا فلا تزال منابع هذا التيار قليلة ومتفرقة . تجدها ، بدرجات مختلفة قوة وضعفاً ، في الجامعات الحديثة في الشرق العربي ، وعند الذين تدربوا فيها او في الجامعات الغربية ، فاكتسبوا هذا الاسلوب في النظر والعمل ، وعمدوا الى استخدامه في احياء آثار الماضي واستخراج صورته من خلالها . وطبيعي ان يكون تعزيز هذه الجهود ، كمية وكيفية ، وتلاقيها في تيار متضخم عملاً بطيئاً لانها تتطلب التدرب الصارم والمرانة الطويلة ، ولكنه امر في غاية الضرورة والخطورة اذا اردنا ان يكون نظرنا الى الماضي صحيحاً متزناً ، واذا اردنا هذا الاسلوب العلمي المنضبط الضابط ان يتعدى فئات القلة من المتخصصين المتباعدين منا ليؤثر في تفكير جمهور مثقفينا وفي اندفاعات عامة شعوبنا . فالتيارات الثلاثة التي ذكرناها سابقاً

لها دوافعها القوية وسلطتها المنتشرة ، ومن الواجب ان تمتحن وتضبط بادوات هذا الالتزام العلمي وقيوده ، وان تهتدي بهديه ، بل ان تفرض هي على نفسها اقسى انواع النقد واشد اساليب التحقيق ، ليخلص ما تتضمنه من حق ويكون له فعله المبدع الدائم . ولما كان جهادنا لحاضرنا ومستقبلنا مرتبطاً – كما قلنا – بنوع تصورنا لماضينا واستلهامنا إياه ، فحري بهذا الجهاد ان تكون ملهماته نقية غزيرة متلاقية متفاعلة ليأتي على ما نرجوه له من ازهار واثمار واحياء .

●

هذه هي المجاري الرئيسية التي يسير فيها ويتكون منها نظرنا الى الماضي وتفكيرنا فيه . وانا لنخشى ان نكون بسطنا صورة الواقع بوقوفنا عند هذه المجاري الاربعة ، على اهميتها وخطورتها . فنابع حياتنا الحاضرة ، خصوصاً في هذا الدور السريع التبدل الخاضع لعديد المؤثرات ، اكثر من ان تحصر ومجاريها شديدة التنوع مختلفة الاتجاهات . واذا كان لا بد ، في سبيل استخلاص صورة تقريبية ، من شيء من التمييز والتحديد والتوكيد ، فان هذا يجب الا يصرف نظرنا عن التنوع والتعقد اللذين تتصف بهما الحياة في كل دور ، وتتصف بهما خاصة حياتنا في هذا الدور .

كذلك نخشى ان نكون عند وقوفنا امام كل من هذه المجاري قد رسمنا صورة خاطفة له لا تفيه حقه من حيث تفرعه واختلاف ألوانه ومدى تدفقه وفقاً للطبقات التي يمر فيها وللاحوال التي تطرأ عليه . وهنا ايضاً يجب ان يؤخذ هذا التبسيط بتحفظ ، كمنطلق لتكوين صورة ادق واقربه الى الواقع . فالحياة اغنى مما نتصور واغزر عناصر والواناً ، ولا تدرك في حقيقتها–في غناها، وغزارتها، وتعقدها–الا بالنظر المتتابع والجهد المتراكم.

ان هذه النظرة الواسعة المتكاملة ترينا ان المجاري الاربعة التي وقفنا عندها ، وسواها ، تتفرع وتتحد ، وتتباعد وتتلاقى ، وتتنافر وتتجاذب ، بتأثير قوى الحياة المتحركة المتدافعة . فالتقليد والقومية والماركسية والموضوعية

العلمية لا تنفصل بعضها عن الآخر بحواجز وسدود ، بل تتلاقى وتتصادم وتتفاعل فيما بينها في كل وجه من وجوه حياتنا وتفكيرنا . ومن ضمن هذه الوجوه : نظرتنا الى ماضينا . فما هو الماضي الذي نريد احياءه ؟ أهو الماضي الديني ، ام الماضي القومي ، ام الماضي كصراع طبقات ، ام الماضي كما كان حقيقة — **wie es eigentlich gewesen ist** — على قول زعيم النظرة التأريخية الموضوعية في العصر الاخير ليوبولد فون رانكه ؟ وفي سبيل اية غاية نبغي هذا الاحياء ؟ أفي سبيل العلم المجرد، ام في سبيل تكوين مجتمع اسلامي او مسيحي جديد ، ام في سبيل خلق الامة العربية او سواها من المجتمعات القومية التي يدعو اليها هذا الفريق او ذاك منا ، ام في سبيل دخول معترك الطبقات العالمي لتحقيق نصر طبقة على طبقة وسيادة نظام سياسي واقتصادي واجتماعي قائم على الفلسفة المادية التأريخية ؟

هذه وكثير غيرها من الاسئلة تنبث خلال المواقف المختلفة التي نتخذها من التاريخ . وهذه المواقف تتفاعل ، كما قلنا ، فيما بينها . ولكن تفاعلها هذا لم يبلغ بعد درجة الوعي والنضج والاثمار . ولذا ترى نظرتنا التأريخية خليطاً مشوشاً مشتتاً ، تشوبه العاطفة وتتنازعه الاهواء . فلا بد اذن من عودة الى الاصول ، ومن محاولة لايضاح معنى الماضي وعلاقته بالحاضر وبالمستقبل ، ولتعيين الغاية من احيائه ، والسبيل الذي يجب ان يتبع في هذا الاحياء وما يعترض هذا السبيل من عقبات وما يفرضه من متطلبات. ان هذه المحاولة التوضيحية ضرورية لا لفهم تاريخنا فحسب ، بل لادراك واقعنا وصوغ مستقبلنا صوغاً صحيحاً . انها مساهمة من اجل تكوين الفكر الهادي للعمل ، في خلية مركزية من خلايا الحياة الفردية والاجتماعية—الخلية التذكرية الاحيائية—وفي دور من تطورنا ومن تطور العالم اصبح فيه لهذه الخلية فعلها البليغ واثرها المتزايد في حياتنا كأمة وفي الحياة الانسانية بوجه عام.

في سبيل هذه المحاولة ، والمساهمة ، كانت فصول هذا الكتاب .

مَاهِيَة التاريخ والغرض منه

لنبدأ هذه المحاولة من منطلقها الطبيعي ، فنعين وجهة سيرنا في طريقنا المتعرج المتشابك ، ونتقي ما إمكن شرور الزيغ والانحراف . لنبدأ بتحديد موضوع التأريخ والغرض منه . فالناس ما فتئوا منذ فجر يقظتهم ينظرون الى التأريخ نظرات مختلفة تتقارب حيناً وتتباعد او تتناقض احياناً . ولسنا هنا في سبيل استعراض هذه النظرات جميعاً ، او تعداد انواع التعريفات او التحديدات التي صيغت لهذا المجهود الفكري الانساني . فذلك امر يطول بنا ويبعدنا عن غايتنا اذ يتطلب منا تتبع الاحساس التأريخي في تطوراته وتقلباته المتتالية ، بل يكاد يوغل بنا في جوانب اخرى من تطورات الثقافة والحضارة ، لما للحس المذكور من ارتباط وثيق بالفكر والحياة في كل مكان وزمان .

لنتجه اذن رأساً الى ما نريد، ولندل برأينا بكل ايجاز وبساطة . ان التأريخ، في ما نرى ، هو « **السعي لادراك الماضي البشري واحيائه** » . هذا التعريف الموجز يتضمن لب المطلوب ، ولكن هذا اللب يحتاج الى نشر وايضاح، والى زيادة في التحديد ، والى التمييز بينه وبين ما قد يعلق به او يغشاه من معان عارضة او مغايرة . فلنقدم على هذا التحديد والتمييز ، متناولين كلاً من اجزاء التعريف وتعابيره ، في سبيل استخراج صورة جامعة

واضحة لموضوع التأريخ ولغرضه الاصيل .

●

لنذكر اولاً ان التأريخ ينصبّ على الماضي . وهو بهذا يتميز عن سواه من المجهودات الفكرية الانسانية . وليس معنى هذا اننا نستطيع ان نفصل فصلاً جازماً بين الماضي والحاضر والمستقبل . فقد رأينا في ما سبق ، وسنرى ايضاً في المراحل التالية من دراستنا ، ان الحياة في سيرها وحدة متكاملة ، وان المواقف المتخذة من الماضي تتأثر بمعتقدات الحاضر وآمال المستقبل ، كما تتأثر هذه بتلك .

وكذلك لا نقصد مما ذكرنا الى ان العلوم والفنون الاخرى تهمل الماضي وتشيح بوجهها عنه . فلكل منها تأريخها الخاص بها كتواريخ الطب والفلسفة والنظم الإقتصادية والسياسية والادب والتصوير وما الى ذلك — حتى انه ليمكننا القول انه حيثما نجد تغيراً وتراكماً في الحياة البشرية فثمة مجال للتأريخ. ان التأريخ لا يرتد عن اي حقل من حقول الانتاج البشري بل يطمح الى ولوجها جميعاً والى تتبع التغيرات التي طرأت عليها والمراحل المتتابعة التي جازتها .

بل نذهب الى ابعد من هذا فنلاحظ ان كل عالم او اديب او فنان لا غنى له في عمله او فنه من اخذ الماضي بعين الاعتبار والتأثر به الى حد قريب او بعيد . فالطبيب اذ يعالج الداء يبدأ ، اول ما يبدأ ، بالسؤال عن نشوئه وتطوره وعما اعترى المريض من علل سابقة ، والفلكي الذي يتتبع تكوّن العوالم والاجرام السماوية ودوران الكواكب في افلاكها لا بد له من ان ينظر اليها في تحولها مما كانت عليه الى ما هي الآن والى ما ينتظر ان تكون ، والكيميائي اذ يخضع مادة من المواد لعملية معينة يدرس تغيرها من حال الى حال ، من « ماضٍ » الى « حاضر » او من « حاضر » الى « مستقبل » . والعالم الاجتماعي — اياً كان اختصاصه — لا يستطيع دراسة المشكلات التي يعالجها اذا لم يأخذ بعين الاعتبار الجذور التي نبتت

منها والتبدلات التي طرأت عليها . وهكذا الامر في العلوم الاخرى ، الطبيعية منها والبشرية . فكلها تهتم بماضي الحقائق المتعلقة بموضوعها ، وتنظر اليها كـ « احداث » ، وان كان هذا النظر والاهتمام على درجات متفاوتة وبأشكال مختلفة بحسب طبيعة كل منها .

أما الاديب والفنان ، فهل بمكنة اي منهما ، اذ ينتج ما ينتج ، ان يتعرى عن اختباراته السابقة ومشاعره الموروثة والمكتسبة والجو الذي نشأ فيه والتقاليد السائدة في محيطه وعصره ؟ ذلك امر مستحيل ما دام الانسان — ايّ انسان — وليد احداث وملتقى عوامل متطورة مطورة تعمل في نفسه وفي مجتمعه .

فالتأريخ هو اذن ، من هذا الوجه ، منساب في شتى العلوم والآداب مرتبط بها متفاعل واياها . ولكنه يتميز عنها من حيث انصبابه على الماضي بالذات ، بينما هي تتجه الى اغراض وغايات اخرى .

ان الهم الاول للاديب او للفنان هو روعة انتاجه المستمدة من عمق اختباره ومن مقدرته على رؤية الجمال والتعبير عنه . هذه الروعة هي مثله الاعلى ، ومقاييسها هي المقاييس التي يخضع لها ، والتي على اساسها يُحكم له او عليه . اما تحديد منشأ هذه الروعة والمنابع التي صدرت منها ، فهو من وظيفة العالم النفسي او المؤرخ الفكري او الاجتماعي . وللتأريخ منها نصيب واف في الحالة الاولى ، والنصيب كله في الحالتين الاخريين . ومن هنا كان لازماً في انتاجنا الادبي ومناهجنا التربوية ، ان نميز تمييزاً دقيقاً بين الادب وتأريخه ، اذ ان التباس احدهما بالآخر يؤدي الى الارتباك بينهما والى ضعف الانتاج واضطرابه في كل منهما .

اما العلوم الطبيعية ، فليست غاية العالم فيها الاحداث الماضية بذاتها ، بل غايته استخلاص القوانين التي تربط هذه الاحداث ، او النظريات التي تفسرها . فالعالم الفيزيائي لا يهمه من اسقاط حجر الى الارض ، او رفع حرارة مادة من المواد ، ان هذا او ذاك حدث ماضٍ او متحول .

من ماضٍ الى حاضر او من حاضر الى مستقبل ، بقدر ما يهمه ان يستنبط منه قانون جاذبية الارض او قوانين الحرارة . يضاف الى ذلك ان هذا وامثاله من العلماء بمكنتهم ان يعيدوا هذه الاحداث مرة او مرات حسب ما يتطلبه منهم الاختبار من اجل استنباط القانون المنشود . اما المؤرخ فلا يهتم بهذه الاعادة ولا يدخلها في حيز عمله ، وهي على كل حال غير متيسرة له ، لان الاحداث التي يتناولها لا يمكن اعادتها بوسائل الاختبار كما يفعل العالم الطبيعي .

ووضع العلوم الاجتماعية شبيه من هذا القبيل بوضع العلوم الطبيعية في انها ترمي الى استنباط القوانين التي تنتظم بها الاحداث البشرية ، ولا تكتفي بمجرد ادراك تلك الاحداث بالذات . على ان هذه الغاية هي في العلوم الاجتماعية ابعد منالاً واصعب سبيلاً منها في العلوم الطبيعية ، لان مادة تلك العلوم – وهي الانسان فرداً ومجموعاً – اشد تعقيداً واعمق غوراً وابلغ فعلاً من مادة العلوم الطبيعية . والتأريخ يشارك العلوم الاجتماعية بمادته الانسانية ، ولكنه يختلف عنها في انه ينصرف الى هذه المادة من وجهة نشوئها وتغيرها وتسلسلها الزمني . فاذا شاء ان يتعدى هذا الى استخلاص قوانين التغير او التطور فقد دخل حيز دراسة اخرى يمكننا ان نميزها عن التأريخ الصرف ، وان كان لا بُدّ للمؤرخ ، كما سيتبين لنا ، من ان يلجها من بعض ابوابها . هذه الدراسة هي فلسفة التأريخ ، او علم الاجتماع التأريخي ، او علم « العمران البشري » كما دعاه ابن خلدون . ذلك ان العلوم الاجتماعية تهدف اولاً الى معرفة هذه القوانين ، وتوجه اهتمامها الى فهم العلاقات الاجتماعية في الحاضر ، وتطمح احياناً الى التنبؤ بما سيحدث في المستقبل . واذا هي تناولت الماضي ، فمن اجل الاستعانة بمادته فحسب ، ولكي تضم هذه المادة الى النتائج المحققة بالاختبار ، في سبيل تكوين النظريات والقوانين التي تفسر هذا الجانب او ذاك من الحياة الاجتماعية الحاضرة او التي تدل على اتجاهها المقبل .

نستخلص من هذه الملاحظات كلها ان التأريخ يتخلل الجهود الفكرية

الانسانية الاخرى ويمتزج بها ويتفاعل واياها ، ولكنه يتميز عنها بان غرضه الاول هو ادراك الماضي ذاته ، في حين ان لتلك اغراضاً اخرى عندما تنظر الى الماضي ، وهي تستخدم التأريخ او تستفيد منه في سبيل تحقيق هذه الاغراض .

•

ولكن ما هو هذا الماضي الذي يكوّن موضوع التأريخ ؟ يوسع البعض نطاق هذا العلم حتى يجعلوه يشمل جميع انواع الاحداث ، وكل ما ينظر اليه من الناحية الزمنية التغيرية ، فيقولون حيثما يكون تغير فثمة تأريخ . والتغير يتناول كل مظهر من مظاهر الطبيعة والانسان ، من اعظم المجرات الى ادق الذرات ، ومن اصغر الخلايا الحية الى اضخم المجتمعات الانسانية واشدها تعقداً . على ان التقاليد التأريخي قد حصر نفسه بجزء من اجزاء هذه الصيرورة الشاملة : وهو الجزء الذي يتعلق بالانسان ، ولذلك قلنا في تعريفنا ان التأريخ يسعى لادراك « الماضي البشري » . اما الصيرورة في عالم الطبيعة وفي الكائنات الحية غير الانسانية ، فهي من نصيب علوم اخرى : كعلوم الفلك ، وطبقات الارض ، والحيوان ، والنبات وما اليها . فلكل من هذه العلوم اهتمامها بالوجوه التكوّنية التطورية من مادتها ، ولا يدخل هذا الاهتمام في نطاق الوظيفة التي اخذها على عاتقه التأريخ بمعناه التقليدي المحدود .

ولقد اظهر العلم الحديث ، في قفزاته الجبارة المتتابعة في القرن الاخير ، ان هذا الجانب الذي يختص به التأريخ هو جزء ضئيل جداً من سياق الصيرورة الكونية ، وان زمنه في غاية القصر اذا قيس بالملايين ، بل بالبلايين من السنين التي مر بها التطور الكوني . لقد امتد افقنا الزمني الى ابعاد لم نكن نحلم بها الى عهد قريب . وطال مدى الماضي وبعد ، وقصر الجزء الذي يعنى به المؤرخ وقرب نسبياً . على ان للمؤرخ من هذا فائدة جزيلة . فمع انه لا يعنى عناية مباشرة بتلك الابعاد السحيقة وتلك التغيرات

والتطورات المتطاولة ، فان من الخير العظيم له ان يدركها وان يتابع جهود زملائه العلماء في كشفها ، اذ بذلك يقوى شعوره بالوحدة التي تربط وجوه العلم جميعاً ، ويرى موضوعه في حيزه الصحيح ، وضمن اطاره المتسع ، المغرق في الاتساع يوماً بعد يوم .

حتى « الماضي البشري » ذاته يحتاج الى تحديد . فالتطور الذي جازه جسم الانسان الى ان اصبح انساناً لا يدخل في نطاق علم التأريخ ، بل يتناوله علم الاحياء او بالاحرى علم خاص من مجموعة علوم الاحياء ، هو علم الاحاثة (الباليونتولوجيا) البشرية وتفرع الانسان الى اجناس ، والعوامل التي ادت الى هذا التفرع ، والمراحل التي قطعها ، هي من اختصاص علم معين هو علم الاجناس (الانثروبولوجيا) الطبيعي . فالتأريخ يتناول الإنسان منذ ان اكتمل تكوينه الطبيعي وانقسم الى اجناسه واسره المعروفة وبدأت تنبثق انسانيته . بل انه يتراجع عن هذا الحد الاول ، ويكتفي بالانسان منذ ان مارس الكتابة واكتشف المعادن وانشأ اجهزة الحكم الاولى — منذ ان بدأ يعي نفسه ويستغل الطبيعة وينتظم في مجتمع ، وبعبارة اوجز : منذ ان اصبح انساناً ناطقاً اجتماعياً . اما التطورات السابقة لهذا الحد ، وهي اطول زمناً وابعد غوراً واكثر بطئاً ، فتقع ضمن ما اعتيد ان يدعى « قبل التأريخ » . ولها اختصاصيوها والباحثون المتفرغون لها . وهم يعملون باتصال وتساند مع علماء الآثار من جهة والمختصين بعلم الانثروبولوجيا الثقافي من جهة اخرى . ومع ان اسلوب هؤلاء الاختصاصيين اسلوب تأريخي في جوهره ، فان نوع المصادر التي يستمدون منها نتائجهم ، وهي مصادر مادية متفرقة ، والمراحل البشرية التي يعالجونها ، وهي سابقة للحضارة المنتظمة ، تميزهم عن جمهرة المؤرخين الذين يعملون في ضوء التاريخ والحضارة . على ان هذا التمييز ، الذي يدعو اليه الاختصاص ، يجب ان لا يمنع التعاون المشترك بين الفريقين ، بل بالعكس يجب ان يوسعه ويمتنه لأن الاسلوب واحد في اساسه والغاية واحدة ، وهي فهم الانسان

في مختلف مراحله وتطوراته .

لقد حددنا « الماضي البشري » من وجهة الامتداد الزمني . فلنحاول الآن تحديده من وجهة سعة المتحوى . انا نجد هذه السعة تزداد يوماً عن يوم ، بل نجد ان الحدود قد زالت تماماً او كادت . فالتأريخ يعنى بالماضي البشري من جميع وجوهه ، لا يهمل منها شيئاً ولا يرتد عن شيء . لقد كان الناس فيما مضى — والمؤرخون في مقدمتهم — يوجهون عنايتهم الى الوقائع الحربية والتقلبات السياسية ويعتبرونها لب الماضي وجوهره الحري بالاعتبار ، واذا هم اهتموا بسواه اتى اهتمامهم جزئياً سطحياً وبدا في نتف ضئيلة مشتتة لا تدخل في صلب التأريخ ولا تبدل صفته الغالبة كسجل للحكام وللحروب . اما المعنى الذي نعرب عنه في تعريفنا ، والذي ينتشر اليوم بين المؤرخين وفي طبقات المثقفين عامة ، فهو ذلك الذي يشمل الحياة البشرية الماضية بجميع مظاهرها . فالنظم الاقتصادية ، والعلاقات الاجتماعية ، والاعتقادات والتقاليد الدينية ، والمذاهب الخلقية والاساليب الأدبية والفنية كلها تدخل ، من حيث تطورها الماضي ، في نطاق العناية التأريخية ، لانها كلها وجوه لحياة واحدة . ولئن كانت الاحداث السياسية والوقائع الحربية ابين من سواها واشد جذباً للنظر لما يصحبها من صخب وضجيج ، فان الاحداث الاخرى الاكثر خفاء — كالتطورات الاقتصادية او الاجتماعية او العقلية — لا تقل عنها في الغالب اهمية وفعلاً ، بل كثيراً ما تكون هي العاملة وراءها المسيرة لها .

وليس معنى هذا ان الحياة مؤلفة من اجزاء ووجوه منفصلة ، وان التأريـخ مجموعة تواريخ خاصة للسياسة والاقتصاد والاجتماع والادب وسواها . بل معناه ان الحياة البشرية هي في الماضي مثلها في الحاضر : وحدة عضوية تتفاعل فيها مختلف العناصر وتتكامل . فكل حدث من الاحداث — كبيراً كان أو صغيراً ، بارزاً أو خفياً — هو ملتقى مؤثرات متداخلة وعلاقات منبثة ، والحياة التي تتألف من هذه الاحداث هي

كيان متشابك معقد ولكنه ، بالوقت ذاته ، مترابط موحد يأبى التجزؤ والانقسام . ولذلك يصح ان يقال ان المرء لا يدرك حدثاً من احداث الحياة على حقيقته الا اذا وعى الحياة كلها ، ولا يدرك قسماً من اقسام التأريخ ادراكاً صحيحاً الا اذا فهم التأريخ البشري بكامله .

فلنجمل اذن مقصدنا بالماضي البشري بقولنا : انه الحياة البشرية في وحدتها المتعددة المظاهر ، وفي تطورها من فجر الحضارة — من تكوّن الانسان الاجتماعي الناطق — الى يومنا هذا .

●

ولننتقل الى عنصر آخر من عناصر تعريفنا . لقد قلنا ان التأريخ يسعى الى « ادراك » الماضي البشري . والادراك هو غير التوهم او التخيل او التصور ، سواء اكان هذا او ذاك او ذلك عن وعي ام عن غير وعي . فالشعوب في مراحلها البدائية ، حين يغلب الوهم على العقل ، والخيال على النقد ، والتصور على التحقيق ، تتناقل احداث ماضيها مضخمة صاخبة مفعمة بالبطولات — بطولات الآلهة وبطولات البشر — فتروي الخرافات ، وتنشد الملاحم ، ولا تلتزم الواقع كما حدث فعلاً . وقد بقي هذا العنصر الوهمي او الخيـــالي ملتصقاً بالمجهود التأريخي يؤثر فيه الى حدود بعيدة او قريبة الى ان انتظم علم التأريخ الحديث في القرن الاخير ، فدعا الى التحرر من هذا العنصر ، والى مجابهة الماضي واخباره باجهزة النقد والتحقيق التي تتميز بها المعرفة العلمية . ومع ان هذا الاتجاه قد اخذ يسود فئة الاختصاصيين ، فهو لا يزال بعيداً عن طبع العقلية التأريخية عند سواهم ، ولا تزال الكثرة من الناس تتوهم ماضيها وماضي غيرها ، ولا تدركها .

والتخيل قد يكون ، كما قلنا ، عن وعي وقصد . فالشاعر او الروائي او الرسام لا يعنى بحقيقة الماضي بقدر ما تهمه روعة الصورة التي يستخرجها منه . ان غرضه هو غير الغرض الذي نحن بصدده . ولسنا هنا في مجال الحكم على غرضه ، وابداء رأينا في مقاييسه . وانما جل ما نريد هو ان

تميز مسعاه عن المسعى التأريخي ، الذي يرمي الى ادراك الماضي واستجلاء حقيقته بالنظر العقلي وبأساليب التحقيق التي خبرها وأقرها العلم الحديث : وكذلك قولنا في المصلح السياسي او الاجتماعي الذي يعمل للحاضر وللمستقبل والذي لا يعنيه من الماضي الا ما يوحيه له ولمجتمعه . فهو لا يجد غضاضة ، بل هو ،على العكس، يجد الخير كل الخير ، في صب الماضي في قالب رسالته واكراهه على تأييدها . وقد يكون لهذا الاستيحاء والاكراه ما يسوغه ، ولكنه ليس على كل حال العمل التأريخي الذي نعالجه ، بل يختلف عنه غاية واسلوباً .

ان غاية التأريخ هي ادراك الماضي كما كان ، لا كما نتوهم انه كان . وكذلك ليس هو تصوير الماضي كما يجب ان يكون ، او كما نريده ان يكون . فثمة فئات من المفكرين ، في خلال العصور المتتابعة الى يومنا هذا ، قد آمنوا بفلسفة من الفلسفات او عقيدة من العقائد يفسرون بها طبيعة الكون والحياة والانسان ونشوءها وتطورها ، فاذا نظروا الى الماضي اختطوا له خطته وحصروه في مجرى عقيدتهم ، وضاقوا بكل ما ينفلت من هذا التحديد ، وفرضوا عليه الانصياع والانسياق . لقد ظهر هذا الاتجاه في فلسفات وعقائد تختلف او تتناقض في تعليلها للكون وللانسان، ولكنها تتشابه في فرض تعليلها الخاص على احداث الماضي . وليس يعنينا هنا جوهر اي منها — الهياً كان او مثالياً او مادياً او غير ذلك — وانما الذي يعنينا هو هذا الاتجاه « الفرضي » الذي نجده عندها جميعاً والذي نعتبره اخلالاً بالتأريخ وصرفاً له عن غايته الاصلية . وسنرى فيما يلي ان المؤرخ ، بل اي انسان ، لا يستطيع ان يتخلى عن معتقداته الاساسية في الحياة ، وان قيمته الذاتية والابداعية تتوقف على قيمة هذه المعتقدات وخصبها . ولكن ثمة فرقاً صريحاً بين التمسك بهذه المعتقدات تمسكاً يؤدي الى فرضها على الاحداث ، والاقتناع المتجرد المتفتح المستعد في كل آن لتعديل هذه المعتقدات على ضوء ما تكشفه المعرفة التأريخية والعلمية والفلسفية . هذا

الاتجاه الاخير هو الذي يتميز به « الادراك » الذي نعنيه في تعريفنا .

واذا كان هذا الادراك يتميز عن المحاولات المخلصة لتصوير الماضي على مثال معين — سواء اكان ذلك لايمان بحقيقة عليا دينية او فلسفية ، ام لاثارة الهمم ودفع الحياة الجديدة ، ام لابداع صور الجمال — فما أحراه أن يتميز عن كل تحريف للماضي في سبيل ارضاء هوى او نيل كسب او فرض سيادة او غير ذلك من الاغراض التي لا تمت الى الحق بصلة. بل الواقع ان التحقيق التأريخي يأخذ على عاتقه كشف هذه الاغراض والتحذير منها مهما يكن شكلها جذاباً او لونها لامعاً براقاً .

هذا الادراك الذي نبغيه يتميز اذن بغرضه وغايته : بأنه يسعى خالصاً متجرداً الى فهم الماضي كما كان على حقيقته . وفي هذه الغاية يلتقي التأريخ والجهود العلمية الاخرى المنصرفة الى اكتساب المعرفة الانسانية بتجرد واخلاص .

كثيراً ما يتجادل الناس في ما اذا كان يصح ان نعتبر التأريخ علماً من العلوم . وهو جدال لا يتضح او يهدأ الا اذا حددت الخصائص التي تميز العلم : أهي الغاية ، ام الطريقة ، ام الموضوع ، ام النتائج ، ام سواها ؟ ثم أهي بعض هذه أم كلها مجتمعة ؟ ان جل ما نود ان نثبته هنا هو ان المعرفة التأريخية لا تختلف عن اية معرفة اخرى من حيث الغرض الدافع والغاية المرتجاة . فالغرض الذي يدفع اي علم — مهما يكن موضوعه — هو كشف الحقيقة ، والتزام العلم لهذا الغرض قد طبع التقليد العلمي المتراكم خلال العصور وكان من اهم اسباب تقدمه وارتقائه . والتأريخ الذي نصف هنا جزء من هذا التقليد . فهو ، من هذه الناحية ، علم ، والادراك الذي ينشده ادراك علمي .

●

ان من طبيعة الادراك عندما يتم على شكله الصحيح أن يفعل فعله ويفصح عن ذاته . فليس ثمة معرفة مجردة لا علاقة لها بكيان العارف ولا

اثر لها فيه . وكذلك شأن المعرفة التأريخية . فهي اذ تقبل على الماضي وتدرك ما تدرك منه تحيي ذلك الماضي وتبعثه من رقاده . ولكن اين يكون هذا « الاحياء » ؟ أفي مصادر هذا الماضي ومخلفاته وآثاره ؟ لا شك ان الحس التأريخي المتيقظ يدفع الى البحث عن هذه المصادر وجمعها وحفظها ونشرها. وفي هذا احياء لها ، وبعث للوسائل التي تيسر لنا ادراك الماضي . اما احياء الماضي ذاته فلا يكون الا في عقل المدرك ونفسه : في نوع فهمه للماضي ، وتأثره بهذا الفهم ، وتجلي هذا التأثر في مجمل ادراكه ، وفي نزوعه النفسي ، وسلوكه الفردي والاجتماعي .

ومع ان هذا الاحياء هو ، كما قلنا ، نتيجة طبيعية للمعرفة الصحيحة ، فقد رأينا ان نذكره صراحة في تعريفنا للتأريخ عندما قلنا انه السعي الى ادراك الماضي واحيائه . على ان لهذا الاحياء معنى آخر هو ايضاً نتيجة لكل معرفة . ذلك ان من طبيعة المعرفة اذ تحصل ان تبتهج بذاتها وبالحق الذي كشفته ، فتجهد الى الاعراب عن ذاتها وعن هذا الحق ، والى ان تشارك سواها فيه . من هنا كان التأليف العلمي والفلسفي والادبي خلال العصور ، وكانت هذه الآثار الثقافية الضخمة التي تظهر جهود البشر المتراكمة في السعي والبحث والكشف ، والتي تكوّن عنصراً من اهم عناصر الحضارة واغناها فعلاً واشدها دلالة على انسانية الانسان ومدى ابداعه .

ومن ضمن هذه الآثار تلك التي نتجت عن الرغبة في نشر معرفة الماضي : من اقدم نقش سجّل وقائع سالفة عبر العديد الذي لا يحصى من المؤلفات التأريخية خلال العصور الى آخر انتاج تأريخي في وقتنا هذا . فالكتابة التأريخية التي يقصد منها الى نشر معرفة الماضي واشراك الغير بها جزء من الجهد التأريخي الذي حاولنا الاحاطة به في تعريفنا .

ولسنا نجهل ان جزءاً غير يسير من هذا الادب التأريخي لم يقصد به الى الحق خالصاً ، بل شاركت فيه اغراض اخرى ، ولكن ما نريد ان نثبته هنا هو ان الجهد التأريخي عندما يتوجه خالصاً للحق ولاداء مهمته

كاملة لا يقف عند مجرد بلوغ المعرفة التأريخية بل يتعداها الى نتيجتها : الى عرض هذه المعرفة ، واحياء الماضي بهذا المعنى وعن هذا السبيل . وسنرى في فصل مقبل ان لهذا الاحياء قواعده وضوابطه ، المجارية للغرض العلمي الخالص ، وان روعة التعبير يجب الا تطغى على دقة التحقيق ، وان قيمة أي انتاج تأريخي تقاس بصحة الادراك والمعرفة اولاً ، وبمقدار ما تتحلى به هذه المعرفة من جمال في العرض وابداع في البيان ثانياً .

●

بقي علينا ان نوضح المقصود من الكلمة الاولى التي بدأنا بها تعريفنا وهي « السعي » الى ادراك الماضي . ان كل جهد ايجابي انساني هو سعي الى غاية . والعلم ، من بين الجهود الانسانية ، سعي الى غاية معينة هي الحقيقة ، وبقدر ما يكون هذا السعي خالصاً ، وبقدر ما ينطلق بقوة وتراكم ، تعلو قيمته ويغزر فعله وتتعاظم نتائجه .

والتأريخ يشارك غيره من العلوم في انه مثلها سعي وجهد . وليس المهم هنا ضخامة النتائج وغزارتها . فأية نتيجة علمية ، مهما غزرت وضخمت ، تتضاءل قيمتها على مر الزمن ، بل قد تتفرق وتندثر ، اذا خف السعي ، وتوقف العقل عن الاقدام والاقتحام ، وزال الطموح الى تخطي هذه النتائج الى ما هو ابعد منها وادنى للحقيقة . ان محرك التأريخ — بل محرك اي علم — هو القلق الدائم والجهد المثابر . فاذا انطفأ هذا المحرك ، لم يكن ثمة علم ، ولم تكن حضارة ، بل لم يكن انسان حريّ بهذا الاسم .

على ان للسعي معناه الخاص بالنسبة للتأريخ . وهذا المعنى راجع الى الفرق الهائل بين جسامة موضوع هذا العلم وضآلة وسائله . وهو فرق اشد سعة وخطورة وادعى للتدبر والرهبة مما هو في العلوم الاخرى .

الماضي البشري : ما اطوله مدى ، واوسعه مجالاً ، واشده تداخلاً وتعقداً ! احقاب مديدة ، واحداث متتابعة متشابكة ، وامم تعاقبت على مسرح الوجود ، وشعوب تصارعت وتفاعلت وانتجت واجدبت ،

وحضارات تتالت واخذ بعضها عن الآخر ، وفعل بعضها في الآخر ، اخذاً وفعلاً قليلها بارز بيـِّن وكثيرها خفي قصي . حياة انسانية غنية القوى متنوعة العناصر تشترك في تكوينها خوالج القلوب وهبات النفوس، وانطلاق الخيال وتوثب الفكر ، وتصطدم في موافقها الرغبات والاهواء والمطامع ، ويمتزج في صنعها الخير والشر والحسن والقبيح والحق والباطل . سلاسل متماسكة من الاحداث ، ترتبط فيها السياسة بالاقتصاد ، والادب بالاجتماع ، والفن بالاخلاق ، وتنبث هذه جميعاً في خلاياها فتفعل وتنفعل ، وتؤثر وتتأثر ، وتخرج نتاجاً متموجاً صعب المسلك سريع الانفلات .

اي عقل بشري يستطيع ان يحيط بهذا كله ويسبر غوره ؟ اي ذهن له من السعة والنفاذ ما يؤهله لوعي حقيقته ؟ قد يقال ان سبيل التأريخ هنا هو سبيل اي علم من العلوم : انه الاختصاص الذي يتناول جزءاً من هذا الموضوع الواسع الشامل ولا يزال يعمل فيه درساً وتحقيقاً الى ان يجلوه ويستنفده ، فاذا تم هذا باجزاء الماضي جميعاً ، تجلت صورته وبانت حقيقته وبلغ علم التأريخ غايته.

اجل ! هذا هو السبيل الذي يتبعه التأريخ في مرحلته المعاصرة : زيادة في الاختصاص ، وتوغل في الجزئيات . ومع انه ليس من تعارض مبدئي بين التدقيق الاختصاصي والفهم الكلي ، فانه ندر بين المؤرخين من يستطيع الجمع بين هاتين الميزتين . ولذا نجد الابحاث التأريخية في الوقت الحاضر تزداد ضيقاً وتفرعاً ، فتزداد بذلك صعوبة الاحاطة بها وربطها بوحدة التأريخ المستمدة من وحدة الحياة . وقد اظهر الاختبار انه كلما تفرع هذا النظر الجزئي ضعف الادراك الكلي ، وكلما تناثرت الابحاث صعب اعادتها الى وحدة التأريخ المستمدة من وحدة الحياة . فلا مراء في ان المطلوب ضخم ، بل لعله اضخم مطلوب استهدفه علم من العلوم .

وان هذه الضخامة لتتضح ويتضاعف اثرها في النفس اذا قوبلت

بضآلة الوسائل التي يملكها التأريخ ، بالنسبة الى ما تملكه العلوم الاخرى .. ففي حين ان هذه العلوم تجابه موضوعها مباشرة ، وبعضها يستطيع ان يتحكم فيه ، كما يفعل العالم الطبيعي في مختبره إذ يتناول المادة التي يبحثها رأساً ويخضعها للاختبار قدر ما يشاء ، نرى المؤرخ محجوباً عن الاتصال المباشر بمادته وعاجزاً عن التحكم بها . انه لا ينفذ الى الماضي الا بقدر ما خلف الماضي من آثار ، والا من خلال هذه الآثار . انه لا يتصل بالماضي ذاته ، بل يستنطق مخلفاته ، ليستخرج منها صورته . وكلنا يعلم الغايات العديدة المتضاربة والاهواء المتناقضة التي دفعت الى وضع هذه الآثار او فعلت في كتابتها ، وكلنا يعلم ما اصابها في خلال العصور من تفرق وتشتت وضياع . فكيف يمكن ان تستخرج منها صورة صحيحة كاملة لهذا الماضي الذي نبغيه ، وكيف يؤمل ان تدر هذه الوسائل الناقصة المتفرقة ، المنحرفة في احيان كثيرة عن غايتها ، النتائج السليمة المتماسكة التي نطمح اليها ؟؟

ان تعقد الحياة البشرية وخفاء اسرارها هو الذي يجعل العلوم التي تعنى بها ، وهي العلوم الانسانية والاجتماعية ، اقل اطمئناناً لنتائجها وابعد عن التأكيد والبت ، مما عليه الحال في العلوم الطبيعية حيث المادة ابسط تركيباً واسهل منالاً . ولذا يتردد البعض في اطلاق لفظة العلم على هذه الجهود العقلية ، ويشكون في امكان قيام « علوم » اجتماعية . وهم اكثر تردداً واقوى شكاً فيما يختص بـ « التأريخ » ، لانه يجابه ، بالاضافة الى صعوبة الموضوع التي يشارك فيها « العلوم » الاجتماعية الاخرى ، صعوبات خاصة ناشئة عن نقص الاجهزة المتاحة له واضطرابها وتفرقها .

ان الذين يقفون هذا الموقف يتخذون دقة النتائج ودرجة الاطمئنان اليها وامكان التنبؤ مقياساً لتحديد العلم . ونحن نرى ان للعلم مقاييس اخرى غير هذه ، ولعلها اهم منها . من هذه المقاييس : الغاية التي يسعى اليها جهد عقلي معين . وقد اوضحنا ما امكننا في هذا الفصل ان غاية التأريخ في الكشف عن نصيبه من الحقيقة هي الغاية ذاتها التي يستهدفها

تميز مسعاه عن المسعى التأريخي ، الذي يرمي الى ادراك الماضي واستجلاء حقيقته بالنظر العقلي وبأساليب التحقيق التي خبرها وأقرها العلم الحديث : وكذلك قولنا في المصلح السياسي او الاجتماعي الذي يعمل للحاضر وللمستقبل والذي لا يعنيه من الماضي الا ما يوحيه له ولمجتمعه . فهو لا يجد غضاضة ، بل هو ،على العكس، يجد الخير كل الخير ، في صب الماضي في قالب رسالته واكراهه على تأييدها . وقد يكون لهذا الاستيحاء والاكراه ما يسوغه ، ولكنه ليس على كل حال العمل التأريخي الذي نعالجه ، بل يختلف عنه غاية واسلوباً .

ان غاية التأريخ هي ادراك الماضي كما كان ، لا كما نتوهم انه كان . وكذلك ليس هو تصوير الماضي كما يجب ان يكون ، او كما نريده ان يكون . فثمة فئات من المفكرين ، في خلال العصور المتتابعة الى يومنا هذا ، قد آمنوا بفلسفة من الفلسفات او عقيدة من العقائد يفسرون بها طبيعة الكون والحياة والانسان ونشوءها وتطورها ، فاذا نظروا الى الماضي اختطوا له خطته وحصروه في مجرى عقيدتهم ، وضاقوا بكل ما ينفلت من هذا التحديد ، وفرضوا عليه الانصياع والانسياق . لقد ظهر هذا الاتجاه في فلسفات وعقائد تختلف او تتناقض في تعليلها للكون وللانسان، ولكنها تتشابه في فرض تعليلها الخاص على احداث الماضي . وليس يعنينا هنا جوهر اي منها — الهياً كان او مثالياً او مادياً او غير ذلك — وانما الذي يعنينا هو هذا الاتجاه « الفرضي » الذي نجده عندها جميعاً والذي نعتبره اخلالاً بالتأريخ وصرفاً له عن غايته الاصلية . وسنرى فيما يلي ان المؤرخ ، بل اي انسان ، لا يستطيع ان يتخلى عن معتقداته الاساسية في الحياة ، وان قيمته الذاتية والابداعية تتوقف على قيمة هذه المعتقدات وخصبها . ولكن ثمة فرقاً صريحاً بين التمسك بهذه المعتقدات تمسكاً يؤدي الى فرضها على الاحداث ، والاقتناع التجرد المتفتح المستعد في كل آن لتعديل هذه المعتقدات على ضوء ما تكشفه المعرفة التأريخية والعلمية والفلسفية . هذا

الاتجاه الاخير هو الذي يتميز به « الادراك » الذي نعنيه في تعريفنا .

واذا كان هذا الادراك يتميز عن المحاولات المخلصة لتصوير الماضي على مثال معين — سواء أكان ذلك لايمان بحقيقة عليا دينية او فلسفية ، ام لاثارة الهمم ودفع الحياة الجديدة ، ام لابداع صور الجمال — فما أحراه أن يتميز عن كل تحريف للماضي في سبيل ارضاء هوى او نيل كسب او فرض سيادة او غير ذلك من الاغراض التي لا تمت الى الحق بصلة. بل الواقع ان التحقيق التأريخي يأخذ على عاتقه كشف هذه الاغراض والتحذير منها مهما يكن شكلها جذاباً او لونها لامعاً براقاً .

هذا الادراك الذي نبغيه يتميز اذن بغرضه وغايته : بأنه يسعى خالصاً متجرداً الى فهم الماضي كما كان على حقيقته . وفي هذه الغاية يلتقي التأريخ والجهود العلمية الاخرى المنصرفة الى اكتساب المعرفة الانسانية بتجرد واخلاص .

كثيراً ما يتجادل الناس في ما اذا كان يصح ان نعتبر التأريخ علماً من العلوم . وهو جدال لا يتضح او يهدأ الا اذا حددت الخصائص التي تميز العلم : أهي الغاية ، ام الطريقة ، ام الموضوع ، ام النتائج ، ام سواها ؟ ثم أهي بعض هذه ام كلها مجتمعة ؟ ان جل ما نود ان نثبته هنا هو ان المعرفة التأريخية لا تختلف عن اية معرفة اخرى من حيث الغرض الدافع والغاية المرتجاة . فالغرض الذي يدفع اي علم — مهما يكن موضوعه — هو كشف الحقيقة ، والتزام العلم لهذا الغرض قد طبع التقليد العلمي المتراكم خلال العصور وكان من اهم اسباب تقدمه وارتقائه . والتأريخ الذي نصف هنا جزء من هذا التقليد . فهو ، من هذه الناحية ، علم ، والادراك الذي ينشده ادراك علمي .

●

ان من طبيعة الادراك عندما يتم على شكله الصحيح أن يفعل فعله ويفصح عن ذاته . فليس ثمة معرفة مجردة لا علاقة لها بكيان العارف ولا

اي علم يتصف بهذا الوصف ، وانه لا غبار علينا ، من هذه الوجهة ، اذا اطلقنا عليه هذا اللفظ ووصفناه به .

على ان ثمة مقياساً آخر : هو الطريقة التي يتبعها الجهد العقلي لبلوغ الحقيقة . وهنا ايضاً نجد ان التأريخ قد اختط لنفسه في القرون الاخيرة طريقة دقيقة وصناعة (تكنيكاً) محكمة يحاول التزامها واتباعها دون زيغ او انحراف في سبيل غايته . ولئن كان موضوعه اصعب من موضوعات العلوم الطبيعية ، ولئن كانت اجهزته اضعف من اجهزة سائر العلوم ، فان هذه الصعوبة وهذا الضعف بالذات ، يفرضان عليه ان يكون اكثر حرصاً على انضباط اسلوبه ودقة طريقته ، واوفر تقيداً بقواعد صناعته ، مما لو كان موضوعه اقرب مأخذاً وأسهل منالاً .

فالسعي لادراك الماضي البشري واحيائه الذي عرّفنا به التأريخ وبيّنا منه غرضه يتطلب ، كأي سعي علمي آخر ، اسلوباً يضمن له بلوغ الغاية ويقيه شرور الانحراف والانزلاق ، وصناعة يتدرّب بها ويخضع لقواعدها ويلتزم حدودها . والعلم — بمعناه الاصيل الشامل — يفرض التزاماً لاسلوب وصناعة ، كما يتطلب التزاماً لغاية . وهذا الالتزام المزدوج هو الذي ادى الى رقي العلم وتوافر نتائجه وتعاظم اثره .

فلنتقدم اذن الى تعريف هذه الصناعة في ما يختص بالتأريخ .

صِناعة التاريخ

نعني بالصناعة هنا ما يعنى في اللغات الغربية بـ « التكنياك » ، اي الجهد المنصرف الى غاية معينة والمنضبط بقواعد حققها بالاختبار تكفل بلوغه تلك الغاية عن اسلم الطرق واضمنها واوفرها نتاجاً . ولقد كان بامكاننا ان نقول « فن » التأريخ تعبيراً عن المعنى ذاته ، لولا خوفنا من ان يلتبس المقصود اليه هنا بالاخراج الادبي للبحث التأريخي الذي يختلف عما نريده ويؤلف جانباً آخر من موضوعنا سنعرض له في مكان تال من هذه الفصول .

ان هذه الصناعة هي نتيجة تطور طويل المدى بدأ منذ ان اخذ الانسان يلتفت الى ماضيه ويسجل حوادثه . ولكن هذا التطور ظل بطيئاً متفرقاً خلال قرون عديدة، ولم ينطلق ويتجمع ويتكامل حتى العصور الحديثة ، بل لنقل حتى القرن التاسع عشر الماضي عندما قوي فعله في الانتاج التأريخي ، ثم ادى في اواخر ذلك القرن واوائل القرن العشرين الى تحديد نظري للصناعة التأريخية ، ودراسة خاصة بهذا الموضوع .

هذه الصناعة تعرف في الغرب بمتودولوجية التأريخ . وقد دعاها الدكتور اسد رستم في اول كتاب ألِّف في هذا الموضوع في اللغة العربية

« مصطلح التأريخ » (١) ، جرياً على التسمية التي اطلقها العلماء المسلمون على علم « مصطلح الحديث » ، ذلك العلم الذي عمدوا فيه الى نقد احاديث الرسول واستخلاص قواعد هذا النقد . ومن المعلوم ان هذا النقد قد تسرب اثره من الحديث الى التأريخ ، وان المؤرخين المسلمين الاولين استفادوا منه في نقد رواياتهم . ولكن ظروفهم ، والمرحلة التي بلغها عصرهم من التطور العقلي ، لم تسمح لهذه البذور بأن تتفتح ، وان تؤتي ثمارها الكاملة التي نعرفها اليوم . ومع هذا ، فانه يحسن بنا ان نعود الى هذه الجهود الاولى ، والى جهود نقد الحديث من ورائها ، اذ نجد فيها مبادىء مستنبطة حرية بان تُبعث وتحقق وتنشر ، وبأن يجلى ما تتضمنه من سبق وابتكار ، لتحتل مكانها في تاريخ الجهد النقدي التأريخي الذي ساهمت فيه الشعوب المختلفة خلال القرون . ولقد اصاب الدكتور رستم اذ اتجه في بحثه هذا الاتجاه وربط بين مبادىء الصناعة التأريخية الحديثة ومبادىء « مصطلح الحديث » ، فكان له فضل السبق بين المؤرخين العرب المحدثين ، سواء من جهة التأليف في المثودولوجيا التأريخية عموماً او من جهة تبيان فضل علماء الحديث في هذا الباب .

ان الاسلوب الذي تنطوي عليه الصناعة التأريخية يتكون من سلسلة من الجهود المحكمة المتتابعة تبدأ من اكتشاف الاثر او الوثيقة التي خلفها الماضي وتنتهي بالتأليف التأريخي . وهو ، كما قلنا ، قد اصبح موضوع دراسة منظمة مستفيضة ، بل كاد يؤلف علماً خاصاً من العلوم المتصلة بالتأريخ . ومن الواضح اننا لن نستطيع ، في هذا الفصل المجمل ، الاحاطة بهذه الدراسة والتبسط فيها ، وانما نكتفي بالاشارة الى اهم مراحلها ومقوماتها ، كي يبين المقصود من الصناعة التأريخية ، ويظهر فعلها في استعادة الماضي ، واثرها في الموقف الذي

(١) بيروت (المطبعة الاميركية ، ١٩٣٩) .

نتخذه منه . (١)

●

تفرض الصناعة التأريخية ان يكون المؤرخ قد اختار حقبة من حقب الماضي او ناحية من نواحيه لدراستها وجلاء غامضها . ولا تعنينا هنا الدوافع التي دفعته الى هذا الاختيار والتي سنعرض لها في مناسبة تالية ،

(١) يمكن من يريد التبسط في قواعد هذا العلم الرجوع الى المؤلفات العديدة التي وضعت فيه . وأقدم كتابين رسما هذه القواعد وكان لهما أثر كبير في تثبيتها ونشرها هما :

Bernheim, Ernst, *Lehrbuch der historischen Methode und der Geschichtsphilosophie* الذي ظهرت طبعته الاولى عام ١٨٨٩

Langlois, Ch., and Ch. Seignobos, *Introduction aux études historiques* **(Paris, 1898), tr. by G. Berry,** *Introduction to the Study of History* **(New York, 1898)**

ومن المؤلفات الاخرى :

Vincent, John, *Historical Research* **(New York, 1911)**

Fling, Fred M ., *The Writing of History* **(New Haven, 1920)**

Fortescue, John, *The Writing of History* **(London, 1926)**

Johnson, Allen, *The Historian and Historical Evidence* **(New York, 1926)**

Nevins, Allen, *The Gateway to History* **(New York, 1938)**

Kent, Sherman, *Writing History* **(New York, 1941)**

Halphen, Louis, *Introduction à l'histoire* **(Paris, 1948)**

Bloch, Marc, *Apologie pour l'histoire ou Métier d'historien* **(Paris, 1949), tr. by P. Putnam,** *The Historian's Craft* **(New York, 1954)**

Gottschalk, Louis, *Understanding History* **(New York, 1950)**

Renier, G. J., *History, Its Purpose and Method* **(London, 1950)**

Marrou, H. I., *De la connaissance historique* **(Paris, 1954)**

وفي اللغة العربية :

اسد رستم ، مصطلح التاريخ (بيروت ، ١٩٣٩)

حسن عثمان ، منهج البحث التاريخي (القاهرة ، ١٩٤٣)

وانما يهمنا ان نشير الى انه قل بين المؤرخين اليوم من يتناول الماضي البشري بكامله ، وان العمل التأريخي يبدأ عادة برغبة اولية في العناية بهذا او ذاك من وجوه الماضي ، وقد تستمر هذه العناية في الوجه ذاته او تتحول الى سواه حسب اختبار المؤرخ وتطور عمله .

ولقد قلنا ان الماضي يُستخرج من الآثار التي خلفها السلف . فهي « مصادر » التأريخ ، يوجد بوجودها ويضيع بضياعها . وعلى هذا ، فالخطوة الأولى من خطى الصناعة التأريخية هي البحث عن المصادر المتعلقة بموضوع المؤرخ . وهذه المصادر على انواع عديدة ، تختلف قيمة كل نوع منها حسب الفترة او الناحية المعنيّ بها . فثمة الابنية والنقوش والتماثيل ، والمخلفات المادية من آنية والبسة ونقود وما اليها ، والوثائق المكتوبة التي دوّن فيها السلف خوالج نفوسهم او ضروب معاملاتهم ، او التي سجلوا فيها احداث زمانهم او اخبار الماضي . وبايجاز : ان كل اثر ، مادي او ادبي ، خلفه لنا الماضي هو مصدر من مصادر التأريخ . بل كثيراً ما يتجاوز المؤرخ هذه الآثار المحسوسة ويحاول استنطاق الحياة الحاضرة لينفذ من خلال مظاهرها المتعددة ، كاللغة والمعتقدات والعلاقات الاجتماعية ، الى الاصول التي نشأت منها والتحولات التي طرأت عليها . على ان اهم هذه الآثار بلا جدال — الا في تاريخ العصور المتباعدة في القدم — هي الوثائق المكتوبة ، وبصفة اخص المؤلفات «التأريخية» التي سجل فيها السلف الاحداث المعاصرة او السابقة . ولذلك نحصر اكثر قولنا في هذا الفصل بها .

ان التقدير المتزايد لهذه الحقيقة — لاعتماد التأريخ على المصادر اعتماداً اساسياً ان لم نقل كلياً — هو الذي يدفع المؤرخين ، وسواهم من المهتمين بالماضي ، الى التفتيش عن هذه الآثار ، وجمعها ، وحفظها من التلف والضياع ، وتيسير الوصول اليها . من هنا كانت المتاحف والمكتبات وسواها من المؤسسات ، القائمة في انحاء العالم المتحضر ، المتسابقة الى البحث عن الآثار المخطوطة وغير المخطوطة ، والى اقتنائها وصيانتها من العبث والاندثار . ومن هنا ايضاً كانت الفهارس الوافرة الضخمة

لوصفها وارشاد الناس اليها ، والوسائل المستحدثة لتسهيل نقلها وتصويرها وجعلها في متناول من يريد الاطلاع عليها .

وعندما يعمد المؤرخ الى البحث عن المصادر المتعلقة بموضوعه ، يجب عليه ان يستقصي هذا البحث الى ابعد حد ممكن ، فلا يزدري اياً من المصادر او يهمله ، لان اضألها واحقرها لدى النظرة الاولى قد يغدو بعد التحقيق اشدها خطورة واغناها بالمعلومات ، والحجر الذي يرذله البناؤون قد يصير رأس الزاوية .

وتتلو عملية التفتيش والجمع هذه او تصاحبها عملية النقد . فالمؤرخ لا يأخذ الوثائق على علاتها ، بل يعمد ، بأساليب من النقد والتمحيص ، الى فحص كل منها لتبين قيمته ومدى امكان الركون اليه في استخراج اخبار الماضي . وهذه الاساليب النقدية متعددة متتابعة ، تقسم عادة قسمين رئيسيين : النقد الخارجي الذي يتجه الى تثبيت نص الوثيقة وتعرّف مؤلفها وزمانها ومكانها ، والنقد الداخلي الذي يتناول روايات النص لفهم معناها ، وقدر اتجاهات مؤلفها ومدى تسرب الخطأ اليها او تأثير التشيع فيها .

عندما نجابه الوثيقة تعترضنا حالات مختلفة . فقد تكون هذه الوثيقة النسخة الاصلية التي وضعها المؤلف . عندها تخف متاعبنا ونبادر الى اعتماد نص هذه النسخة ، خصوصاً اذا كانت سليمة لم تتعرض لاي فساد او تحريف . ولكن هذه الحالة حالة نادرة نظراً لما لحق بالوثائق التأريخية من تشتت وضياع . والاغلب ان تكون قد حفظت لنا نسخة او نسخ منقولة عن النص الاصلي اما رأساً او بالواسطة . وهنا تبدأ عملية صعبة معقدة ترمي الى ترتيب هذه النسخ حسب علاقتها بعضها ببعض ، وتبين الحلقات الضائعة بينها ، ومحاولة استخراج النص الاصلي منها او الوصول الى اقرب صورة ممكنة لذلك النص . وهذا العمل النقدي يتطلب معارف متنوعة بالخط والورق والحبر وسواها من وسائل الكتابة والنسخ ، ويعتمد ادلة من الوثائق ذاتها ومن خارجها . وغايته ، كما قلنا ، استخراج اصح

نص ممكن (اي اقرب ما يمكن الى الاصل) ، ثم نشر هذا النص ليبقى مرجعاً ثابتاً للباحثين . وكثيراً ما يحدث ان يبذل هذا الجهد التحقيقي الوافر ويتوج بالنشر ثم يكتشف نص اقدم من النصوص التي اعتمدت او احرى منها بالثقة ، فتعاد المحاولة ثانية على ضوء هذا الدليل الجديد .

وبعد تثبيت النص ، قدر ما يمكننا التثبيت ، نتساءل عن المؤلف : من هو ؟ هل هو ذلك الذي تدعي الوثيقة انها من تأليفه ، ام شخص آخر ؟ وبكلمة اخرى ، هل الوثيقة صحيحة ام مدسوس فيها ام مزورة ، وما هو مبلغ الدس والتزوير فيها ؟ وهل هي من نتاج مؤلف واحد او اكثر من مؤلف ، وما هي الاقسام الخاصة بكل منهم ؟ وسبب هذا البحث كله هو ان الناس لم يكونوا يتورعون في الماضي — ولعل بعضهم لا يتورعون اليوم — من التلاعب بما لديهم من نصوص ومن محاولة تبديلها والاضافة اليها والحذف منها و « تصحيحها » ، وذلك لغايات متباينة بعضها بريء واكثرها غير بريء . ويصاحب هذا التساؤل عن المؤلف تساؤلات عن زمانه ومكانه ، وعن زمان الوثيقة الاصلية ومكانها ، وعن كل ما يساعدنا على وضعها في موضعها الصحيح وتصور الاحوال التي كتبت فيها والتطورات التي تعاقبت عليها .

هذه هي اهم مراحل « النقد الخارجي » . وهي تمهد لمراحل « النقد الداخلي » ، اذ بعد ان نتثبت من النص ونتعرف مؤلفه وزمانه ومكانه ، نبادر إلى رواياته لنتفهم مقصود المؤلف : ماذا يقول ، او ماذا كان يريد ان يقول . واول ما يقتضينا هذا التفهم معرفة اللغة التي كتبت بها الوثيقة . وكثيراً ما يكون جهل لغة من اللغات عائقاً عن الاستفادة من نصوص هامة ووثائق خطيرة . ولما كانت اللغة تتطور والمفردات تكتسب معاني مختلفة حسب تطور الحضارة ، فيجدر بالباحث ان يكون واقفاً على لغة العصر الذي كتبت الوثيقة فيه واصطلاحاته الخاصة ومعاني المفردات والتراكيب المستعملة فيه . كذلك قد لا يكفي ، في احوال كثيرة ، تفسير

ظاهر النص ، بل يحتاج المؤرخ الى استكناه باطنه والنفاذ من اللفظ الخادع احياناً الى لب المعنى المقصود .

وتتبع محاولة فهم النص محاولة اخرى هي تقدير قيمة المؤلف وصحة شهادته : هل كان قريباً من الحوادث التي يروي اخبارها ام بعيداً عنها ، وهل كان في وضع يساعده على صحة مشاهدتها ودقة ملاحظتها ورواية خبرها ، وهل هو منضبط ضابط لشهادته وروايته ، عدل امين في تحقيقه ونقله ، ام متشيع متغرض تدفعه عوامل داخلية او خارجية للزيغ عن الحق واعلانه على غير ما هو ؟ ان غاية هذه الاسئلة وسواها من اسئلة التعديل والتجريح هي قدر قيمة المؤلف كشاهد ، وبالتالي قيمة الشهادة التي يدلي بها ، كل ذلك استعداداً للعملية التالية : عملية استخراج حقيقة الحادث التاريخي من الشهادات الباقية عنه .

●

ان عمل المؤرخ في هذه المرحلة النقدية هو اشبه ما يكون بعمل المستنطق في الدوائر القضائية الذي يأتي بالشهود والرواة فيستنطقهم ويدقق في شهاداتهم ويحقق في افاداتهم ويقدم نتيجة تدقيقاته وتحقيقاته ليستند اليها في الحكم في ما جرى . ولكن المؤرخ لا يقف عند عمل المستنطق ، بل يتجاوزه الى عمل المدعي العام ، والى عمل المحامي — متخذاً وجهة الادعاء تارة ووجهة الدفاع اخرى — ثم يصل اخيراً الى عمل القاضي الذي يحاول اثبات الوقائع قبل أن يقدم على الحكم فيها .

ان المؤرخ يتناول الروايات بعد ان تكون قد نقدت كما ذكرنا فيقارنها ويقابلها بسواها من الروايات المنقودة مثلها ، وما يزال يقابل ويقارن ، ويقارب ويوازن — مقدماً في ذلك كله الشك على التصديق والاتهام على التبرئة — الى ان يكوّن قناعة ما عن الحادث وكيفية وقوعه . فاذا فعل هذا وجد انه لا يستطيع ان يجزم في احكامه الا في احوال نادرة ، وانه مضطر في اكثر الأحوال الى ترجيح رأي على رأي او قناعة على قناعة ،

او الى مجرد ذكر الروايات دون اتخاذ موقف منها الى ان تظهر زوايات او تحقيقات جديدة تقوي عنده الشك او الترجيح ، او تمكنه من الاثبات او الانكار .

هذه الاحكام التي يطلقها المؤرخ على الحوادث هي « الحقائق » المفردة التي تتبين له من الماضي . وهي اشبه ما تكون بالحجارة المتفرقة التي تحتاج الى **جمع ورصف وتركيب** ليتكون منها البناء كاملاً او اقرب ما يمكن الى الكمال . ولكن كثيراً ما تكون بعض هذه الحجارة مفقودة بسبب سكوت السلف او ضياع آثارهم ، فتظهر ثلم وثغر يجد المؤرخ ضرورة لسدها وملء فراغها . وسبيله الى هذا الملء الاجتهاد والقياس ، اي استنتاج ما يمكن ان يكون قد حدث بالاستناد الى ما حدث فعلاً في ظروف مماثلة او الى قوانين طبيعية او اجتماعية يستمدها من العلوم الاخرى . ولا غنى عن القول ان القياس والاستنتاج والاجتهاد يجب ان تكون متصفة بالحذر والاحتياط ، كي لا يجمح بالمؤرخ الخيال او يغرب به التكهن ، وكي لا يبعد عن الواقع التاريخي كما حدث فعلاً . فلكم خيب هذا الواقع تصورات المؤرخين والباحثين ، فجاء مخالفاً لما ظنوه « معقولاً » او « ضرورة محتمة » ، ولما قدروا بالاستنتاج انه كان ممكن الحدوث او واجب الحدوث .

ان المؤرخ ليجد انه يحتاج في سبيل هذا الاستنتاج والاجتهاد — بل في سبيل العمل التاريخي كله — الى ان يكوّن لنفسه نظرية شاملة واضحة يفسر بها نشوء الاحداث البشرية وتطورها . بل لا غنى لاي انسان حي واعٍ عن معتقدات اساسية تجدها منبثة في مختلف آرائه وتصرفاته وطابعة اياها بطابعها الخاص . ويستمد المؤرخ هذه المعتقدات من نظره في العلوم الفلسفية والاجتماعية ومن اختباراته العقلية والروحية ، كما يستمدها من الحقائق التي يكشفها البحث التاريخي ذاته . على انه لا يفرضها على هذه الحقائق فرضاً ، ولا يؤمن بها ايماناً اعمى ، بل يعتبرها قابلة للتبديل والتعديل

حسب ما يظهر له من اضواء جديدة تلقيها حقائق التأريخ او النتائج العلمية الاخرى . وهكذا تتفاعل في التأريخ النظرة الفلسفية والتحقيق العلمي ، شأنهما في العلوم الاخرى ، تفاعلاً خصباً مثمراً مفيداً لهما جميعاً . فالتحقيق في الجزئيات يستفيد من هدي النظرة الكلية اذ يرى الحقائق الجزئية في ترابطها واتصالها بعضها ببعض ، والنظرة الكلية بدورها تُحك وتمتحن بالمعارف التفصيلية وتنمو وتتطور بنمو هذه المعارف وازديادها وتطورها . وسنعود الى بحث هذا التعليل التأريخي في فصل خاص من هذا الكتاب .

•

ان غاية هذه المراحل ، مراحل النقد والتحقيق والاستنتاج ، هي استخراج حقيقة الماضي بجزئياتها وكليتها . وهي مراحل علمية في جوهرها ، ولكن لا بد من ان تتخللها ، كما تبين لنا ، جهود تعليلية فلسفية خصوصاً في مراحل الجمع والتأليف . اما المرحلة الاخيرة من العمل التأريخي فهي مرحلة ادبية فنية يلجها المؤرخ عندما يعمد الى **عرض** ما توصل اليه ونشره بين الناس . وهنا تتجلى ملكة المؤرخ في حسن الاداء وروعة التعبير ، ونقل الاختبار النفسي بأبلغ الوسائل واجملها واشدها تأثيراً . ولئن كان التأريخ علماً من حيث تحقيقه ، وفلسفة من حيث ما يحاول من تفهم كلي وربط للاحداث وتعليل للاسباب والنتائج ، فهو ادب وفن من حيث العرض والاداء والبيان . ولا يعني هذا طبعاً ان يعتبر التأريخ ادباً فحسب ، او ان تتغلب فيه العناية بالتعبير على الدقة في التحقيق ، كما حصل عند فريق كبير من المؤرخين من مختلف الاجناس والثقافات . فان صفة التأريخ الادبية يجب الا تتجاوز صفته العلمية والا تسلبها مقامها الاول ومرتبتها الاساسية . والمؤرخ المتميز هو الذي يعرف كيف يكسو العلم الدقيق بالاسلوب الرفيع . وهذا توفيق لا يتأتى الا لنفر قليل من الموهوبين الجاهدين : اولئك الذين خلدوا اسماءهم في سجل الكتابة التأريخية ، وبلغوا بها الى

اعلى قممها ، والذين يعود الناس الى مؤلفاتهم عصراً بعد عصر فيكتسبون منها ذوقـاً وادبـاً وغنى نفسياً مثل مـا يكتسبون منها علماً ومعرفة وحكمة .

●

هذه هي الخطة الطويلة الوعرة التي ترسمها الصناعة التأريخية . ونرجو ان يكون هذا الوصف المجمل الخاطف لها قد اظهر ما يعتورها من مصاعب وما يعترضها من عقبات . فان كل مرحلة من مراحلها وكل ناحية من نواحيها محفوفة بالاشواك والمزالق ، تتطلب اقصى الجهد وتقتضي اوفر العناء ، ولا تتم بنجاح الا اذا روعيت قواعد هذه الصناعة الدقيقة ووفيت شروطها العسيرة ، وتجلى بها التدرب العقلي المنتظم والمرانة الجاهدة الدائبة .

اجل ! إن هذه الصناعة شديدة المطالب : فان كلاً من مراحلها المختلفة تقتضي معارف خاصة ، بحيث ان من يسير في هذا الطريق الى نهايته ليحتاج الى ذخيرة غزيرة من المعارف ، والى المام بعلوم وآداب مختلفة لها اتصالها المتزايد بالتأريخ . ولا بأس من ان نشير الى بعض هذه المعارف المساعدة المطلوبة في المراحل المتتابعة . ولا بأس ايضاً من ان نذكر ان بعض هذه المعارف قد انتظمت علوماً لكل منها نطاقه واسلوبه واخصائيوه . فهنالك مثلاً العلوم والفنون المختصة بالآثار (**Archeology**) ، والنقوش (**Epigraphy**) ، والكتابات القديمة (**Paleography**) ، والنقود أو النميات (**Numismatics**) ، والاختام (**Sphragistics**) ، والوثائق (**Diplomatic**) ، وما اليها من علوم وفنون تهتم بجمع المخلفات التأريخية المختلفة واستنطاقها . ومن البديهي ان هذا الاستنطاق يتطلب ، فيما يتطلب ، معرفة باللغة او اللغات التي كتبت فيها هذه النصوص : ولما كان تأريخ اي شعب من الشعوب متصلاً بتواريخ شعوب اخرى ، فكثيراً ما يحتاج الباحث الى اكثر من لغة واحدة للوقوف على نصوص موضوعه الاصلية ومصادره الاولية . وتتضح هذه الحاجة مثلاً عندما يقبل البعض منا

على التأريخ العربي وهم لا يملكون من اللغات الا العربية ، فان جهدهم يكون محدوداً بالنصوص المكتوبة بهذه اللغة ، ولا يستطيعون الاستفادة من النصوص التي وضعت بلغات اخرى كالسريانية او اليونانية او اللاتينية او سواها ، وهي نصوص لها قيمتها الخاصة في دراسة بعض ادوار هذا التاريخ .

ولئن لم يكن هنا موضع ابداء ملاحظة ثانية ، فلنستفد من كلامنا عن اللغات لذكرها : وهي ان نشاط الجهود التأريخية في العصر الحديث يدعو المؤرخ الى ان يكون ملماً باللغات الحية — الانكليزية والفرنسية والالمانية والروسية وامثالها — التي عرضت بها هذه الجهود . والذي يقبل اليوم على التأريخ العربي — او على اي تأريخ آخر — ليجد نفسه مضطراً الى معرفة اكثر من لغة من هذه اللغات ليستطيع الافادة من هذه الجهود السابقة ، ومتابعة الدراسات التي تجري فيها ، والمشاركة بما تحمله هذه اللغات من ذخيرة علمية وثقافية هي من اهم عُدد المؤرخ وافضل اجهزته .

اما في مراحل اثبات الحقائق المفردة وتركيبها والتأليف بينها وتعليل الاسباب وابراز النتائج ، فلا بد للباحث من تجهز واسع بمعارف مستمدة من علم الاجناس بفرعيه الطبيعي والحضاري (**Anthropology : Physical and Cultural**) والجغرافيا ، والاقتصاد ، وعلم النفس الفردي والاجتماعي ، وعلم الاجتماع ، وعلم السياسة ، وامثالها . ان هذه الحاجة لتختلف باختلاف الناحية التي هي موضوع البحث : فلكل ناحية مطالبها واحتياجاتها واستمداداتها الخاصة من هذه العلوم .

ولما كانت هذه العلوم تتصل بعضها بالآخر ويؤدي بعضها الى الآخر ، فان هذه الاحتياجات والاستمدادات سائرة الى توسع وازدياد . ويدلنا الاختبار على انه كلما اتسعت معارف المؤرخ وغزرت ثقافته كان اكثر نجاحاً في تفهم الحياة الماضية ووضع الناحية التي تهمه منها في اطارها الصحيح .

ولا بأس هنا من ان نشير ثانية الى حاجة المؤرخ — ايا كان موضوع

اختصاصه — الى سعة افق ونظر كلي ومقدرة على الاحاطة والربط مستمدة كلها من الدراسة الفلسفية ، كي يأمن من الضياع في الجزئيات وكي يستخرج معنى الاحداث ويحسن تعليلها . كما انه لا بد له اخيراً من خبرة في فنون الادب كي يحسن اكتشاف خوالج النفوس ونقل اختباراتها ، وكي يجيد العرض والاداء فيأتي نتاجه رائعاً مؤثراً .

هذه المطالب الفائقة التي تقتضيها الصناعة التأريخية ، وهذه المعارف المتزايدة التي تحتاج اليها ، هي اهم العوامل التي تدفع التأريخ في الطريق ذاته الذي تسلكه العلوم الاخرى في مرحلتها الحاضرة ، وهو طريق التفرع والاختصاص . فلقد اقبل المؤرخون على الماضي البشري يقتسمونه عصوراً وحقباً ووجوهاً ونواحي ، وتوغلوا في دراسة هذه الاقسام ، وكلما ازداد توغلهم تفرعت هذه الاقسام وضاقت دوائر الاختصاص ، فاذا ببعض المؤرخين مثلاً يقضي حياته في بحث سيرة رجل من الرجال او حادثة معينة من حوادث الماضي او جانب ضيق من الحياة الادارية او الاقتصادية او الاجتماعية في عهد من العهود ، واذا بالاختصاصات تتعدد وتتباعد وتغزر نتائجها التفصيلية ، حتى ليصعب على الباحث ان يتابع ما يتعدى دائرته الضيقة او لا يتصل بها بأسباب قريبة . وقد ظهرت اختصاصات اخرى في العلوم المساعدة للتأريخ — ذكرنا بعضها في ما سبق — وفي الاعمال الممهدة له كجمع الوثائق ، وضبطها ، وفهرستها ، ونشر نصوصها . واقبل على هذه الاعمال الافراد واللجان والجمعيات ، وتعددت المجلات والنشرات الاختصاصية في المواضيع المتكاثرة المتفرعة .

هذه هي احدى النتائج البارزة التي ادت اليها صناعة التأريخ . وهي كسب لهذه الصناعة وللمعرفة التأريخية بوجه عام ، نظراً لما يوفره الاختصاص من امكانات التحقيق والتدقيق ، واستمداد المعرفة من اصولها ، وجلاء الادلة والحقائق المفردة التي تبنى عليها الاحكام . وهي كسب كذلك بما تفرضه من تعاون بين الباحثين ومن ترابط بين اجزاء العلم الواحد ،

وبالشعور الذي تنميه بان الجبهة العلمية وحدة متراصة ، وبأن تعاونها وتماسكها وتنظيم جهودها امور ضرورية لها لاداء مهمتها وبلوغ غايتها . وهكذا نرى المؤرخين المحدثين يؤلفون الجمعيات وينشئون المؤسسات ويضعون المشروعات لجمع الجهود وتنسيقها والسير بركب العلم سيراً منظماً : شأنهم في هذا شأن غيرهم من الباحثين في ميادين العلم الاخرى .

على ان هذه المكاسب تخفي في طياتها صعاباً ومخاطر لا بد من التنبيه اليها : وهي تجزئة الحقيقة التأريخية تجزئة تكون في كثير من الاحوال اصطناعية ، وحصر النظر في الجزئيات ، وطغيان التحليل على التأليف ، وعجز الباحثين المتزايد عن رؤية الصورة الشاملة ، وعن نقلها او نقل نتائج ابحاثهم الخاصة الى جمهور المثقفين . ومن هنا كان ميل الاختصاصيين الى الاحجام عن الكتابة التأريخية العامة واهمال شأنها ، وتركهم ميدانها مفتوحاً للكثيرين ممن لم يتدربوا على قواعد الصناعة التأريخية ولم يوفوا شروطها فيأتي نتاجهم ناقصاً او مختلاً او خادعاً مضللاً . هذه النقائص والمزالق ، التي يشارك بها التأريخ العلوم الاخرى في مرحلتها الحاضرة ، تكوّن مشكلة من اهم مشكلات العلم الحديث ، هذا العلم الذي يزداد في جميع وجوهه تفرعاً وانقساماً واختصاصاً سنة بعد سنة ، بل يوماً بعد يوم . وقد اخذ العلماء وسواهم يتنبهون الى هذه المشكلة ويحاولون معالجتها ودرء اخطارها . ومما يزيد في خطورتها تضخم اهمية العلم في الحياة الحديثة ، ونهضة الجماهير في انحاء الدنيا جميعاً الى الأخذ به ، وحاجة هذه الجماهير الى المعرفة العلمية المبسطة والى الثقافة الانسانية الشاملة . ولا مراء في ان الاطلاع التأريخي عنصر هام من عناصر هذه الثقافة ، فيجب الا يحصر بالاختصاصيين ، بل ان يمتد نفعه لجمهور الناس ، وان يقوم بهذه المهمة من اعدوا انفسهم لها وقاموا بمتطلباتها .

يتبين من هذا انه يجدر بمن يقبل على الصناعة التأريخية أن يعي متضمناتها ونتائجها ، ومشاركتها في الهدف والاتجاه للصناعة التي يتميز بها العلم

الحديث في شتى وجوهه . وبذلك يقف المؤرخ موقفه الصحيح بين سواه من الساعين الى زيادة المعرفة الانسانية ، ويدرك صلاته بهم من ناحية ، وخصائصه المنبثقة عن نوع موضوعه من ناحية ثانية .

●

والآن ، بعد ان وصفنا هذه الصناعة التأريخية واوجزنا قواعدها وشروطها ونتائجها ، يجب علينا، في هذا البحث الذي نحاول فيه تبيان موقفنا من ماضينا ، ان نتساءل عن حالة هذه الصناعة في ديارنا وعن درجة خبرتنا بها ومدى امتلاكنا لناصيتها . ولن نجد صعوبة في الاجابة عن هذا التساؤل ، فالنهضة العلمية في البلاد العربية حديثة العهد طرية الجذور . ولما كانت الصناعة التأريخية مرتبطة بتطور الفكر العلمي والروح النقدية بوجه عام ، فلا بدع اذا كانت لم تقوَ عندنا بعد ولم تنتشر ولم تؤتِ ثمارها اليانعة المرجوة .

لقد بدأ تطبيق هذه الصناعة في التأريخ العربي والشرقي من قبل العلماء الاجانب ، وظل الى عهد قريب محصوراً في يدهم . فهم الذين تنبهوا ، بفعل السبق الذي احرزوه في استنباط هذه الصناعة والاسلوب العلمي عموماً ، الى مصادر تاريخنا قبل ان نتنبه نحن اليها ، فأقبلوا على اقتنائها بشتى الطرق والاساليب وعلى جمعها وحفظها في مكتباتهم ومتاحفهم ، حتى غدت هذه المؤسسات زاخرة بنفائس المخطوطات وامهات المصادر التي لا غنى للباحثين — ولنا نحن ابناء هذا التاريخ — عن الرجوع اليها . كما انهم عمدوا الى تنظيمها ووضع لوائحها وفهارسها لارشاد الناس اليها ، ونشروا العديد منها نشراً علمياً حسب قواعد الصناعة ، فجعلوها في متناول ارباب الاختصاص وسواهم من المعنيين بها . ثم انهم قاموا بابحاث في هذا التاريخ ، ونشروا نتائج هذه الابحاث في كتبهم ومؤلفاتهم وفي المجلات الاختصاصية العديدة التي انشأوها للعناية بهذه الشؤون . فبرز منهم علماء ثقات ، احتلوا مراكزهم في الجامعات او في سواها من مؤسسات البحث ، وغذوا علم التأريخ بنتائج ابحاثهم وتحقيقاتهم . ولا يزال لهم

فعلهم البارز في هذا المضمار ، ولا يزال منهم فريق متميز باختصاصه ، ولا نزال نحن نقر لهم بهذا التميز عندما نوفد بعض شباننا من البلدان العربية للتدرب على يدهم . كما ان سبقهم هذا ليبدو في نواحٍ اخرى : في حاجتنا الى الرجوع الى المجلات الاستشراقية التي ينشرون فيها ابحاثهم ، وفي اضطرار المختص منا بتاريخنا — كما ذكرنا سابقاً — إلى اتقان اكثر من لغة اوروبية واحدة للوقوف على نتائج هذه الابحاث الماضية والحاضرة.

لا ننكر ان الدوافع الى هذا الاهتمام لم تكن كلها علمية خالصة . ولا ننكر ان فريقاً من هؤلاء الباحثين نظروا الى تاريخنا من غير نافذة العلم وعلى ضوء اغراض غير غرض الحق . ولكننا لا نكون منصفين ، والانصاف من اول الشروط التي يتطلبها التأريخ الصحيح ، بل التي تتطلبها الحياة الرشيدة — نقول : لا نكون منصفين اذا لم نقر للمستشرقين الاجانب بما لهم من فضل في العناية باصول تاريخنا وفي دراسته ، وما كان لهم من سبق في اخذه بأساليب الصناعة التي ذكرنا ، وفي ما ادى اليه هذا الأخذ من نتاج زاخر مفيد .

وقد بدأنا ، كما قلنا ، نتنبه لاهمية هذه الصناعة ولضرورة سلوك طريقها واتباع اساليبها ، ونأنف من ان نظل عالة على سوانا في شأن هو من اخص شؤوننا ، اذ اي امر هو ألصق بنا وادعى الى اهتمامنا من حياتنا الماضية ومن تاريخنا الذي يفعل في كل وجه من وجوه كياننا الحاضر ؟ وبنتيجة هذا الشعور اخذت حكوماتنا تسن القوانين وتضع الانظمة لحماية آثارنا من الضياع ومن التسرب الى خارج البلاد ، وتسعى لكفالة وسائل حفظها والعناية بها . ومن هذه الوسائل الاهتمام بانشاء المتاحف وتنظيمها ، وبأقسام المخطوطات في دور الكتب وسواها من المؤسسات ، كمعهد المخطوطات العربية الذي انشأته الادارة الثقافية في جامعة الدول العربية والذي يبدي نشاطاً وافراً مشكوراً في هذا السبيل . ومنها كذلك الجهود التي تبذلها هذه المؤسسات والمجامع العلمية واللغوية والجامعات والمعاهد

العلمية والمكتبات والأفراد من العلماء في تحقيق هذه المصادر ونشرها حسب الاصول والقواعد الحديثة .

ومن مظاهر هذا الاهتمام بالمصادر اقبال بعض دور النشر التجارية على نشرها واحيائها ، بالرغم من ضخامة بعضها وما تكلفه من نفقات ومع ان هذا النشر لا يراعي في بعض الاحوال الاصول والقواعد العلمية، فانه يظهر تقدماً محسوساً في هذا المضمار ، ويدل ، على كل حال ، على توسع الاهتمام العام بالمصادر وانتشار الرغبة في احيائها والاستفادة منها.

نضيف الى مظاهر العناية هذه ، الدراسات والتحقيقات في نواحي تاريخنا التي اخذ يضعها المختصون من اساتذة الجامعات وأعضاء المجامع العلمية وسواهم من الذين حذقوا اساليب الصناعة التأريخية وعمدوا الى دراسة موضوعاتهم متسلحين بأجهزتها ووسائلها . وتظهر نتائج هذه الدراسات في الكتب والرسائل ، وفي الابحاث التي تنشر في المجلات الاختصاصية — العربية والغربية — او التي تلقى في المؤتمرات العلمية ، وما الى ذلك من مظاهر النشاط التأريخي .

على انه يجب ان نقر بأن هذا النشاط لا يزال في بدايته ، ولم تتوافر له بعد جميع اسباب القوة والازدهار . وليس هذا غريباً ، فان الصناعة التأريخية — شأنها شأن الجهد العلمي بكامله — انما جاءت نتيجة تطور مديد مستمر . هكذا كان سيرها في البلاد التي سبقتنا اليها في العصر الحديث ، وهكذا سيكون امرها عندنا . فالمرانة العقلية التي تتطلبها ، وتقدير هذه المرانة من قبل الفرد والمجتمع ، والاستعداد لتهيئة اسبابها ودفع ثمنها : هذا كله لا يبتدع ابتداعاً ، ولا يأتي طفرة ، بل يحتاج الى ان تعد له العدد وتمهد له السبل .

ومما يحد ايضاً من هذا النشاط التأريخي انصراف حكوماتنا وارباب الأمر فينا الى التجهيز المادي والتنمية الاقتصادية ، واقبال ناشئتنا على تعلم المهن والدراسات العلمية الطبيعية والتشجيع الذي يلقونه للتدرب على

الفنون العلمية . ولكل هذا ما يسوغه في وضعنا الحاضر ، وفي تحفزنا الى الاخذ باسباب القوة والمنعة والعزة والرخاء . ولكنه يجب ان لا يقف مانعاً دون تقوية الجهود المطاوبة لتعزيز العلوم الانسانية ولتنمية الثقافة الوطنية ، والخلق جيل قادر على رسم الغايات الصحيحة قدرته على تحقيق الوسائل المستحدثة . والثقافة التأريخية تكون — كما قلنا — عنصراً خطيراً من عناصر الثقافة الوطنية والانسانية . فخليق بالذين يخططون للمجتمع المقبل ان يعنوا بالثقافة النظرية عنايتهم بالثقافة العملية ، وان يمدوها بالعون والتشجيع في ما يهيئون من بحوث علمية ، وما ينشئون او يرعون من مؤسسات ومعاهد ، وما يخصصون من موارد للتعلم والبحث العلمي . وخليق بالصناعة التأريخية — بل بالثقافة التأريخية عموماً — ان يقوى فعلها ويتكاثف وينتشر اثرها كي تقوم بدورها في نهضتنا الحاضرة . ذلك ان هذه النهضة لن تؤتي ثمارها صحيحة خيّرة الاّ اذا شملت نواحي حياتنا جميعاً ، الانسانية والمادية ، وادت الى خلق اجيال جديدة واعية لماضيها وحاضرها ، مجهزة بالفضائل العقلية والخلقية الكفيلة بتحقيق القيم الوطنية والانسانية — تلك القيم التي تعزز الكيان الفردي والاجتماعي وتبعث قوى التقدم والرقي وتسبغ على الحياة معناها وقيمتها وكرامتها .

●

عسى ان تكون هذه اللمحة الموجزة في الصناعة التأريخية قد ادت ، على الاقل ، غرضها الاول ، وهو اقناع القارىء بوجودها ، وبأن دراسة الماضي — شأن اية دراسة علمية اخرى — تقتضي اسلوباً معيناً في التفكير والعمل ، ومعرفة شاملة لعديد من نواحي الحياة الانسانية ، دقيقة متعمقة في بعضها ، وان هذه المعرفة وهذا الاسلوب لا يتيسران الا للذي يقوم بمتطلباتهما العسيرة ويؤدي ثمنهما الباهظ .

هذا الاقتناع يجب ان يتسرب الى نفوسنا ويمتلك عقولنا في الشرق العربي . ذلك اننا ما زلنا ، في الاعم الاغلب ، ننظر الى التأريخ كأرض

مشاع يستطيع كل من أمسك قلماً او تأدب بنوع من الادب ان يلجها ويعبث فيها كما يشاء . ترى أيطمع اي منا في ان يؤلف في الرياضيات دون ان يقف على دقائق اسلوبها ، او ان يمارس الفيزياء او الكيمياء او الطب دون ان يتدرب في مخابرها ويفني السنين الطويلة في دراستها نظراً وتطبيقاً ؟ فلماذا لا نقر للتأريخ بمثل هذه الحاجة الى فن ودراية وتدرب عقلي صارم ؟ ان البحث التأريخي هو ، عند التحقيق ، اشد دقة وابعد منالاً من الابحاث العلمية الطبيعية ، لان مادته اصعب من مادتها واشد تعقداً ومقاييسه اخفى من مقاييسها وأعسر تحديداً . فلا بدع في ان تكون مقتضياته اوفر واشد دقة وصرامة ، ولا غرابة في ان يكون — كما قال بعضهم — « اصعب العلوم » . ان هذه الحقيقة لا تزال خافية عن سواد الناس عندنا — بل لنقل ايضاً انها تخفى عن سواد الشعوب التي سبقتنا في هذا المضمار — ولكن آن لها ان تبدو للخاصة من مثقفينا ، وان تدفعهم لان يفرضوا على انفسهم وعلى كل من يتصدى للتأريخ منا توفية الشروط التي تتطلبها هذه الصناعة . فالحقيقة التأريخية مطلب بعيد، وخصم عنيد لكل عبث في القول او وهم في الخيال او خفة في الحكم . يضاف الى هذا ان الضرر الذي يحدث من الاحكام التأريخية الفاسدة قد يعم الناس ويسري في عقولهم ويؤثر في تصرفاتهم حتى ليضبح من الصعب ازالته ، خصوصاً اذا لقيت هذه الاحكام هوى في النفوس وتجاوباً في الصدور . فليس اعسر عندئذ من العودة الى رؤية الحق والاهتداء بهديه والتزام طريقه . ان هذا الاثر القوي الذي يحدثه التوجيه المستمد من التأريخ ، الناطق باسمه ، يجب ان يبعث في نفس كل من يتصدى له ادق شعور بالمسؤولية واعمق تقدير للتبعة فلا يباشره الا بعد ان يقوم بمقتضياته ويوفي شروطه ويعتزم على ان يسلك اليه سبيله الصحيح مهما تكن تكاليفه .

ان هذا الشعور بالمسؤولية هو ، كما سنرى ، من اولى الصفات المطلوبة من الذي يعاني التأريخ ، بل هو السر الكامن وراء الصناعة التأريخية بكاملها .

فلولاه لما كانت هذه الصناعة ، ولما تجشم العلماء المشقات العقلية والنفسية التي تفرضها . انه ينبث في مختلف مراحل العمل التأريخي الصحيح ، يفعل حافزاً دافعاً في اول الطريق ، وينتج كسباً متوفراً في نهايتها . فلنؤكده اذن في ختام هذا الفصل ، ولندعُ بقوة وصراحة الى تدبر معناه ، ولنقدم على هديه الى تبين ما يتصل به ويجاريه من صفات وفضائل تتطلبها الصناعة التأريخية وتنميها بالمرانة وتسهم بها في اغناء الثقافة ورقي الانسان .

فضائل الصناعة التاريخية



لقد جهدنا في الفصل السابق لأن نظهر ان التأريخ ، ككل دراسة علمية اخرى ، يقوم على صناعة معينة ، وان هذه الصناعة لها قواعدها وضوابطها وشروطها ، وانها توشك ان تكون اكثر الصناعات العقلية مطالب وأثقلها تكاليف . فهي تقتضي معارف واسعة متصلة بشتى العلوم والآداب والفنون ، واسلوباً في التحقيق والتدقيق والعرض والتعليل يزيد في دقته وصعوبته تعقد الموضوع وسعته واضطراب الوسائل او المصادر التي يعتمدها .

ولا مراء في ان اهم هذه المتطلبات هو الأسلوب ، او الطريق التي نتبعها للوصول الى الحقيقة . فلولا هذا الاسلوب في التحقيق والاختبار والاستنتاج والاستقراء ، الذي عرف بالاسلوب العلمي ، لما انكشف حق او حدثت معرفة او تكوّن علم . ولا مراء ايضاً في ان جوهر هذا الاسلوب ، والحافز الذي يدفعه في طريقه ويحميه من الانحراف والضياع ، انما هو مجمل الصفات العقلية والخلقية التي يكتسبها العالم والتي توجهه وتهيمن عليه في شتى مراحل عمله .

ولما كانت هذه الصفات والفضائل هي ، من ناحية ، اهم مكونات الاسلوب واعظم مقومات الصناعة ، ومن ناحية ثانية ، اثمن الثمار التي

تنتج عنهما وانفس القيم التي يولدانها ، فقد آثرنا ان نقف عندها بعض الشيء ، وان نفرد لها هذا الفصل ، اعتقاداً منا ان كل عمل علمي هو ، في نهاية الأمر ، نتاج صفات مكتسبة مُنمّاة ، وحصيلة فضائل يكونها جهاد العقل والنفس ، وان قيمة اي بحث لا يمكن ان تعلو ، في اي حال من الاحوال ، فوق قيمة الانسان الباحث ذاته .

قلنا : العمل العلمي والبحث على الاطلاق ، ولم نخصص التأريخ . ذلك ان الصفات والفضائل المطلوبة في الصناعة التأريخية هي ، في جوهرها ، ذات الفضائل والصفات التي تدعو اليها وتطبقها وتنميها الجهود العلمية الاخرى على اختلاف موضوعاتها واتجاهاتها . على انها تكتسب مظاهر ومعاني خاصة بالنسبة لهذه الاتجاهات والموضوعات . وقد رأينا أن للتأريخ موضوعه ووسائله وقيوده ومتطلباته الخاصة به . فلهذا السبب تبرز فيه بعض هذه الصفات على بعض وتكتسي اكثرها مظاهر ومعاني معينة . ومن الخير لنا ان نتقصاها وان نجلوها ما استطعنا ، في سياق محاولتنا هذه لتبين الموقف الذي يجب علينا ان نتخذه من ماضينا . اذ إن هذا الموقف مرتبط اشد الارتباط بنوع المزايا العقلية والخلقية التي نتمتع بها ، او التي نتطلبها من انفسنا ، عندما نجابه الماضي .

فما هي اهم هذه المزايا ؟

لعل القارىء يعجب اذا وضعنا في مقدمة هذه المزايا المطلوبة والفضائل المكتسبة : **الجد والمثابرة** . على اننا نفعل ذلك لنؤكد هذه المزية في كل عمل علمي ، وفي البحث التأريخي بوجه خاص . فالباحث المنتج هو الذي يروض نفسه على الجد والجلد ، وعلى العمل الشاق المستديم ، وعلى الابتعاد عن الجلبة والضوضاء ، وعلى الصبر على ما يبعثه البحث احياناً في النفس من شعور بالوحشة والغربة وما يدعو اليه من وحدة وانزواء وتأمل . ولقد أخطأ من ظن ان العامل الاول في الانتاج العلمي هو الحذق والذكاء ، وان الشعوب التي تفوقت فيه تتميز عن سواها بحدة الذهن او بصفات

طبيعية اخرى . فان الانتاج هو ، في الاكثر ، وليد ما بذله افراد هذه الشعوب من جهد عقلي ونفسي ، وما أدوه من ثمن عسير ، نصباً ومشقة ومجالدة ، في سبيل الوصول الى الحقيقة واعلانها والدفاع عنها . ولا يعرف هذا الجهد الا من عاناه ، ولا هذه المجالدة الا من كابدها ، او من اتيح له ، على الاقل ، ان يشاهد هذه المزية ممثلة في عمل الباحث الدؤوب ، مجسمة في حياته ، مهيمنة على شعوره وتفكيره وسلوكه .

ولئن كانت هذه المزية شرطاً اساسياً من شروط اي عمل علمي ، فهي مطلوبة بصفة خاصة في البحث التأريخي ، نظراً لوعورة هذا البحث وتفرع مسالكه وتشتت مصادره . ولولاها لما كانت لنا تلك المجموعات من المصادر التي بذل الجامعون والمنقبون السنوات المتعاقبة والجهود المتراكمة في سبيل العثور عليها واقتنائها وحفظها ، ولا تلك المجلدات الضخمة في فهرسة هذه المجموعات ووصفها ، ولا تلك النصوص المنشورة التي اقتضى تحقيقها وتدقيقها ونشرها عناء وافراً وانكباباً متصلاً ، ولا تلك الابحاث المستقصاة التي غالباً ما تكون نتيجة عمل سنوات او خلاصة عمر بكامله يبذل تتبعاً وتدقيقاً ومعالجة .

ونحن في البلاد العربية اليوم بحاجة الى ان نعي هذه الحقيقة وان نقدر هذه المزية حق قدرها . ذلك اننا كثيراً ما نضع سرعة الخاطر ولمعان الذهن والحذق في التصرف فوق الدأب المستمر العنيد الذي لا يبهر ولا يفتن ، والذي يضحي بالنتيجة اليسيرة في المدى القريب في سبيل ما هو ارسخ وابقى واكثر جدوى في المدى البعيد : وما اجدرنا بان نعود الى العلماء المنتجين من اسلافنا لنستمد منهم الفضائل التي ولدت ذلك الانتاج . انّا اذا فعلنا ادهشنا ما تحلى به هذا السلف من دأب وصبر ، ومن جد ومجالدة نفس : سواء أكان ذلك في الرحلة الشاقة في طلب العلم ، ام في الانكباب على التحقيق والتدقيق والتأليف ، ام في الجهد الرضي السخي للتعلم والتعليم ، ام في غير ذلك من فنون البذل التي بدونها لم يكن ممكناً ان يحصل ذلك

الانتاج العلمي الضخم وذلك الاسهام الخير في مجرى الحضارة . كذلك شأن العلم في كل مكان وزمان . انه ، اولاً وآخراً ، سعي وجهاد ، وقيمته مرهونة بما يتصف به هذا السعي من حرص واستمرار وعناد .

●

ومن المزايا المطلوبة في البحث التأريخي : **الشك والنقد** . ولا نغالي اذا قلنا ان التأريخ بدأ يتخذ صفة علمية منذ ان اخذ رجاله يشكون في الروايات التي نقلت اليهم بالسماع او الكتابة ، ومنذ ان عمدوا الى نقد صفات رواتها او حاولوا امتحان مضمونها . وما فتىء تطور التأريخ كبحث علمي مرتبطاً اشد ارتباط بتقدم هذا النقد وانضباط قواعده واتساع تطبيقه .

ان الانسان ميال بفطرته الى التصديق . وهكذا كان في عهوده الاولى قبل ان ينشأ العلم وتقوى اصوله . بل هذا ما لا تزال عليه الجمهرة من الناس حتى في هذا العهد الحديث الذي نما فيه العلم اعجب نمو وفتح فتوحاته الباهرة الخارقة . فما أكثر ما يتناقل الناس الاخبار دون ان يدققوا فيها ، وما أكثر ما يسرعون الى التصديق والى اخذ ما يسمعون ويقرأون على علاته . حتى ان العلماء الذين اعتادوا ممارسة الشك وتطبيق اساليب النقد في حقولهم الاختصاصية يكادون احياناً يتصرفون تصرف العامة في قبول اشاعة سارية ، وفي تناقل خبر من الاخبار لمجرد انه نشر في صحيفة او ورد في اشاعة . ومن هنا كان هذا التسابق العنيف الذي نشهده اليوم الى استخدام اساليب الاذاعة والنشر والى دعم قوتها وتوسيع نطاقها . وما كانت هذه الاساليب لتحدث اثرها لولا ميل الانسان الطبيعي الى التصديق ، ولولا ما يحتاج اليه الحس النقدي من تطور فكري سبيله التدرب والممارسة والجهد المستمر .

حقاً ان اكتساب هذا الحس النقدي وضبط قواعده وتطبيقها بروية واتزان — ان هذا لمن اهم ثمار الثقافة ومن ابرز مميزات الحضارة الناهضة النامية . ولكنها ثمرة لا تحصل الا بفعل جهود وافرة شاقة تبذل في اقتلاع الاشواك ونسف الصخور وتمهيد الارض وحرثها ورعايتها رعاية مستمرة .

فاذا قل تقدير مجتمع من المجتمعات لهذه الثمرة او ضعف اهتمامه بها او تراخى سعيه في سبيلها ، جفّت اسرع جفاف وسقطت وضاعت ، وضاع معها الكثير من نتاج الحضارة ومفاخر المدنية . هذا ما نراه في سير الامم المتعاقبة وفي ادوار الرقي والانحطاط في سيرة الأمة الواحدة . فعندما يكون حس الأمة النقدي نافذاً جريئاً ، ويكون في الوقت نفسه عارفاً حدوده ضابطاً ذاته كما يضبط سواه ، تتقدم الأمة في مجالات الرقي ، وتحقق خيرات ثقافية ومآثر حضارية ، ويصبح لها فعلها الايجابي وذكرها الباقي . ولكنها تظل مع ذلك معرضة للخطر ، لما ينتاب العقل من كسل وتخاذل واسترخاء ، ولأن الشك اصعب من التصديق وايسر ضياعاً ، والنقد اعسر من النقل واوعر مسلكاً . فاذا ضعفت همة الاقتحام ، وخارت عزيمة المجابهة ، ومال العقل الى القعود والاستسلام ، شاع القد والتقليد ، وعاد التصديق فغلب على التحقيق ، واخذ الناس يهتمون باللفظ دون المعنى وبالحرف دون الروح . وعندها تتوقف الحضارة عن النمو بل تسير في طريق الانكماش والتفسخ . ولسنا بحاجة الى ان نخرج من دائرة تاريخنا لنرى هذه الحقيقة واضحة بينة . فالفرق بين الازدهار والانتاج والاسهام الحضاري التي تميز بها التاريخ العربي في عصوره الناهضة الاولى والجدب والعقم والاجترار التي سادت عصور الانحطاط المتأخرة هو بالضبط الفرق بين التفتح والجرأة والدراية والنقد (نقد الغير ونقد الذات) من جهة ، والانكماش والنقل والتمسك بالحرف والظاهر من جهة اخرى ، او بتعبير اوضح : بين العقل الممتحن المنضبط المولد والذاكرة السادرة المرددة المقلدة .

ان النقد ركن اساسي من اركان اي جهد علمي . ولكن له قدره وخطورته الخاصة في ما يتعلق بالتأريخ ، وذلك لاسباب عديدة نقتصر هنا منها على ثلاثة : أولها ان هذا العلم هو ، في جوهره ، علم نقلي ، لا يتسع فيه مجال الاختبار كما يتسع في العلوم الاخرى . ولذلك فالميل

الطبيعي فيه هو الى الاكتفاء بالنقل والرواية ، كما ان وسائل النقد فيه اقل دقة واعسر تحقيقاً مما هي في العلوم الطبيعية مثلاً ، ولذلك تتطلب من الجهد ما لا يستسيغه ويقوى عليه العقل الا في حالات التنبه الحاد والنمو الناضج . اما السبب الثاني فهو ان موضوعه يتأثر ، اكثر مما تتأثر مواضيع علوم اخرى ، لا سيما الطبيعية منها ، بالاهواء الفردية والنزعات الاجتماعية التي تتسرب اليه من كل ناحية وتفعل فعلها فيه قوياً منتشراً. ومن هنا تتضاعف الحاجة فيه الى النقد والى التزامه بحرص واستمرار في كل مرحلة من مراحل الصناعة ، من البحث عن المصادر الى آخر خطوة في التأليف التأريخي . والمطلع على تطور هذا العلم ، وعلى التاريخ البشري بوجه عام ، يعلم مبلغ الاخطاء التي شاعت والانحرافات والاضرار التي حدثت بسبب قبول بعض الوثائق التأريخية على علاتها دون محاولة اثبات صحتها او زيفها او بسبب تناقل بعض الروايات او الاحكام دون تدقيق او تحقيق .

ويقودنا هذا الى السبب الثالث . وهو ان بعض هذه الوثائق الماضية تكتسب على مر الزمن حرمة وقداسة تبعدانها عن ميدان النظر العقلي . ويزداد هذا البعد والابعاد كلما خف فعل العقل وتضاءل الايمان به ، فتزداد بذلك صعوبة اخذها بالامتحان العقلي والنقد التأريخي . وهنا ايضاً نلاحظ اختلاف التأريخ عن العلوم الطبيعية ، بل عن بعض العلوم الاجتماعية ، كالاقتصاد مثلاً ، التي لا تحاط موضوعاتها بمثل هذا التحريم والتقديس. ولذا نرى كثيرين من الناس يلجون ابواب هذه العلوم باجهزة الامتحان والنقد والاختبار ، ولكنهم يقفون دون ذلك عند دراسة بعض وثائق التاريخ او البحث في بعض موضوعاته : فهم عقليون مقدمون ناقدون في جوانب من نفوسهم ، تقليديون متراجعون مصدقون في جوانب اخرى .

لقد قلنا في مناسبة سابقة ان مهمة المؤرخ شبيهة بمهمة المحقق الذي يستنطق الشهود ويجمع شهاداتهم وينقدها في سبيل استجلاء ما حدث .

وهي شبيهة بمهمة القاضي من حيث انه يحاول ، بمقارنة هذه الشهادات ومقابلتها وسماع أقوال جميع الفرقاء والموازنة بينها ، استخراج الواقع قبل الحكم عليه . ولا يستطيع المحقق او القاضي ان يؤدي مهمته هذه على وجهها الصحيح ، اذا لم يأخذ هذه الشهادات والروايات بالشك المتحفظ ، واذا لم يغربلها غربلة دقيقة ، لفصل فاسدها عن صحيحها . ولكن الاصول القضائية هي ، مع هذا ، ارحم من الاصول التأريخية . فمن اصول الاحكام القضائية براءة الذمة ، وان المتهم بريء الى ان تثبت ادانته . اما في التأريخ فالاتهام اصل ومبدأ : فكل نص مشكوك فيه الى ان تثبت صحته ، وكل رواية متهمة الى ان يقوم الدليل على براءتها . ولذا كان لا بد للذي يتعاطى هذه الصناعة من ان يتجهز بالشك النافذ المتزن وان ينمي في ذاته الحس النقدي الحاد الواعي وان يقبل بهذا وذاك على كل خطوة من خطى عمله ويطبقها في هذه الخطى جميعاً .

قلنا : الشك المتزن والحس النقدي الواعي . ذلك ان ثمة تطرفاً في الشك ومغالاة في النقد يجب اتخاذ الحذر منها وتجنب مزالقها . فالفضيلة هي هنا ، بالمعنى الارسطوطاليسي ، وسط بين طرفين : بين انعدام الشك والنقد ، والمغالاة فيها . وقد بدت هذه المغالاة (**hypercriticism**) عند بعض المؤرخين الغربيين ، فاستسلموا الى الشك كما استسلم سواهم الى التصديق ، وتطرفوا في التساؤل والانكار كما تطرف هؤلاء في القبول والاثبات ، وطغت على عملهم الروح السلبية فلم يجلب شكهم ونقدهم الفائدة الايجابية المرجوة . ولعل اهم صفة تطلب من العالم هي صفة الاتزان ، ولعله احوج ما يكون اليها في هذه الناحية النافذة المؤثرة من عمله : ناحية النقد والتجريح . فما احرى المؤرخ ، وهو من اشد العلماء تعرضاً للاهواء والنزعات ، بأن يحرص على هذا الاتزان ، وان يلتزمه في ما يحاول من اتهام وتبرئة ، وما يقبل عليه من تجريح وتعديل .

●

هذا الاتزان المنشود يتطلب مزية اخرى ويصاحبها ، هي الدقة : الدقة والامانة في النقل ، والدقة في التفكير ، والدقة في التعبير . ولسنا بحاجة الى الاطالة في وصف هذه المزية ، فهي شرط اساسي صريح من شروط اي بحث علمي ، وهي في صميم تقليد العلم المتراكم وعامل من اهم عوامل تقدمه ورقيه . وانما يكفينا ان نؤكد هنا ، ما اكدناه بشأن المزايا السابقة ، من انها لا تأتي عفواً ولا تحصل الا بكثير من المجالدة والمرانة . فالانسان يميل بطبيعته الى ان يصول ويجول في ميادين الفكر والخيال ، ويأنف من الانتظام والانضباط ، ويؤثر التعميم والاطلاق على التخصيص والتقييد والاحتياط . وكل من يمارس التعليم يدرك اية مشقة جسيمة يتطلبها تعويد النشء ضبط الفكر والقول ، بحيث تأتي الفكرة محددة صافية والعبارة واضحة لا لبس فيها ولا ابهام ، وبحيث تترابط الفكر والعبارات ترابطاً منطقياً متلازماً نيراً . ولعل هذه الكلمة — «الدقة» — هي اكثر ما يجب ان يردده المعلم ويؤكده ويحاول غرسه في العقول والنفوس ، حتى تصبح الصفة التي تدل عليها عادة يحرص عليها المتعلم وتنطبع بها شخصيته بكاملها . وعلى كل حال ، ان اختبارنا الخاص قد اظهر لنا حاجة نشئنا القصوى الى اكتساب هذه المزية ، والى السير في الطريق الضيقة الصعبة التي تتطلبها ، بل حاجتنا جميعاً الى ترويض الذهن على الانضباط والانتظام ، وعلى مكافحة اي اضطراب في الفكر او في القول . ولهذا جئنا نلح على هذه الحاجة هنا ، وندعو ما استطعنا الى توفيتها حقها.

وان دعوتنا هذه لتنطبق انطباقاً خاصاً على التأريخ . لان مجال الابهام والتعميم والزلل فيه اوسع وايسر مما هو في الدراسات العلمية الاخرى . فلكم نسمع ونقرأ من التعميمات المطلقة والاحكام الجارفة على هذه الأمة او تلك ، او على هذا العصر او ذاك ، بل على الاحداث البشرية كلها ، ولكم تستهوينا الاستنتاجات السهلة والعبارات الاخاذة فنقبل عليها او نرددها دون امعان او تدبر . وهذا ما يجعل التأريخ سلاحا هيناً يستعمله

من يريد لتأييد رأي او بث دعوة او لاستهواء السامع او القارىء .

ان كل خطوة من خطى الصناعة التاريخية تستدعي الدقة بأقصى معانيها واضيق حدودها . فالبحث عن المصادر يقتضي عدم الاكتفاء بما يبين للعين او يعثر عليه بأيسر جهد ، بل يتطلب الاستقصاء البعيد والتفتيش الدقيق في كل ركن وزاوية أملاً في ان ينكشف شيء جديد. واثبات النص وتعرّف المؤلف ومكانه وزمانه يستدعيان تقييم النسخ ومقابلتها ومقارنتها والنظر في الأدلة المستنبطة من النص ذاته ومن سواه : كل ذلك بانتباه وامعان وحرص ، ولزوم دائم للنص والدليل . واستخراج الحقائق المفردة من النصوص يتطلب هذه الشروط ذاتها . اما استخلاص الاحكام العامة وتعليل الاحداث ، فيفرض جودة في الربط ، واحكاماً في الاستنتاج ، ودقة في الحكم، كأشد ما يفرضه اي جهد علمي مماثل . وأخيراً ان عرض هذه الحقائق والاحكام يحتاج الى انضباط في التعبير ، وحرص على تأدية الحقيقة بأوضح الأساليب وأصرحها وأبعدها عن الغموض والاضطراب والميعان . وهكذا نرى ان الصناعة كلها تكاد تكون تجسيماً لهذه المزية — مزية الدقة — وتطبيقاً لها تطبيقاً شاملاً صارماً لا هوادة فيه ولا التواء ، فلا غنى لمن تصدى لهذه الصناعة ، وأراد ان ينظر الى ماضيه نظراً صحيحاً ، عن ان يجهد لاكتساب هذه المزية والانطباع بها وأداء تكاليفها في كل آن وحال .

●

ومن المزايا المطلوبة في التأريخ، والتي يكثر الجدل فيها: مزية التجرد . وهنا نرى انها مزية مطلوبة في كل علم ، مفروضة على كل باحث ، مهما يكن موضوع اهتمامه . ولكنها ايسر تحقيقاً في العلوم الطبيعية منها في العلوم الاجتماعية ، وفي التأريخ بنوع خاص . فليس عسيراً على المرء ان يتجرد من ميوله وأهوائه وهو يحل مسألة رياضية او يحلل مادة كيميائية او يستخرج قانوناً طبيعياً . وانما العسر كل العسر في ان يحصل هذا التجرد

عندما ينظر في ماضي امته ونصيبها من الحضارة، وما حققت من ظفر، وما اصابها من وهن وانتكاس. ولذا نجد التحيز غالباً على الانتاج التاريخي في اكثر الاحيان، ونلاحظ ان التجرد لم يتحقق الا ببطء وبمقادير محدودة، وانه لا يزال، في الوقت الحاضر، عزيزاً نادراً إلا عند فريق من العلماء، وانه معرض، حتى عند هؤلاء، الى ان يضعف او يضيع اذا ما عصفت الاهواء وعظمت الشدائد.

ترى، أيمكن المؤرخ حقاً ان يتجرد من ميوله وأهوائه؟ لقد طمح الى هذا عدد كبير من المؤرخين خلال العصور. ولعل ليوبولد فون رانكه (Leopold von Ranke) زعيم المدرسة العلمية الحديثة في التأريخ، وواضع أسسها في القرن الماضي، كان ابعدهم طموحاً وأشدهم تطلباً. فلقد تمنى ان يطفىء جميع رغباته، بل نفسه ذاتها، ليصبح مرآة صافية تنعكس عليها صورة الحوادث التي حدثت دون ان يكون له اي تأثير فيها. وتبعه في هذا التمني والتطلب اصحاب هذه المدرسة الذين استنبطوا أصول الصناعة التأريخية وحددوا مطاليبها، فقد جعلوا في مقدمة هذه المطاليب، الموضوعية المطلقة والتجرد التام، بحيث اصبح المثل الأعلى للمؤرخ عندهم شبيهاً بالمرآة الصافية المجردة التي تحدّث عنها رانكه او بالعدسة الفوتوغرافية التي تعكس الصورة او بالشريط الذي يسجلها فحسب.

ولكن، هل من الممكن ان يتحقق هذا المثل الأعلى، وهل تحقق فعلاً عند هؤلاء؟ بل هل هو الغاية المرجوة والهدف المنشود؟ هذا ما يتساءل عنه اليوم عديد من المهتمين بالتأريخ من مختلف النزعات والاتجاهات. فلنبادر اولاً الى ان نسقط منهم اولئك الذين يتذرعون بهذه الصعوبة في سبيل المثابرة على استخدام التأريخ لدعم حجة او بث دعاوة او خدمة غرض خاص، ان هؤلاء ليسوا من صلب التقليد العلمي، ومقاييسهم تختلف عن المقاييس التي تتطلبها النظرة الصحيحة الى الماضي والتي نتوخاها في بحثنا هذا. فلنقتصر اذن على اولئك الذين يحرصون فعلاً على الوصول

الى حقيقة الماضي ، ولكنهم يجدون هذا التجرد التام الذي يطفىء شخصية المؤرخ صعب التحقيق ، بل يكاد يكون مستحيلاً اصلاً نظراً لطبيعة الانسان القائمة الى حد بعيد على الشعور والارادة والايمان . انهم ينظرون الى الانتاج التأريخي في الماضي فيجدون ان من الملمع المؤلفات التأريخية ذكراً وأبقاها أثراً تلك التي وضعها اشخاص ذوو معتقدات أساسية حية واحساسات واعية بمشكلات عصرهم ، وتأثر بمجرى الحضارة وتأثير فيه . لقد قال مومسن ، احد كبار المؤرخين الالمان المحدثين: «ان الذين خبروا احداثاً تاريخية كما خبرت لا بد لهم من ان يروا ان التأريخ لا يكتب وان التاريخ لا يصنع بدون حب او حقد ». فما معنى التجرد في العمل التأريخي إذن، وما هو سر هذه الفضيلة ، الذي يضمن قوة الانتاج وخصبه وسموه دون التضحية بالشرط الأساسي ، وهو التزام الحقيقة والسعي جهد الطاقة لابرازها ؟

ليس التجرد صفة سلبية فحسب . ليس هو التخلص من كل شعور او فكر او معتقد . فما من شخص يستطيع ذلك عملياً ، وان هو استطاع ، فلن يأتي عمله بأفضل النتائج وأخصبها . وانما للتجرد في التأريخ معناه الايجابي، وهو ان يتمكن المؤرخ بما له من دقة شعور وحدّة بصيرة من ان ينفذ الى اعماق الافراد والجماعات في الماضي فيحس احاسيسهم ، ويتلمس اهواءهم، ويختبر ميولهم ورغباتهم، وآمالهم وأمانيهم، والظروف التي كانت تحيط بهم ، وتأثرهم بهذه الظروف وتأثيرهم فيها . وبذلك يصبح كأنه واحد منهم ، ينطق بلغتهم ، بل بلغاتهم جميعاً ، لا يلتزم اي فرد منهم او اية شيعة او امة دون سواها. فالماضي حصيلة ميول وإرادات، ومطامع ومعتقدات ، وتفاعلات حية دائمة بين الفرد والمجتمع وبين المجتمعات المختلفة . ولا بد للمؤرخ من ان ينفذ اليها اذا اراد ان يفهم هذا الماضي على حقيقته . وهو يجد فيها ما يحب وما يكره ، ما يقر وما ينكر ، ما يثير في نفسه الرضى والاعجاب وما يبعث الأسى والازدراء.

وواجبه ان يسعى دوماً الى اثبات هذا وذاك كما تجليا له بالضبط ودون ان يجعل لحبه او كرهه اثراً في هذا الاثبات . واجبه ان يصوّر الأهواء دون هوى ، ويمثل الميول دون ميل ، ويستخرج العوامل المحيطة والتفاعلات البشرية ولا يفرضها — كل ذلك لانه يعيش الماضي ويختبره في نفسه وينطق بروحه .

وبهذا المعنى لا يكون تجرد المؤرخ سلبياً فحسب . لايعود عمله محض تلقٍ وانفعال . ولا يعود هو مجرد مرآة تنعكس عليها الصور او شريط تسجل فيه الاحداث ، وانما يغدو ذهناً تتلاقى فيه أفكار الماضي ومعتقداته ، ونفساً مفعمة بمشاعر الاجيال واختباراتها ، على ما فيها من شبه واختلاف ، ومن هدوء وصخب ، ومن تجاذب وتنافر وتناقض . لقد استطاع ان يجعل الماضي حياً فيه ، فاكتسب تجرده صفة ايجابية فاعلة .

والتجرد التأريخي المثمر إيجابـي بمعنى آخر . فالمؤرخ الحق لا يحيا الماضي فحسب ، بل يعيش الحاضر ايضاً ويختبره في نفسه وينطق بلغته وروحه ، ولا يمكن احداً ان يطلب منه — ولا يسوغ له ان يطلب هو من نفسه — ان يتخلى عن معتقداته الاساسية ومواقفه الفكرية الاصلية. وهذه المعتقدات والمواقف تؤثر ، كما قلنا ، في حكمه في الماضي (وفي ما ينطوي عليه هذا الحكم من اختيار وتنسيق للاحداث ومن تعليل لعواملها) . ولكنه يدرك تماماً اين ينتهي احياء الماضي واين يبدأ الحكم فيه، فلا يمزج العملين ولا يخلط بين الوظيفتين. فالتجرد بهذا المعنى الثاني هو اذن ليس التخلص التام من الحاضر، او من اية مبادىء او معتقدات او مواقف منبعثة منه، وانما هو معرفة الحد بين الاختبارين — اختبار الحاضر واختبار الماضي — ووظيفة كل منهما ، وعدم السماح لأي منهما بأن يطغى على الآخر، بل بالعكس — وهنا الوجه الايجابـي الجديد للتجرد — السعي الى تقابلهما وتفاعلهما بحيث يحتفظ كل منهما باستقلاله ويقوى ويغنى بالآخر . وهذا التجرد الايجابـي المزدوج هـو سمة التأريخ الرائع الخالد الذي تتميز به امهات الكتب

التأريخية الثابتة على الدهر. بل هو ، بوجه عام، صفة الفكر المولد والحياة الخصبة حيثما كانا .

●

ان هذا ليقودنا رأساً الى الفضيلة التي تنبعث منها الصناعة التأريخية كلها والتي تكمن وراء جميع الفضائل الاخرى: نعني بها محبة الحقيقة . فلولا هذه المحبة ، ولولا الشعلة التي تذكيها في النفس، لما كان هناك جد وصبر في السعي ، ولا ثار شك او نقد ، ولا حرص احد على دقة وتعمق، ولا بدا اي تجرد ، ولا حدثت اي من الفضائل الاخرى التي ترتكز اليها الصناعة التأريخية ويقوم عليها النظر الصحيح الى الماضي . فكل جهد انساني مرتبط اوثق ارتباط بالغاية التي يسعى اليها ، وقيمته مستمدة ، الى حد بعيد، من قيمة هذه الغاية ومن درجة التزامه اياها وخضوعه لها .. ومن اجل هذا خصصنا الفصل الثالث من هذا البحث لمناقشة الغرض من التأريخ ، قبل محاولة رسم قواعده وأسلوبه . . فالاساليب والقواعد سبل وطرق لا تفهم على حقيقتها الا اذا عرفت الغاية التي تتجه نحوها. وعسى ان نكون في ذلك البحث الذي عرفنا به التأريخ بأنه السعي الى « ادراك الماضي البشري وإحيائه » — عسى ان نكون اوضحنسا دون لبس او ابهام ان جوهر هذا السعي والدافع الاول اليه هو محبة الحقيقة والرغبة في جلائها ونشرها لتفعل فعلها في العقول والنفوس .

لولا هذه المحبة والرغبة لم يكن التأريخ علماً ، بل لولاهما لم يكن ثمة علم او تقليد علمي . ونحن نجد الناس يقبلون هذا القول فيما يتعلق بسائر العلوم ، ويقرون بأن الفيزياء والكيمياء وعلوم الاحياء وأمثالها لا تقوم الا اذا اتخذت لها الحقيقة هدفاً خالصاً ، ويكادون يطبقون الحكم ذاته على العلوم الاجتماعية من اقتصاد واجتماع وادارة وما اليها، ولكنهم يترددون عن قبوله فيما يختص بالتأريخ او ينكرونه كل الانكار .

ان هؤلاء المترددين والمنكرين فريقان : فريق ينكر امكان تحقيق

هذه الغاية في التأريخ بسبب ارتباطه بجذور حياة الانسان وبأهوائه ورغباته وآماله وأمانيه ، فيفرضون ان كل جهد تأريخي هو لا محالة مصبوغ بهذه الاهواء والرغبات وان التجرد فيه امر مستحيل واستهداف الحقيقة الخالصة وهم وخيـــال وخداع للنفس . هؤلاء هم الذين عرضنا رأيهم وناقشناه عندما تكلمنا عن مزية التجرد في القسم السابق من هذا الفصل. اما الفريق الثاني فهم الذين يعتقدون ان التأريخ هو ، في نهاية الامر ، واسطة لا غاية ، وانه يجب ان يخدم غرضاً آخر خارجاً عن ذاته او عن الحقيقة المجردة المفروضة على سائر العلوم. وهذا هو الرأي الذي يستوقفنا الآن.

لا شك إن التأريخ قد استُخدم في الماضي ، ولا يزال يستخدم في الحاضر لأغراض عديدة . لقد كتب بعض المؤرخين للترفيه عن القارىء او تسليته او اثارة خياله او ارضاء لذته الفنية، وقصد آخرون منه الى الدفاع عن سلطة سياسية او عقيدة دينية او رأي فلسفي ، وأراد سواهم ان يبعثوا بواسطته الهمم او يلهبوا العواطف او يثيروا الحفائظ والأحقاد ، ورغب غير هؤلاء وأولئك في ان يستخرجوا من خلاله العبر ويستخلصوا القواعد التي يجب ان تتبع في السلوك الفردي او في السياسة والحكم. هذه الاغراض هي ، كما نرى ، على انواع ومراتب، فمنها ما يصدر عن شهوة او هوى او ارضاء نزعة خاصة ، ومنها ما يهدف باخلاص الى نفع وفائدة وخدمة عامة ، ومنها ما هو على درجات متفاوتة بينهما .

ولعل اقوى هذه الاغراض في مجتمعنا اليوم هو الغرض القومي ، الذي ينشد من التأريخ بعث الامجاد الماضية وتركيز اصول الأمة واثارة الهمم لبناء النهضة القومية المرتجاة . ولسنا وحدنا في هذا الميدان . فلقد سبقتنا اليه امم اخرى في عهد تكوّنها القومي ، بل لا تزال هذه الامم وسواها تصول فيه وتجول ، حتى اننا لا نغالي اذا قلنا ان اتصال التأريخ بالشعور القومي والاغراض القومية هو من اهم بواعث الاهتمام التأريخي والكتابة التأريخية في العصر الحديث، كما انه من ابرز ما يعنى به المربون

ورجال الدولة والمصلحون.

هوذا موضوع واسع الارجاء متشابك السبل والمسالك يصلح لأن يكون مجال بحث خاص مستقصى . اما في سياق بحثنا العام هـذا، فيهمنا ان ندلي بالملاحظات التالية :

اولاً : لقد كان للتأريخ ، عندما أحسن استعماله واستغلاله ، اثره الايجابي في بعث الروح القومية عند مختلف الشعوب في العصر الحديث، ودوره البارز في تكوين الامم ودفعها الى ما تنشد من نهضة وعزة ومجد. ويكفينا لتبين هذا الدور وادراك ذلك الاثر ان نرجع الى المؤلفات التأريخية التي وضعها ارباب هذا العلم في عهود الانبعاث القومي في فرنسة وانكلترة والمانية وايطالية وروسية ، او الى المقام الذي يحتله والشكل الذي يتخذه تعليم التأريخ عند الشعوب الناهضة او المتحفزة للنهوض .

ان من الطبيعي اذن في الوضع الذي نحن فيه، وفي هبتنا لانشاء كيان قومي ثابت زاهر ، ان نعمد الى امجادنا الماضية ونستمد منها ما يشيع في نفوس الناشئة شعور العزة والكرامة والاقدام . من الطبيعي ان نجد عند الكتاب والموجهين والاساتذة والادباء منا هذا الحرص الشديد على الاستفادة من تاريخنا في سبيل تعزيز وحدتنا القومية ، وان نرى رجال الدولة والقائمين على التخطيط والتنظيم يهتمون بأن يتوجه تعليم التأريخ عندنا ، في المراحل الابتدائية والثانوية خاصة ، الى هذا الغرض ذاته .

ثانياً : اننا نلاحظ أنه كان للتأريخ ، بجانب هذا الأثر الايجابي البناء ، اثر سلبي ضار عندما استخدم أداة لإثارة الأحقاد والفتن سواء بين فئات الشعب الواحد او بين الشعوب المختلفة ، او وسيلة لدعم النظام القائم وتبرير وجوده واغداق المدح والثناء عليه . فما اكثر ما غذى التأريخ وتعليمه في البلدان الاوروبية من ضغائن وشرور أدت في ما بعد الى حروب ومجازر ، وما اكثر ما أدى الى تفرقة وقسمة ، وخدم مصالح طائفية او طبقية او حزبية او شخصية مغايرة لمصلحة الأمة ولخير الانسانية .

ثالثاً : يستنتج من هذا ان استخدام التأريخ في سبيل غاية قومية يتوقف نفعه او ضرره على اصالة فهم الموجهين والباحثين والمربين لهذه الغاية ، وصحة ادراكهم لها . ان التأريخ يصبح هنا أداة ووسيلة ، وقيمته وأثره ومبلغ نفعه او ضرره تغدو متوقفة على صحة الغاية ونبلها او تحللها وفسادها، وعلى نوع الجهد المبذول في استجلائها والسعي اليها. ولا ينطبق هذا على الغاية القومية فحسب بل على اية غاية يوجه التأريخ اليها ويستخدم من اجلهـــا .

رابعاً : وعلى هذا ، فان استغلال التأريخ للغايات القومية له خطره الذي يجب ان يعيه كل من يقدم عليه ، مهما سما قصده وخلصت نيته وصفا سعيه . فان هذا الاستغلال قد يفسح المجال لاستغلالات اخرى في سبيل اغراض منحرفة ضارة لا يؤمن من شرها . ذلك اننا اذا قبلنا المبدأ وأجزناه لأنفسنا ، فليس ما يمنع الغير الذي يسعى الى غاية غير غايتنا ان يجيزه لنفسه عندما يستطيع ذلك. ولذا تبقى اسلم الطرق وآمنها لتحقيق الغاية القومية ذاتها ، واحفظها لقدر التأريخ وحرمة الماضي ، ان نؤكد استقلال هذا العلم ، ونشده شداً وثيقاً الى غايته الاصيلة وهي كشف الحقيقة ، ونسعى دون خوف او حذر الى فهم الماضي كما حدث فعلاً . ان كل استغلال — من اي نوع كان — لا بد من ان يكون له أثره السيء في المستغِل والمستغَل على السواء. والتأريخ لا يشذ عن هذه القاعدة، شأنه في ذلك شأن اي علم آخر ، بل اي مسعى انساني عملي او عقلي.

خامساً : ان الغاية القومية ذاتها لا تؤتي نتائجها البعيدة المدى الا اذا وافقت الحقيقة واهتدت بهديها. ولا عبرة بالنتائج القريبة، مهما عظمت، اذا كانت مبنية على خطأ في الفهم او فساد في السعي. ليس مثل الحقيقة غذاء للنفس ، وموردا للعقل ، ومكوناً بانياً لشخصية المواطن والانسان، وليس لبناة الوطن والموجهين والباحثين والمربين عمل اجلّ ومهمة اسمى من تربية النشء على مجابهة الحقيقة مهما تكن في بعض الاحيان صعبة

المراس او مريرة الطعم . فان الذي يروض نفسه على هذه الجرأة وهذه الصلابة لا يخشى عليه من التحول والالتواء ومن الانحلال والفساد ، بل يكون ، في ايام الشدة وايام اليسر على السواء ، الضامن الاقوى لتحقيق الغاية القومية ، لان صحة قوميته مستمدة من صحة خلقه وصلابة عقيدته وسلامة كيانه الانساني ، ولان من قدر على البذل في سبيل الحقيقة فقد هان لديه كل بذل آخر .

إنا نعلم اننا نتكلم هنا كلاماً يعتبره اكثر الناس مثالياً ، وندرك انه ، ما دامت الامم في صراع محتدم والفكر والاهواء في نزاع صاخب ، وما دمنا نحن في دور تكون قومي ، فلا بد من ان نسعى الى الاستفادة من التاريخ لتحقيق اغراضنا القومية ، نظراً لما يمكن استمداده منه من عون وقوة ، ولما له من اثر في النفوس — نفوس الناشئة والجماهير بصفة خاصة . على انا نلح على ان تكون الايدي التي تتسلم هذا التوجيه ايدياً سليمة امينة واعية المفاهيم القومية ادق وعي واشمله ومفعمة بروح الاخلاص ومنزهة عن الشوائب الخلقية . كما اننا نرجو ان يظل رجال هذا العلم انفسهم جاهدين ما استطاعوا في سبيل الغرض الاصلي وهو الحقيقة ، عاملين على جلائها والدفاع عنها . نقول هذا لا من اجل علم التاريخ وحده ، بل من اجل الغاية القومية ذاتها التي نحن حريصون عليها ، لان ادراك هذه الغاية على افضل وجه وابعد مدى واخصب نتاج رهين ، آخر الامر ، بمقدار ما يتجمع لدى الأمة من ذخيرة الحق النامية الفاعلة : معرفة وقدرة وفضيلة .

●

ها نحن قد عددنا بعض المزايا التي تتطلبها صناعة التأريخ والتي تنميها في نفس من ينهج طريقها . ونحن في تعدادنا هذا قد اقتصرنا على الهام في نظرنا من هذه المزايا ، دون سواها مما يحسن ذكره ووصفه لو اتسع المجال . ونأمل ان يكون عرضنا قد كشف عن صعوبة هذه المزايا وثقل

تكاليفها ، فليست هي بالكسب الهين الذي يحصل عفواً او بيسر ، او الذي يأتي هبة او منحة . وانما هي نتيجة لتدرب عقلي صعب المراس ، ومجالدة نفسية شديدة المطالب . وفي سياق هذا التدرب والمجالدة تتجلى صفتان اخريان : **الشعور بالمسؤولية ، والتواضع** . فالذي يتصدى للماضي بروح العبث ، غير شاعر بدقة المهمة ، وبشدة ما تتطلبه منه ، وبخطورة ما تؤدي اليه ، يعود منها بأضعف النتائج ، بل بالضرر والسوء لنفسه ولسواه . وبالعكس نرى ان من ابرز الصفات التي تبدو عند المتميزين من المؤرخين هذا الشعور الذي يملأ نفوسهم بنبل عملهم ، وبحرمة مسؤوليتهم ، والذي يدفعهم الى ان يطالبوا انفسهم اشد مطالبة ويقهروها على اداء شروط السعي كي تأتي احكامهم ونتائجهم خالصة مفيدة . ان كل نوع من انواع السعي المجدي يتطلب هذا الشعور ، ولكن التطلب يقوى ، والحاجة الى ادراك المسؤولية تعظم ، عندما يكون السعي — كما هو في التأريخ — وعر المسلك بالغ التكاليف ، وعندما يأتي اثره في النفس بارزاً ونتيجته — للخير ام للشر — نافذة فعالة . وازاء ضخامة المهمة وخطورة التبعة يشيع في نفس المؤرخ الاحساس بحدوده وبضآلة ما يملك بالنسبة لما يبغي وبضيق دائرة المعلوم عندما يقاس بالمجهول ، فيكتسب ذلك التواضع الذي يسبغه العلم الصحيح ، والذي يبدو عند العلماء الامناء في كل صقع وجيل . بهذا التواضع يتجلى علم العلماء افضل تجلٍ ، ويرقون هم لا في مراتب العلم فحسب ، بل في مراتب الكيان الانساني ذاته . وحري بالمؤرخ الذي لا تقل مهمته صعوبة عن مهمة اي منهم ، ولا تتدنى تبعته عن اية تبعة علمية اخرى — حري به ان يكون اعمقهم تواضعاً ، وادقهم احساساً بالعبء الملقى على عاتقه ، وبالتالي اكثرهم جداً وانصرافاً واوفرهم على المطلوب عزيمة .

●

وهذا ينتهي بنا الى الملاحظة الاخيرة التي نود ان نختم بها هذا الفصل .

وهي ان المزايا العقلية التي يفرضها التأريخ هي في جوهرها فضائل خلقية . ولذا حرصنا على ان يكون موضوع هذا الفصل « فضائل » الصناعة التأريخية . فنشدان الحق — وهو الشرط الاول لاي بحث علمي — انما يأتي نتيجة لقرار خلقي سابق لاي جهد فكري ومصاحب له وضابط لنزعاته في كل مرحلة من مراحله . والصبر والجد وتحمل النصب في جمع الوثائق واثبات صحتها واستخراج الاحكام منها تتطلب مجاهدة النفس مجاهدة عنيفة مستمرة وترويضها على سلوك الطريق الضيق واداء الثمن الباهظ وتجنب الشهرة الرخيصة في سبيل ما هو ابقى وابعد منالاً . اما الدقة فقد تبدو صفة عقلية فحسب ، ولكنها في الواقع قائمة على الامانة : الامانة للاصل والمرجع ، والامانة للفكر ، والامانة في التعبير . وكذلك القول في الشك والنقد ، وفي التجريح والتعديل ، إذ أن غايتها ليست سوى إظهار الحق ونفي الباطل . اما التجرد عن الهوى ، والشعور بدقة التبعة ، والتواضع ازاء خطورة المهمة ، فلا جدال في اصولها الخلقية وجذورها الادبية .

جميع هذه الفضائل التي يقوم عليها التأريخ بوصفه علماً ، والتي ينميها في النفس ، تستند الى قرارات اساسية ينبغي لمن يتصدى لمعرفة الماضي ان يتخذها ويلتزمها التزاماً اميناً مستديماً . وهذا الالتزام يفترض مراقبة حثيثة للنفس ، ونقداً صارماً للذات ، ومحاسبة دقيقة دائمة . فعلى الذي يختار هذا الطريق ان يكون مستعداً للقيام بهذه الفروض الخلقية وان يجهد لاكتساب الفضائل التي تولدها في النفس .

ان العالم — اي عالم — لا يستطيع ان يرتفع بعلمه فوق منزلته من حيث هو انسان . والتأريخ الذي يجابه من الصعوبات ما لا يجابهه اي علم آخر ، والذي يتعرض اكثر مما يتعرض سواه للاهواء والنزعات ، خليق بأن يخضع لهذه القاعدة ، وان يتطلب من الذي يتصدى له ان يحقق في ذاته القيم والفضائل الانسانية افضل تحقيق وابعده وأتمه .

ذلكم هو الشرط الاساسي لاي موقف صحيح نريد ان نتخذه من ماضينا . وهو ، بالوقت ذاته ، الكسب الثمين الذي نحصله من الصناعة التي لا غنى لنا عن سلوك سبيلها لبلوغ هذا الموقف .

التفكير التاريخي



ان الصناعة التأريخية التي حاولنا عرض قواعدها وشروطها ووصف دقتها واثرها وفضائلها لا تستنفد معنى التأريخ . انها عنصر هام من عناصره ، ولكنها ليست كله . فالصناعة ، او التكنيك ، او الفن العملي — سمّها ما شئت — هي طريقة واسلوب يستهدفان بلوغ غاية معينة . وقيمتها هي في ارتباطها بهذه الغاية وعدم انحرافها عنها ، وفي دقة سيرها وانتظامها ، وتحقيقها لاوفر النتائج بأيسر جهد واقصر وقت . ذلك هو شأنها مثلاً في الانتاج المادي الذي يكوّن ركناً هاماً من اركان المدنية الحديثة . فنحن ، انى التفتنا اليوم ، واجهنا « التكنيك » بمظاهره المختلفة وسعينا الى اقتباس قواعده وبناء حياتنا على اساسه ، حرصاً منا على ما يوفّر من نتائج وما يخدم من اغراض . ولكن الذين يعنون النظر في هذا التكنيك الذي يتغلغل في كل ناحية من نواحي حياتنا المادية والعملية يلاحظون امرين : اولهما انه هو نفسه نتيجة لنوع معين من التفكير ، ولا يمكن ان يُقتبس او يحقق الا بقدر ما يتحقق هذا التفكير ويكتمل ، وثانيهما انه لا يستوعب معنى المدنية او الحضارة ، وان من اعظم الاخطار التي تتعرض لها مدنيتنا الحديثة طغيان التكنيك عليها ، وسيطرة الوسيلة على الغاية ، والاداة التي استنبطها الانسان على كيانه ذاته .

وكذلك الأمر في العلم . فالطريقة العلمية عنصر من عناصر العلم ، ولكنها ليست كل العلم . فثمة نوع معين من التفكير هو التفكير العلمي يستخدم هذه الطريقة ، او التكنيك ، او الصناعة ، ولكنه لا يقف عندها ، بل يظل دوماً ينظر في متضمناتها ، ويتأمل نتائجها ، فيستطيع التجديد والابتكار في العلم ويحسن ربطه بسواه من وجوه الفكر والحياة . ولا مراء في ان من اختبر العلم وعرف العلماء حق المعرفة يستطيع ان يميز بين من حذق الصناعة العلمية فحسب وبقي ضمن حدودها فكان تكنيكياً محضاً ، ومن اتسع افقه وألح تساؤله وعمق اختباره فحقق معنى العلم والعالم بصورة اشمل واغنى ، فنفذ الى متضمنات الأسلوب وعرف حدوده ، وناقش موضوع علمه ومعطياته ، وربط نتائجه بنتائج سواه من العلوم ، وسيطر بفكره على مادته واسلوبه وصناعته بدلاً من ان يكون محدوداً بها وخاضعاً لها .

واذا صدق هذا في العلوم التي تبحث في المادة غير الحية ، فهو اصدق في العلوم الانسانية لتعقد هذه العلوم من ناحية ، ولصلتها الوثقى بحياة العالم من ناحية اخرى . ولعله اصدق ما يكون في التأريخ لتغلغله العميق في فكر الانسان وعاطفته ودوافع سلوكه . ونحن نرى بين المؤرخين المحدثين عدداً وافراً متكاثراً من الذين امتلكوا ناصية الصناعة التأريخية ، فأقبلوا على المصادر يدرسون نصوصها ويستخرجون منها الحقائق الجزئية ، ويملأون صفحات الكتب والمجلات بها . ولسنا لننكر خدماتهم الجزيلة في هذا المضمار ، ولكننا نعتقد انهم لا يتممون وظيفة التأريخ كاملة الا اذا ضموا الى هذه الصناعة الدقيقة ، النظر المتأمل في احداث الماضي ، الرابط بينها ، الحاكم لها او عليها ، المكتشف اثرها في الحاضر ، الدافع الى الفهم الشامل الصحيح والعمل الايجابي المثمر . وبكلمة اخرى : ان هذه الصناعة كثيراً ما يذهب بها الحرص على الدقة الى تجزئة الماضي والى اضعاف صلته بالحاضر ، فتحدث ثمة هوة بين « المعارف » التأريخية المتكاثرة المتناثرة و « الفكر » و « الاتجاهات » التأريخية التي يجب ان

تحتويها الثقافة الفردية والاجتماعية — هوة بين التأريخ كصناعة فحسب ، والتأريخ كتفكير معين له ميزاته وخصائصه التي تكمل معنى الصناعة فيه والتي تميزه بالوقت ذاته عن التفكير الذي يتجلى في العلوم الاخرى .

فما هو هذا التفكير التأريخي ؟ وما هي شروطه ومميزاته ؟

•

ان اول ما يتميز به التفكير التأريخي هو انه نظر في **الانسان** . فالمعروف المتناقل ان التأريخ يبحث في الماضي . ولكن ماضي من او ماذا ؟ ان للكائنات غير الحية : للكواكب والنجوم ، للجبال والسهول والبحار — ان لهذه كلها ماضيها . ولكن هذا الماضي هو موضوع علم او علوم اخرى غير التأريخ بالمعنى الدقيق ، ولا تتصل بهذا التأريخ الا بقدر ما اثرت الاحداث التي تعنى بها ، بالانسان او بقدر ما اثر هو بها . وكذلك ان للنبات والحيوان ماضياً ، اذ هما يخضعان للتحول والتغير . على ان التأريخ هنا ايضاً لا يعنى بهما الا بالنسبة لعلاقة هذا التغير والتحول بالانسان فاعلاً او منفعلاً . ولذا قلنا : « لا تأريخ بلا انسان » .

ان كثيرين من الناس يدرسون التأريخ ويدرّسونه بشكل مجرد ، فيسلبونه لبه ومحتواه . انهم يرددون سنوات واسماء واحداثاً دون ان ينفذوا الى الحياة البشرية التي تنساب فيها . وكذلك ينظر بعض المؤرخين الى الآثار والمخلفات الماضية : يقرأون نقوشها ، ويفكون رموزها ، ويحللون لغتها ، دون ان يلمسوا النشاط الانساني الذي صدرت عنه . فوراء اي اثر اونقش او كتاب او اية بقية مادية من بقايا الماضي : انسان ، او اناس عاشوا وجهدوا ، واحبوا وكرهوا ، وفرحوا وتألموا ، واختبروا الحياة اختبارات قد تكون مماثلة لاختباراتنا الحاضرة او مختلفة عنها ، ولكنها على كل حال ، اختبارات انسانية هي ، في النهاية ، لب الماضي ومحتواه .

قلنا في ما مضى ان من اغراض التأريخ « احياء » الماضي . ومن البديهي ان هذا لا يتم الا اذا بعثنا ما كان يجيش فيه من حياة ، اي اذا رجعنا ،

وراء الاحداث المروية والاسمـاء المرددة والآثار المخلفة ، الى الافراد والجماعات الذين كانوا يحوكون نسيج الماضي بما كانوا يشعرون ويفكرون ويعملون ، والا اذا استطاعت حياتنا ان تتصل بحياتهم اتصال ملامسة وادراك وتفاعل . ان هذه الحقيقة قد تكون ، كما قلنا ، بديهية . ولكننا كثيراً ما نسهو عنها ، بل كثيراً ما يعجز عن ادراكها وتطبيقها المختصون بهذا العلم . فقد يضعون المباحث الضخمة ويتوصلون الى الاحكام المفصلة ، ولكن نتاجهم هذا لا يحدث فينا اثراً محركاً ، ولا يلهمنا فكراً او شعوراً ، لانه لم يقبض على ناصية الحياة كما كانت تُحيا ، ولم يستضىء بقبسها أو يلتهب بجذوتها .

وكذلك الأمر في تعليم التأريخ في كثير من الاحيان : انه يكاد لا يتعدى تلقين « حقائق الماضي » — واهمها في نظر الملقِّنين والملقَّنين اسماء الملوك والحكام وقادة الحرب ، والمعارك التي خاضوها والمعاهدات التي عقدوها ، والاحداث السياسية والتواريخ التي جرت فيها . هذه « الحقائق » ينتظر من التلميذ او الطالب ان يحفظها ويرددها . فلا عجب في ان يعرض النشء عن هذا العلم ويجفوه ، وان يتحول عنه الى ما هو ادعى الى اعمال الفكر واوثق صلة بالحياة . بل كثيراً ما يكون التدريب العلمي التأريخي في المراحل الجامعية خلواً من هذا العنصر الاحيائي ، فيأتي فاتراً جافاً آلياً قد ينجح في الترويض على اسلوب وطريقة ، ولكنه يخفق في تفتيح العقل وانماء الشخصية . والعيب في هذا التعليم كله انه لا يتوصل الى الكشف عن جوهر الماضي ، واحياء العنصر الذي يكونه ، الا وهو الانسان ، فرداً ومجموعاً : الانسان شاعراً ومفكراً ، مغتبطاً ومتألماً ، جاهداً وخاملاً ، غالباً ومغلوباً ، حريصاً على العيش وخائفاً من الفناء ، متأثراً بما حوله ومؤثراً فيه . إن النفاذ الى هذا الجوهر هو الشرط الاول من شروط التفكير التأريخي الصحيح .

●

على اننا لا ننظر الى هذا « الانسان » الذي نعده لب التاريخ نظراً

مجرداً ، وانما نقصد به كائناً فعالاً ومنفعلاً متأثراً ومؤثراً . ومعنى هذا اننا لا نستطيع ان نفصله او نبتره عن سواه من الناس ، وبصفة خاصة عن الجماعة او الجماعات التي يرتبط بها ويتفاعل واياها . فلئن كان شعور الانسان وتفكيره واختباراته وليدة طبيعته التي يتميز بها عن سائر الكائنات ، فهي ايضاً وليدة صلاته الاجتماعية والتفاعـــل القائم ضمن مجتمعه وبين مجتمعه وسائر المجتمعات . ولذا فالتفكير التأريخي يحرص على ان يضع **الانسان في حيزه الاجتماعي** ، وان يدرك العلاقات التي تربطه بما حوله واثر هـــذه العلاقات في تكوين معتقداته واساليب فكره وعمله . فالانسان ، كما قال ارسطو ، حيوان ناطق ، ولكنه بتعريف آخر لارسطو ايضاً : حيوان سياسي (أي اجتماعي) . بل ان المعنى الاول (النطق او العقل) لا يتحقق ، ولا تتحقق بالتالي انسانية الانسان ، الا بالاجتماع . ولذا فكل « تجريد » للانسان ، او فصل للفرد عن المجتمع ، انما هو اخلال بالحياة وتجاوز لسننها ، لان الحياة كيان عضوي متماسك يأبى البتر ويرفض الانقسام . حتى الناسك المتزهد المنعزل عن سواه من الناس ، لا يمكننا ان ننفذ الى صميمه وندرك حقيقته الا اذا وضعناه في حيزه الاجتماعي ضمن الظروف والاحوال التي كانت سائدة في مجتمعه ، وادركنا على ضوئها الدوافع التي دفعته لان يثور على المجتمع او يهرب منه .

ويذهب بعض الباحثين في تأكيد هذه الحقيقة الى جعل الانسان كله مجتمعاً او طبقة او امة او حضارة . فالتأريخ عندهم هو ادراك المجتمعات او الطبقات او الامم او الحضارات الماضية في علاقاتها بعضها ببعض وفي تطورها بعضها الى بعض . وهم ان اختلفوا في ما يعدونه الوحدة الاجتماعية الاصيلة — الأمة او الطبقة او الحضارة او سواها — فهم يكادون يتفقون في جعل وحدتهم التي يختارون محور الحياة ولب التاريخ . على اننا نخشى اذا غلونا في هذا الاتجاه ان نكون تخلصنا من « تجريد » لنقع في « تجريد » آخر لا يقل عنه خطأ واخلالاً بالحياة . فللأمة وللطبقة

وللحضارة - ولكل وحدة اجتماعية – محتواها الانساني ، بمعنى انها تتألف من رجال ونساء لهم مشاعرهم وخوالجهم وتطلعاتهم وتأثرهم بما حولهم وتفاعلهم فيما بينهم . وآذا لم يكن من الممكن ان نفصلهم عن الوحدة او الوحدات الاجتماعية التي ينتمون اليها ، فليس ممكناً كذلك لهذه الوحدة او الوحدات مهما تقوَ رابطتها او يعظُمْ اثرها ان تستنفد معاني حياتهم كلها ، وليس ممكناً لنا ان نفهمهم على حقيقتهم اذا اغرقناهم اغراقاً تاماً ضمن هذه الوحدات ، وتصورنا الحياة الانسانية مجموع وحدات اجتماعية فحسب . ان الحياة اغنى واشد تعقّداً مما يبديه هذا النوع من التصور .

وفي الواقع ان من مقومات التفكير التأريخي الصحيح ابداء ما تتميز به الحياة الانسانية من غنى وتشابك وتعقد . لنأخذ اي حدث من الاحداث التي تتوالى على مسرح حياتنا الحاضرة : نرَ انه نتيجة عوامل كثيرة متداخلة ، وملتقى تيارات تجري من كل صوب وناحية . كيف يمكننا مثلاً ان نسبر غور ما يجري في الجمهورية العربية المتحدة في هذا اليوم الذي تصحح فيه مسودات هذا الكتاب ، ونعني به انتخاب اللجان المحلية في الاتحاد القومي . هل يمكننا فهم هذه الانتخابات على ضوء التشريعات والتنظيمات التي دعت اليها فحسب ، ام نجدنا مضطرين الى النفاذ وراءها الى الاوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي اوجدتها الثورة ، والى ما كان سائداً قبلها ، والى نمو الفكرة العربية ، والى تنبه الجماهير ، والى نقمة النفوس على التسلط الخارجي والمفاسد الداخلية ؟ وهل ننسى ما لقضية فلسطين من اثر باق في هذا كله ؟ أليس يقودنا بحثنا وتحليلنا الى النظر في الوضع العالمي وانقسام العالم جبهتين متطاحنتين وجبهة ثالثة تسعى الى التزام الحياد بينهما ، وفي التيارات الايدولوجية التي تكتسح البشرية وتوقظ الجماهير ، وفي ما وراء هذا كله من قوى تفعل فعلها في الحضارة الحديثة وتدفعها في اتجاهاتها المختلفة وتكيف نظرتها او نظراتها المتضاربة

الى الحق والباطل والخير والشر والوجود والمصير ؟ اننا لنجد عند التحقيق ان هذا الحدث وامثاله من الاحداث متصلة باحوال سياسية واقتصادية واجتماعية وعقلية واسعة المدى شديدة التداخل ، وانه لا سبيل لنا الى تفهمها الا من ضمن هذه الأحوال جميعاً .

ليس معنى هذا ان هذه العوامل والاحوال هي متساوية الفعل والاثر ، وانه لا يمكننا اذا توافرت معلوماتنا وصح تفكيرنا ان نصنفها في مراتبها ، وان نقدر مبلغ تأثير كل منها في الاحداث المؤدية الى الانتخابات التي نتكلم عنها . وانما المقصود انها كلها متشابكة متماسكة متفاعلة ، وان التفكير الاجتماعي والتاريخي الصحيح يحس بهذا التشابك والتفاعل ، ويأنف من الاحكام السهلة والتعميمات الجارفة التي تبسط الحياة ، وتنظر الى بعض وجوهها دون الاخرى ، وتقطع الخيوط التي تربط اجزاءها او تقيم الحدود والسدود بين مجاريها المتلاقية المتنافرة .

ولقد يقول قائل ان انتخابات الجمهورية العربية المتحدة التي اتخذناها مثلاً لما نقصد اليه هي حدث هام يتصل بحياة الملايين من الناس ، فلا غرابة اذا جاءت دليلاً على تضافر عوامل عديدة وتشابك عناصر وافرة مختلفة . وهو قول صحيح الى حد ، لان بعض الاحداث البشرية اغنى من البعض الآخر مادة واوفر حركة وحياة واخصب نتاجاً ، اذ تلتقي بها المجاري السارية وتتفاعل فيها القوى الفاعلة اكثر مما تفعل في سواها . ولكن هذا التضافر والتشابك اذا اختلف في الاحداث البشرية درجة واتساعاً ، فهو لا يختلف نوعاً . فكل حدث بشري ، مهما ضؤل ، نتيجة تفاعلات متعددة . وهذا واضح بين لمن يحاول تحليل اي من المواقف التي يتخذها هو نفسه او اي من الاعمال التي يقبل عليها : انه يرى انه لا يستطيع ان يستوعب مضمونه بيسر وسهولة ، اذ كلما امسك بخيط تبينت له خيوط ، وكلما كشف عن وجه برزت له وجوه كانت خافية عن عينه لدى النظرة الاولى . واذا صدق هذا في النوايا والمواقف والاعمال

الفردية ، فأحرى به ان يصدق في الاحداث الاجتماعية التي تلتقي او تصطدم بها نوايا الجماعات ومواقفها واعمالها ، وكل منها مزيج زاخر ونسيج كثيف .

وهكذا نعود فنقول ان التفكير التاريخي الصحيح يضع الاحداث البشرية في حيزها الاجتماعي ويرى العلاقات المتشابكة التي تصلها بعضها بالبعض الآخر ، وهو بذلك يفي الحياة الانسانية — والحياةُ موضوعهُ — ما هو حقها ، ويكون اميناً لطبيعتها وجوهرها وسننها وقوانينها .

•

على ان هذه الاتجاهات التي وصفنا — الكشف عما في الاحداث من مضمون انساني ووضع هذا المضمون في حيزه الاجتماعي (بأوسع معاني « الاجتماع » واشملها) — ان هذه الاتجاهات لا تميز التفكير التأريخي وحده بل تنطبق على التفكير الذي تتطلبه جميع العلوم الانسانية او الاجتماعية ، فالمفكر السياسي او الاقتصادي ، او العالم النفسي ، او الناقد الادبي ، او المحلل الاجتماعي ، او المربي — كل واحد من هؤلاء — لا يؤدي حق موضوعه اذا لم ينفذ وراء المظاهر التي يراها الى الحياة الانسانية التي تنم هذه المظاهر عنها ، واذا لم يدرك ما تتصف به هذه الحياة من غنى وكثافة وتداخل وتفاعل .

اما التفكير التأريخي فهو يضم الى هذه الميزات ميزة اخرى يتفرد بها ، وهو انه لا يكتفي بوضع الاحداث في حيزها الاجتماعي . بل يتناولها في حيزها الزمني ايضاً . انه يعي الزمن . فاذا نظر غيره الى الامور بابعادها الثلاثة (ولنقل في حيزها المكاني) ، اضاف هو بعداً رابعاً ، ووضعها في حيزها الزماني والمكاني معاً . انه يتساءل عن الـ « متى » ولا يستقر او يستريح الا اذا ربط الحدث بما قبل وما بعد وركزه في برهة معينة من مجرى الزمن المتدفق .

على ان التفكير التأريخي يأبى هنا ايضاً التجريد وبتر الاوصال . فليس الزمن الذي يهتم به شيئاً قائماً بذاته منفصلاً عن الحياة ، وانما هو الحياة

نفسها في تحركها وجيشانها وتدفقها وانتقالها من حال الى حال . وبكلمة اخرى هو الحياة في صيرورتها . فموضوعه ليس موضوعاً جامداً ثابتاً ، بل « الاحداث » البشرية ، والاحداث نتيجة تغير وتبدل . فاذا وقف عند احد هذه الاحداث ، كاعلان الحرب بين انكلترا والمانيا في ١ ايلول ١٩٣٩ ، او كمبايعة اهل الشام لمعاوية بالخلافة في شوال سنة ٤٠ هـ ، او كاكتشاف نيوتن لقانون الجاذبية صيف عام ١٦٦٦ ، فانه لا يتمالك من ان يتساءل عما حدث قبله وادى اليه ، وعما جاء بعده ونتج عنه . واذا « جمد » هذا الحدث بعض الوقت ليمعن النظر فيه ، فانه يدرك ان هذا « التجميد » هو عمل اصطناعي ، لان الاحداث — بل الحياة بكاملها — هي في سيلان دائم لا يقف ، وكل ما هو الآن ، او ما وجد في اية فترة ماضية ، هو في انتقال مما كان الى ما سيكون . انه يدرك تمام الادراك ان الحياة شيء ديناميكي متحرك متغير دوماً من حال الى حال وان الحاضر ليس سوى التقاء الماضي والمستقبل .

ان هذه النظرة الى الماضي ، او الى الحياة كتحول وتغير مستمرين ، قويت واتسعت في القرن التاسع عشر بفعل عوامل متعددة تلاقت في توجيه النظر الى اهمية التبدل والتطور في الطبيعة وفي الانسان ، فأدت بالتالي الى اثارة الحس التأريخي واشاعة اثره . من هذه العوامل ردة الفعل على الثورة الفرنسية وعلى التفكير العقلاني الذي سبقها في عصر « التنور » ، وقيام الحركة الرومانطيقية وتوكيدها على العودة الى الاصول واستيحاء الماضي ، واشتداد الشعور القومي واتساع نطاقه ، والتقدم المسرع الذي حدث في العلوم الطبيعية وفي الانتاج الصناعي ، ومذهب دارون وصحبه في النشوء والارتقاء الطبيعي ، وفلسفة هيجل الديالكتيكية وما تلاها او نشأ عنها من مذاهب كان اهمها وابلغها اثراً بلا مراء الماركسية المادية . هذه وسواها من التطورات في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية تعاونت على تشديد الاهتمام بالماضي وبالصيرورة والتطور ، فغزر الانتاج

التأريخي وعظم نفوذه ، وتسرب اثره الى العلوم الاخرى ، بل الى الحياة الفكرية عموماً ، حتى اعتاد البعض ان يدعوا القرن التاسع عشر بـ « العصر التأريخي » ، وحتى غدت النظرة التحولية او التطورية هي السائدة او كالسائدة لا في مجالات العلم فحسب ، بل في التفكير العام وفي مسالك الرأي والعمل جميعاً . وهذا ما دفع المؤرخ الالماني مينكه (Meinecke) الى ان يدعو هذه النظرة الجديدة التي اخذت تعرف بـ **historicism** « اعظم ثورة روحية عرفها الفكر الغربي » (١)

ولا شك إن التفكير التأريخي استفاد من هذه التطورات ، وافاد . لا شك اننا اصبحنا بفضل انصبابه على تتبع التغير والتطور اكثر فهماً وادق ادراكاً لكثير من الاتجاهات الفردية والاجتماعية في الماضي ، واعمق تحسساً بـ « الاصول » التى نشأت عنها ، و « المراحل » التى اجتازتها ، و « السياق » الذي جرت فيه . ولكن هذا التفكير قد غلا وتمادى في بعض اتجاهاته ، ثم جاءت الهزات العنيفة التى خضت الانسانية في العقود الثلاثة الماضية ، فصدمته وزعزعت الثقة به ، فغدا مثار شك ونقد ، وبانت حاجته الى التقيد والتحوط والانضباط ليتجرد من الشوائب التي اعترته او التطرف الذي انساق اليه وليحتفظ بمضمونه الخالص وجوهره الايجابي . واهم التحفظات التي يتطلبها هذا التفكير التأريخي ليكون صحيحاً متزناً ما يلي :

١ ــ قد يستنتج من قولنا هذا ان الحياة صيرورة دائمة وسيلان مستمر ، ان هذه الصيرورة هادئة سليمة في جميع مراحلها ، وان نهر الحياة يجري وادعاً مطمئناً في اتجاه واحد دون انحراف او ارتداد . ولعل هذه النظرة كانت سائدة في القرن الماضي لما كان يشعر به الناس حينذاك من ثبات واستقرار ومن تقدم مستمر في العلم والانتاج . غير ان الزعازع التي عصفت بالانسانية في النصف الاول من هذا القرن ، والاخطار التي تلوح

(١) **F. Meinecke,** *Die Entstehung des Historismus*
(ميونيخ ، ١٩٣٦) ، م ١ ، ص ١

في الآفاق الحاضرة وهي اشد هولاً ، قد هزت منا الوعي والضمير ، وجعلتنا نعود فندرك مجدداً ان مجرى الحيـاة يختلف في مراحله المتتالية هدوءاً وصخباً ، وعلواً وهبوطاً ، وبطأً وسرعة ، وان الصيرورة تأتي رفيقة مستقرة حيناً عنيفة عاصفة حيناً آخر ، وان طريقها ليس مستقيماً دوماً ، بل كثيراً ما يلتوي وينحرف ويرتد . ولذا يجب علينا ان نميز بين هذه المراحل المختلفة ، ونتبين خصائصها ، ونلحظ الشدة والعنف والثورة والارتداد كما نلحظ الدعة والاستقرار والتقدم ، ونرى الابداع حيث يكون الابداع ونقرّ بالجدب والتأخر والانتكاس حين تطل علينا حقائقها المؤلمة من وراء الاحداث . ان الحياة ظفر ومأساة ، والتفكير التأريخي الصحيح يدرك ما ينطوي عليه كل من هذين المعنيين ، وما ينطويان عليه معاً .

٢ ــ يقودنا هذا التحفظ الى تحفظ آخر متصل به . وهو شكنا وارتيابنا في كل تحتيم يؤكد ان الحياة قد سارت في الماضي وستسير في المستقبل نحو غاية معينة ليس لها بدل ولا عنها مرد . لقد عرف الفكر الانساني مذاهب متعددة تقول هذا القول ، وهي ان اختلفت في تعيين القوة او القوى التي تدفع التاريخ في مجراه ، او في تحديد الاتجاه الذي يسير فيه او الغاية التي يجدّ نحوها ، فانها تكاد تتفق في تحتيم الاتجاه والمراحل والمصير . فمنها مثلاً ما يرى ان الحياة في ارتقاء مستمر وتقدم دائم الى ان يبلغ الانسان الكمال والسعادة التامة على سطح هذه البسيطة ، ومنها ما يقول ان كل حضارة تنشأ وتزدهر ثم تنحط وتندثر بحسب قوانين معينة لا هرب لها منها ولا نجاة . بعضها تجعل القوة المسيرة المحتمة قوة علوية ، واخرى تؤمن بالقوى الانتاجية والعلاقات الاقتصادية ، وغيرها تركز اهتمامها بالعقل واستمرار تفتحه وتدرجه في رؤية الحقيقة والسير في هديها . وليس من ينكر ان ثمة نواحي في الحياة الانسانية تسير في اتجاه يمكن استخلاصه من خلال التغيرات والتقلبات وعبر الانحرافات والانتكاسات . فالعلم

مثلاً يجري في طريق النمو والتوافر ، وسيطرة الانسان على الطبيعة تشتد وتقوى يوماً بعد يوم ، والعلاقات الاجتماعية تتضاعف سعة وتعقداً ، وارتفاع مستوى العيش المادي وتنبه الجماهير وتحقيق الامكانات البشرية قد ازدادت خلال التاريخ وها هي اليوم تنطلق سراعاً . ولكن هل يصح ان نقول القول ذاته في الحياة الانسانية بمجموعها ، وان نحتم لها طريقاً معيناً وغاية لا محيد عنها . ان الانسان مجموع امكانات وقابليات ، منها ما هو للخير ، ومنها ما هو للشر . وليس ثمة ما يسوغ الدعة والتفاؤل المطلق كأن سير التاريخ سيؤدي حتماً الى السعادة والصفاء والكمال ، كما ان ليس ثمة ما يحتم تهدم اية حضارة او انحطاط الحضارة الانسانية بتمامها وتشتتها او زوالها . فالتاريخ من صنع الانسان ، ومجاله يتسع لشتى امكانات التقدم والرقي ، كما انه معرض لمختلف انواع الاخطار ، وفيه من الكسب والابداع قدر ما يرى الانسان من حق ويقهر نفسه عليه ، ومن الشر والخسران قدر ما يضل عنه او يتأباه . ولكن ليس ثمة ما يحتم في اية مرحلة من مراحله ، او في المرحلة النهائية التي نتصورها له ، انه سيتخذ هذه الوجهة او تلك كما نرسمها بالضبط .

اجل ! لا ينكر ، كما قلنا ، ان للحياة الانسانية سننها وقوانينها ، واننا نلاحظ ترابطاً بين مؤسساتها المختلفة ، ونوعاً من الانتظام في المراحل التي تتبعها هذه المؤسسات في تطورها وتفاعلها . لا ينكر مثلاً ما للاوضاع الاقتصادية في عصر من العصور من اثر في وجوه الحياة الاخرى ، او ان هذه الاوضاع قد اتبعت في تطورها اتجاها يمكن تصويره بشكل عام . ولكننا لسنا من الذين يقولون بان هذه السنن والقوانين لها ما للسنن والقوانين الطبيعية من انتظام وتماسك ، وبأنها تجيز لنا التنبؤ بالاحداث المقبلة كما تجيز هذه ، لاننا نعتقد ، كما ذكرنا ، ان التاريخ من صنع الانسان ، فرداً او جماعة ، وان الاوضاع القائمة تحد هذا الصنع ، وتقيم القيود والسدود في وجهه ، ولكنها لا تملك ان تمنعه منعاً تاماً ، او ان تمنعه في

الحيان كثيرة عن تجاوز الحدود والقيود ، والاختيار بين ما ينفسح امامه من امكانات بالرغم منها . ولذا ، ليس التفكير التأريخي الصحيح ، في عرفنا ، تحتيمياً جازماً ، وانما هو يسعى الى ادراك التغيرات والتقلبات على حقيقتها ، والى استخراج اصولها وعواملها القريبة والبعيدة كما تبدو له بالاستنطاق التأريخي والنظر العقلي . ولما كان يرى من خلال هذه التقلبات والتغيرات ان للانسان اختياراً وفعلاً وانه ليس مسيراً كل التسيير ، فان هذا الادراك ينتهي به الى نوع من اليقظة والقلق ، ويبعث هذا القلق في نفس صاحبه شعوراً حاداً بالمسؤولية يتجلى في كل ما يقدم عليه من فكر وعمل . وبهذا كله يرتفع الى مرتبة التفكير الواعي الفاعل المبدع .

٣ ــ ومن اخطاء التفكير التأريخي المتطرف في تركزه على الصيرورة والتغير ، نظرته الى كل حدث من حيث زمنه وعصره ومرحلته فحسب . فكل عمل من الاعمال الانسانية يصبح ، حسب هذه النظرة ، نتيجة « الظروف » التي كانت قائمة في زمنه ، و « الاحوال » التي كانت سائدة ، فاذا فهمنا منشأه والمرحلة التي يمثلها ، فقد استوعبنا معناه ، ولن نستطيع ان نحكم له او عليه الا من ضمن هذه الظروف والاحوال . فليس ثمة شيء ثابت مطلقاً : ليس ثمة حقيقة ثابتة او خير ثابت ، او اية عناصر في الانسان غير خاضعة للتحول والتغير . بل كل ما لدينا اشياء واحداث واحكام نسبية تصح في زمن ولا تصح في زمن آخر ، وتقوم في مرحلة وتختفي في أخرى .

ان هذه النسبية التي تتهرب من كل ما هو مطلق ، تغدو هي ذاتها نسبية مطلقة ، فتخل ، في ما نرى ، بمفهومها لطبيعة الانسان بتجريدها اياها من صفاتها الاصلية . فمع ان الانسان الحديث يختلف عن الانسان القديم في عصور الفراعنة ، او عما كان عليه ابناء المدنية الصينية او الهندية في فجر تاريخهم ، او عن الانسان اليوناني او الروماني في العصور القديمة او العربي في القرون الوسطى ــ مع انه يختلف عن هؤلاء في اشياء ، فانه

يشبههم ايضاً في اشياء لا تتبدل بتبدل الازمان والبيئات. فهو مثلهم يأمل وييأس ، ويحب ويبغض ، ويغتبط ويتألم ، ويضحي ويطمع ، ويوقن ويشك ويكفر ، ويتسامى الى الخير ويهوي الى الشر . كما ان له عقلاً منتظماً في تدرجه وتفتحه ، متماسكاً في سعيه الى الحقيقة وتطبيقها ، ولولا هذا الانتظام والتماسك لما كان ثمة تقليد حضاري ايجابي متراكم عبر العصور . وليس جوهر هذه الصفات المستمر خلال التاريخ بأقل اهمية من المظاهر المختلفة التي تبدو فيها او التطورات التي تعتريها . فليحرص تفكيرنا التأريخي على ان لا يقع في الاخطاء التي يدعو الى تجنبها : فلا يهرب من بعض الوان التجريد لينتهي الى تجريد الانسان من جوهره الباقي ، ولا يمعن في النسبية بحيث تصبح هي مطلقة ، او بحيث تختبيء وراءها مطلقات يؤمن بها إيماناً ضمنياً متسلطاً . ولعلنا نعود الى هذا الموضوع ، عند البحث في الحكم التأريخي ، في مناسبة اخرى من هذا الكتاب .

•

الحياة الماضية صيرورة حية وتفاعل مستمر . واذا كانت كذلك ، فقد وجب على التفكير التأريخي الصحيح الا يقف عند تصوير هذه الحقيقة ، بل ان ينفذ من خلال هذه الصيرورة لتامس **العوامل الفاعلة فيها**. نقول : العوامل ، ولا نقول العامل ، لاننا نؤمن ، كما بينا مراراً ، بتعدد عناصر الحياة وبتفاعل هذه العناصر في تكوينها ، ونرى ان اهمال بعض هذه العناصر والانصباب التام على بعضها — او على واحد منها فحسب كما فعل نفر من المفكرين — انما هو تبسيط وتجريد واخلال بمحتوى الحياة وسلب لمضمونها .

واذ يقدم التفكير التأريخي على ذلك يتبين تنوع هذه العوامل واختلافها : فمنها ما هو ناشيء عن محيط الانسان الطبيعي ، ومنها ما مصدره طبيعته الانسانية ذاتها ، ومنها ما يرجع الى العلاقات القائمة في مجتمعه او بين مجتمعه والمجتمعات الاخرى . ويتبين كذلك ان هذه العوامل يؤثر بعضها

في البعض الآخر ويتأثر به . فالسبب في زمن وحال قد يغدو نتيجة في زمن تالٍ وحال اخرى ، وقد يعود فيصبح سبباً اشد فعلاً او اخف أثراً في حال ثالثة . بل هو لا يخلو ، في كل حال ، من ان يكون فاعلاً ومنفعلاً في الوقت ذاته ، وانما الفرق هو في درجة الفعل او الانفعال وفي غلبة احدهما على الآخر .

ولا شك في ان بعض هذه العوامل افعل وابلغ أثراً من غيرها ، وانها تختلف من حيث نوع هذا الأثر وقيمته . ولذلك يحرص التفكير التأريخي على ان يصنف هذه العوامل ما امكنه التصنيف ، وان يتبين اثر كل منها ، وما اذا كان لهذا الاثر اتجاه معين يمتد ويتكامل خلال المراحل المختلفة او اتجاهات متعددة تختلف وتتباعد وتتناقض .

وبصفة خاصة ينبغي للتفكير التأريخي ، في نظرنا ، ان يستجلي العوامل التي ادت الى تقدم الانسان ورقيه وتحرره وتلك التي عملت على إضعافه وتأخره وانحطاطه . ذلك ان اي علم او فكر ، بل اي جهد انساني ، يجب أن يرمي ، آخر الامر ، الى الاسهام في رقي الانسان واكتماله واكتسابه حظوظاً جديدة من الحكمة والحرية والكرامة . وللتفكير التأريخي نصيبه الهام في هذا المجال ، وهو نصيب مطلوب منه ومفروض عليه اذا اراد ان يقوم بوظيفته وينتهي الى غايته . فبمحاولته ان يكشف العوامل الباعثة للتغير ، وان يميز بين ما حفز منها الى تقدم وتحرر وما ادى الى تأخر وفساد ، يسعى لتفهم الماضي على حقيقته ، وفوق هذا يلقي ضوءاً على الحاضر ويمهد سبيل الفكر والعمل للمستقبل . وبهذا كله يصبح تفكيراً حياً فاعلاً ، كما يجب ان يكون التفكير .

ولا جدال في ان القيام بهذه المهمة يتطلب فهماً صحيحاً لطبيعة التغير ، ولمعنى التقدم ومفهوم التحرر . وهنا لا بد لهذا التفكير من ان يستعين بجهود العلم — العلم بميادينه المختلفة : الطبيعية منها والاجتماعية ، العلم الدائب في استجلاء طبيعة العالم المادي وطبيعة العالم الانساني . كما انه لا

غنى له كذلك عن الافادة من الفاسفة التي تحاول الربط بين نتائج العلوم المتفرعة ، واستخراج متضمناتها ، والنفاذ من ظواهر الاشياء الى بواطنها . كل ذلك لكي تأتي موازينه صحيحة ومقاييسه دقيقة ، فلا ينخدع بالمظاهر ، ولا يقف عند الجزئيات ، بل يميز تمييزاً صائباً بين الصحيح والفاسد ، والمحرز والمستعبد ، والحافز الى التقدم والداعي الى التأخر ، ويضع كلاً منها في مرتبته ومنزلته .

واذا كان هذا التمييز ضرورياً في كل وقت وحال ، فانه اشد ما يكون ضرورة في احوال الثورة والتحفز والانقلاب السريع ، كي يكون للشعوب المتحفزة ما يهديها في ما تنهض اليه ، وكي تكون نقمتها على عوامل الضعف والاسترخاء صحيحة حاسمة ، وتلمسها سبل التقدم والرقي سليماً مثمراً . ان من اهم ما تتطلبه هذه الاحوال ، بل ما تحتاج اليه البشرية في كل حال ، هو الجهد الفعال للتغلب على ما في الطبيعة والانسان ذاته من قوى سلبية تعوقه عن اكماله وتحقيق كرامته ، والسعي الدائم لدعم كل قوة ايجابية تعزز هذه الكرامة وتدفع ذاك الاكمال الى ابعد حدوده . فما اجدر التفكير التاريخي ان يكون له حظه من هذا الجهد ونصيبه من هذا الخلق والابداع .

●

ولكي يكون للتفكير التأريخي هذا الاسهام المثمر ، يحتاج الى ان يستكشف هذه العناصر الايجابية في التاريخ ، وهل هي متماسكة متكاملة ، او منفرطة موزعة ، وبعبارة اخرى هل حصل ثمة تراكم وتكامل في سياق الماضي ام لم يحصل ، وهل شمل هذا التراكم والتكامل الحياة الانسانية بكاملها ام انحصر في بعض وجوهها . وعلى نتيجة تساؤله هذا تتوقف نظرته الى الانسانية والى الحضارة . هل الانسانية وحدة كاملة تسير في تطور معين ، وهل ثمة حضارة انسانية واحدة تتقدم من مرحلة الى مرحلة ، ام هل « الوحدة التاريخية » هي الامة ، او المجتمع ، او الحضارة الخاصة ؟ من الناظرين في الماضي من اتخذ الوجهة الاخيرة ، فانكر وحدة الانسانية ،

وقال أن هناك حضارات مختلفة لكل منها روحها وطبيعتها ومآثرها ، ولكنها تنشأ وتتطور ثم تنحط وتنحل حسب قوانين معينة . ومنهم ، بالعكس ، من جعل هذه الحضارات مظاهر لتطور واحد قد يتخذ طريقاً مستقيماً او متعرجاً او لولبي الشكل ، وقد يتفرع الى طرق ومسالك ، ولكنه في جوهره واحد ، لانه منبثق من وحدة الانسانية الاصيلة . وينتج من هذا التساؤل تساؤل آخر : هل هناك تاريخ واحد ، ام تواريخ متعددة ؟ واذا كانت ثمة تواريخ متعددة ، فهل تخضع لقانون معين ام لقوانين مختلفة ؟ هذه وامثالها من المسائل الكبرى التي يثيرها النظر في الماضي متصلة بمعاني التقدم والتراكم والتكامل في الحياة الانسانية ، ولا غني للتفكير التأريخي من ان يجلوها لنفسه اذا اراد ان يفهم الماضي وينقل فهمه للآخرين .

وقد يبدو بنتيجة هذا التساؤل ان التراكم والتكامل والتقدمية هي من خصائص ناحية او نواحٍ معينة من الحياة الانسانية دون سواها . اننا نراها ، مثلاً ، في عمل العقل المتجه الى الطبيعة المحاول استجلاء اسرارها والسيطرة عليها . فالعقل منتظم متماسك متكامل . وتاريخ العلم ، الذي يمثل عمل العقل خير تمثيل ، تاريخ متراكم متقدم ، بالرغم مما اعتوره من انحراف او ارتداد في بعض المراحل او الادوار . ولولا هذا التراكم لما استطعنا ان نبني على الاسس التي ورثناها ، ولما كان للعلم معناه او للتعليم اثره في تطور الانسانية . ان هناك ، ولا شك ، تراثاً علمياً ايجابياً ، وتقليداً عقلياً مترابطاً ، ناشئين عن هذه الصفة الاصلية في العقل الانساني وفي اسلوب فعله وشكل تفتحه . ولكن أيصدق هذا الوصف على الحياة الانسانية بكاملها ، ام هل ثمة انفصال اصيل في طبيعة الانسان ، وتنازع وصراع بين عناصر في كيانه تقدمية واخرى غير تقدمية ؟ وهل نحن فعلاً ، في مجمل حياتنا ، ارقى مما كانت عليه الانسانية في بعض مراحلها السابقة ؟ هل نحن سائرون الى اكتمال متوافر ، ام الى مزيد اضطراب وفساد ، ام الى انحلال وزوال ؟

ليس غرضنا هنا الاجابة عن هذه الاسئلة وما يتصل بها . وانما هو الاشارة الى نوع الاسئلة التي يطلب من التفكير التأريخي ان يثيرها اذا اراد ان يقوم بكامل وظيفته ، فلا يكتفي بمجرد اثبات احداث الماضي وترديدها ، بل يطمح الى ان يكون ، كما يجب ان يكون ، تفكيراً واعياً نافذاً فاعلاً .

•

بلغنا من محاولتنا وصف التفكير التأريخي وتبين خصائصه الى نهايتها ، فوجدناه ينفذ من خلال الاحداث الماضية الى مضمونها الانساني ، ويرى ما في هذا المضمون من غنى وتعقد وترابط صلات ، وما يجيش به من حركة ، وما يتصف به من صيرورة ، ثم يسعى الى الوقوف على اسرار هذه الصيرورة ، من حيث اتجاهها ومصيرها والعوامل الدافعة لها ومدى ما تتضمنه من تراكم وتقدم ومن وحدة وتكامل . ولا نريد ان نختم هذا الفصل دون ان تشير الى شرط آخر من شروط هذا التفكير . وهو ان يظل **واعياً لتاريخيته** : اي لكونه ، هو ذاته ، وجهاً من وجوه الحياة القائمة في عصره ، فلا بد من ان يتأثر بنوع النظم والعلاقات السائدة ، وبالعوامل المتفاعلة في تكوينها ، وبالمشكلات التي يجابهها الفرد والمجتمع والانسانية بكاملها في ذلك الدور بالذات . فان من التجريد المخل ان نخرج اي تفكير من المحيط الذي ظهر فيه والاحوال التي اكتنفته وان ننسى انه ، الى حد ، وليد هذه الاحوال ونتيجة للعوامل الفاعلة فيها . نقول : الى حد ، لاننا ، مع اقرارنا بالتبدل والتغير ، لا نسهو عما في الحياة من مشكلات دائمة ، وما في طبيعة الانسان من عناصر باقية ، ولا نؤمن بالنسبية التأريخية المطلقة . ونحن اذا راجعنا نتائج هذا التفكير التأريخي خلال العصور ، وجدنا انها ، على تباينها وتأثرها باحوال المجتمعات وانواع الحضارات التي صدرت عنها ، تعالج مشكلات اساسية واحدة ، تتساءل عن الانسان ومنشأه وتطوره ومصيره : هل هذا كله من فعل

قوة علوية مدبرة او قدر مجهول، ام للانسان نصيب فيه؟ هل هذا المصير الى تقدم مستمر أم الى زوال محتم ، ام يدور دورات متتالية متشابهة ؟ هل للحياة قوانين معينة، وأي اثر للانسان في السيطرة على هذه القوانين او الخروج عنها ؟ ما معنى التاريخ ، وما الذي يلقننا اياه من دروس؟ ما معنى الحاضر بالنسبة الى ما مضى ، والى ما سيأتي؟ هذه الأسئلة وأمثالها يتصدى لها التفكير التأريخي عند جميع الامم والشعوب ، فيختلف اهتمامه بها وتتنوع اجوبته عنها ، ولكنه لا يستطيع ان يتخلص منها او يعرض عنها . انه ابداً متأثر بها، حتى عندما ينكرها . ولذا لا بد من ان ننظر الى الشكل الذي يتخذه في دور معين، ولا بد من ان ينظر هو الى نفسه، نظرة مزدوجة : من خلال المشكلات الباقية الدائمة، ومن خلال المظهر الذي تبدو فيه هذه المشكلات ونوع الاهتمام بهـــا في ذلك الدور المعين بالذات . وبكلمة اخرى : ان التفكير التأريخي هو كالحياة الجائشة ذاتها التي يحاول ادراكها : ثابت متغير ، او على الاقل لا يمكننا ان نستوعبه او نحكم عليه الا من الناحيتين معاً .

●

نرى مما تقدم ان التفكير التأريخي يؤدي حتماً الى تعليل الاحداث والى الحكم فيها ، او هو يتضمن في آخر مراحله الحكم والتعليل. ونظراً لأهمية هذين العملين الفكريين ، وللمشكلات التي يثيرانها ، فقد رأينا ان نعالجهما على حدة ونفرد لهما الفصل التالي من هذا البحث .

التعليل والحكم



ليس غرضنا في هذا الفصل ان ندلي بتعليل شامل للتاريخ، او بنظرية معينة في نشوء الحياة الماضية وتطورها ومصيرها . فلسنا ندعي اننا سبرنا اغوار الماضي ووقفنا على اسراره بحيث نستطيع ان نستوعبه كله بفلسفة شاملة او نظرية كاملة . ولئن كان لنا رأينا في النظريات والفلسفات المختلفة التي تتصدى لذلك ، فليس هنا مجال عرض هذه النظريات ونقدها ، بل نترك هذا لمؤلف خاص نرجو ان نقوم به على حدة . وتبقى غايتنا هنا ادنى من هذا وأقرب : هي اثارة مشكلة التعليل التأريخي بالذات ، والنظر في دوافع هذا التعليل وأغراضه، وفي الشروط التي يجب ان يحققها ليسلم من الخطأ والزلل والانحراف .

ما هو التعليل التأريخي ؟ انه محاولة استكشاف علة الاحداث الماضية او عللها . انه الاجابة عن السؤال : لماذا ؟ لماذا وقعت حادثة ما، او لماذا اتخذت شكلها المعين ؟ وبالمعنى الواسع الذي يقصد اليه بـ « تعليل التاريخ » : لماذا حدث التاريخ كما حدث ، واتخذ الشكل الذي يتراءى لنا به ؟

ان الناظر في الحياة الانسانية الماضية يلاحظ ان الانسان ما فتئ منذ ان اصبح انساناً يحاول محاولات شتى للنفاذ الى ماضيه وتفهم القوى العاملة

في تكوينه . لقد اكدنا مراراً « تاريخية » الانسان: اي احساسه بالماضي وتعلقه به ، ذلك الاحساس الذي يؤلف عنصراً اساسياً من عناصر كيانه الذي يميزه عن سائر المخلوقات . ولا تقتصر هذه «التاريخية» على توق الانسان ، في كل حال وزمان، الى تذكر حوادث الماضي وحفظها وترديدها، بل تتعدى ذلك الى التساؤل عن القوى التي تحرك ذلك الماضي ، وعن المصير الذي يسير اليه ، والقدر المخبأ له . نرى هذا التساؤل في دعوات الانبياء والمصلحين ، وفي تطلعات الشعراء والفنانين ، وفي استقراءات العلماء والفلاسفة ، بل في خلجات نفس كل حي وتأملات فكره عندما يعود الى نفسه ويحاول استجلاء معنى الحياة وسر الوجود .

ومن هنا كانت الاعتقادات الشعبية والنفثات الشعرية والنظم الدينية والنظريات الفلسفية والعلمية التي انتجها هذا الشوق الى تفسير الماضي وتعليله . ولكل منها مذهبها في القوة او القوى التي تسير التاريخ : ففي فجر الانسانية توجهت النفس الى الآلهة او الارواح وراء مظاهر الطبيعة، ثم جاء الانبياء فبشروا بالله الواحد ، خالق الانسان ومبدعه ، وحافظه والمهيمن على حياته ومصيره . وفي العصر الحديث قوي الايمان بالعلم وبالاختبار واخذ الناس يتطلعون الى العوامل الطبيعية والاجتماعية المؤثرة في الحياة الانسانية : فمنهم من اهتم بفعل المحيط الطبيعي والخصائص الجغرافية ، ومنهم من مال الى اثر العقل في مجابهة الطبيعة وفي الكشف عن المجهول، ومنهم من تعلق بالمادة المتحركة المتطورة وبالعلاقات الاقتصادية، ومنهم من جعل محور التاريخ ودافعه الابطال البارزين والقادة المبدعين ، ومنهم من تنبه الى عوامل اخرى غير التي ذكرنا وركز اهتمامه بها وعلل التاريخ على ضوئها .

ومن هذه النظريات القديمة والحديثة ما يستند الى عامل واحد مسير، ومنها ما يرى عدة عوامل متفاعلة وموجهة حسب قوانين معينة . كذلك تختلف هذه النظريات والتعليلات في تصوير الغاية التي يندفع التاريخ

اليها . فمن مؤمن بالحياة الاخرى ، ومن مبشر بالتقدم الدائم غير المتناهي ، ومن منذر بالزوال المحتم ، ومن قائل بتعاقب الحضارات وتتابع المدنيات في اشكال مماثلة ، وهكذا . وتتفاوت هذه التعليلات ايضاً في درجة « التحتيم » الذي تفرضه ، وفي مدى ما تترك لفعل الانسان ذاته واختياره وسيطرته على حياته وتوجيهه لمصيره .

وما هذا كله ، على اختلافه وتفرعه وتناقضه احياناً ، إلا دليلاً على ميزة اصيلة في الانسان ، بدت فيه منذ ان اصبح انساناً وستظل مصاحبة له وفاعلة فيه ما دام على وجه هذه البسيطة : وهي نزوعه الى الاستطلاع والنفاذ من ظواهر الاحداث الى بواطنها واستجلاء «المعاني» و «العبر» ، وقلقه الذي يدفع به الى البحث عن الحقيقة والى التساؤل عن المصير . وهذا اول ما نريد اثباته في هذا الفصل : وهو ان تعليل التاريخ امر طبيعي للانسان ، مرتبط بانسانيته ، منبثق عنها ، وليس بمكنته ان يتعرى عنه او يلقيه جانباً .

•

نريد ان نثبت هذا الواقع لأن فريقاً من المؤرخين الذين ضاقوا ذرعاً بالتعليلات القائمة على الخيال او غير المستندة الى الاختبار او الى التحقيق العلمي المنضبط ، والذين انصبوا انصباباً تاماً على « الصناعة التاريخية » ـ ان هؤلاء اعتادوا ان ينظروا الى التعليل التاريخي شزراً وأن يشتبهوا به ويعرضوا عنه . ان التاريخ في نظرهم لا يتعدى اثبات الحقائق الماضية وربطها وتسجيلها . اما تعليل هذه الحقائق ، او استخراج العامل او العوامل الفاعلة فيها ، او استنباط القوانين التي تسيرها ، فهذا امر غير ممكن ، وان يكن ممكناً فهو ، على كل حال ، ليس من وظيفة المؤرخ . قد يكون من وظيفة رجل الدين او الفيلسوف او العالم الاجتماعي : ولكنه شيء ، والتاريخ شيء آخر .

ونحن لا نقر هذا الموقف ولا نؤمن بصحته لسببين رئيسيين : اولهما

ما ذكرنا سالفاً من ان الانسان ما دام حياً، فلا بد له من ان يفكر ويتأمل، ولا بد له، من ضمن تفكيره وتأمله، من ان يتساءل عن ماضيه وعن سير الحياة في مراحلها السابقة والمقبلة . فمن غير الممكن او الطبيعي ان نحاول ما يريده منا البعض فنتجرد كل التجرد من هذا التفكير، او من اية نظرة لنا في الحياة وللوجود، عندما نتصدى لدراسة الماضي. والتجرد، بهذا المعنى، امر مستحيل، ولا يصح ان يطلب من اي انسان مفكر، اذ من العبث ان نوقف آلة العقل، أو ان نطمس آثارها ونمنعها من الظهور ونعتبرها كأنها لم تكن . ان كلاً منا له «فلسفته» في الحياة و «تعليله» للماضي، سواء أكان يعي هذه الحقيقة أم لا يعيها، وسواء أكان تعليله وفلسفته منتظمين واضحين، ام كانا، كما هما في اغلب الاحوال، خفيين منبثين في طيات تفكيره وفي اتجاهاته العامة . واذا عاد احدنا في هذه الاحوال الى نفسه وحاول امتحان تفكيره واستخراج متضمناته والنفاذ الى اصوله، تبين له ما كان خافياً عليه وبدا له بوضوح الموقف الذي يتخذه من الماضي والزاوية التي ينظر منها اليه . واذا كان الأمر كذلك — اذا كان لا بد من ان يكون لكل منا مبادئه واعتقاداته الاساسية — فخير له ان يمتحن هذه الاعتقادات بمحك النقد والاختبار، وان يحرص على صحتها وانتظامها ووضوحها، بدلاً من ان تظل غامضة او مخطئة، وان تتحكم في نظرته الى الماضي دون ان يكون واعياً لهذا التحكم أو شاعراً بضرورة نقده وتصحيحه .

اما السبب الثاني الذي يفرض تعليل التاريخ فهو الحاجة التي نشعر بها الى اختيار بعض الحوادث الماضية دون بعض او ايلائها قسطاً من العناية والاهتمام اعظم مما نولي سواها . فحوادث التاريخ غزيرة متدفقة متشعبة، وليس بمكنة احد ان يحيط بها كلها . ومهما يحاول المرء ان يحدد مجال دراسته او يضيق الناحية التي ينظر اليها، فان الحقائق التي تنكشف له، او يمكن ان تكشف له، هي اكثر مما يستطيع استيعابه وأغزر وأوسع

نطاقاً . حتى انه لو اقتصر على احداث سنة من السنوات في تاريخ شعب من الشعوب ، او على مدة محدودة من سيرة انسان ، يظل هـذا القدر الضيق المحدود يشمل احداثاً وافرة ليست كلها جديرة بالحفظ والتسجيل. وتتضح هذه الحقيقة ذاتها لأي منا عندما يستعرض حياته بكاملها او فترة محدودة منها ، فانه يقف عند بعض حوادثها المتتابعة دون البعض الآخر ويهتم ببعض حلقات السلسلة دون سواها .

وهنا يعرض السؤال : كيف يحدث هذا الاختيار ولماذا ؟ ثم لماذا نهتم بدراسة سيرة ذلك الشخص بالذات ، او ذلك الشعب من الشعوب ، او تلك الفترة من فترات التاريخ او تلك الناحية من الحياة الماضية ؟ قد يكون اختيارنا قد جاء عرضاً : لوقوفنا على مصدر جديد لم يعرف من قبل ، او لقربنا مكاناً او زماناً من موضوع اختيارنا ، او لأن احداً من الناس وجهنا اليه. او قد نكون انجذبنا الى الموضوع بدافع اللذة والاستمتاع ، فأقبلنا عليه ، ثم اخذنا نختار من اجزائه ومن الأحداث التي ينطوي عليها ما فيه متعة وطرافة . ولكننا اذا تعمقنا في تساؤلنا ، وجدنا اننا ، لا شك ، نعتبر بعض الاحداث اشد اهمية من غيرها ، وأحرى بالحفظ والتسجيل. وقد يكون اعتبارنا هذا واعياً واضحاً ، وقد يكون غامضاً خفياً ، ولكنه هناك على كل حال يدفعنا الى نوع من الاختيار.

وبمجرد ما نعتبر ان بعض الحوادث اشد اهمية من غيرها ، فقد ولجنا باب التعليل وبدأنا نجول في ميدانه . اذ ما معنى «الأهمية» هنا ؟ أليس معناها مقدار ما للحوادث من فعل وأثر في سواها ؟ أليست الحوادث الهامة في نظرنا هي تلك التي فرضت نفسها والتي امتد اثرها واتسع ؟ وعلى هذا ، ألا ينطوي هذا الاختيار وهذا التمييز في الاهتمام على نوع من التعليل: اي على تصور ، واعٍ او غير واعٍ ، لمجرى التاريخ وللشكل الذي اتخذه وللعوامل التي دفعته ولقيمة هذه العوامل ؟

ولقد يقول قائل ان اشد الحوادث اهمية ليست بالضرورة ابعدها

اثراً ، بل هي اصدق الحوادث تمثيلاً لعصرها او للحضارة التي قامت فيها او للمرحلة التي تخصها من تاريخ الانسانية. على ان هذا القول يقودنا ايضاً في نهايته الى النتيجة ذاتها. لماذا جاءت اصدق تمثيلاً ؟ ما هي صورة ذلك العصر ، او تلك الحضارة او المرحلة ، ولماذا اتخذت هذه الصورة او تلك دون سواها ؟ ما هي العوامل التي فعلت فعلها في الحياة عامة حينذاك، والتي برزت بشكل خاص في تلك الحوادث « الهامة » فجعلتها عنوان تلك الحياة وتعبيراً صادقاً عنها . هنا ايضاً لا بد من التعليل ، ولا مفر من استقراء شكل الماضي او اشكاله ، والعوامل التي كونته كما كان، او كما نتصور انه كان .

•

ليس الخطأ اذن في محاولة عمل لا بد منه ولا مفر. وانما يحصل الخطأ في الغاية المستهدفة والاسلوب المتبع . اننا نخطىء عندما «نفرض» تعليلاً معيناً على التاريخ فرضاً ، ونفسر الحوادث لتدخل في نطاقه وتنصب في قالبه . وهذا ما حدث فعلاً في اكثر التعليلات التي حاولت « فلسفة » التاريخ . اننا نجد اصحابها قد تعلقوا بها وتمسكوا بمنطوقها ، وضربوا صفحاً عما يخالفها ، فجاء فهمهم للماضي مبتوراً او مختلاً او مناقضاً لطبيعة الحياة .

ويحدث هذا الفرض لسبب من سببين . قد يكون لغرض في النفس: لبث دعاوة او بلوغ غاية عملية، فيأتي التعليل التأريخي من ضمن «المبررات النظرية» لدعوة من الدعوات او حركة من الحركات . هنا ينبث الانحياز وعدم التجرد ، فيصبح التعليل التأريخي والتأريخ ذاته واسطة لغاية اخرى غير غايتهما الاصلية التي يجب ألا ينحرفا عنها ، وهي الادراك المتجرد الصحيح . فكل صاحب سلطة ، وكل منظمة او هيئة او طبقة — كل فرد او جماعة — يستخدم التعليل التأريخي في سبيل هدف خاص ويفرضه على الماضي فرضاً ، يخرج به عن غايته ويخل بوظيفته ، وينافي التجرد

الذي هو شرطه الأساسي .

ويأتي هذا الفرض من ناحية ثانية نتيجة لاقتناع خالص، ولكنه اقتناع مستمد من خارج التاريخ ، غير خاضع خضوعاً كافياً للنقد والامتحان بمحك الحوادث التاريخية ذاتها . فمن هؤلاء المعللين من يستمد نظرته التاريخية من اعتقاداته الدينية ، اذ اللاهوت او الكلام هو عنده اضمن الطرق واسماها الى المعرفة والى الحقيقة ، فما ينكشف فيه يجب ان يصدق على التاريخ ، ولا يمكن ان يكون التاريخ الا تعبيراً عن الحقائق الأساسية التي اظهرها الوحي او التقاليد او التأمل . ومنهم من يصدر في تعاليله التاريخي عن عقيدة فلسفية توصل اليها بالنظر العقلي : فهو مادي ، او مثالي ، او واقعي ، او ما الى ذلك من المذاهب الفلسفية ، وتصويره للماضي ناتج حتماً عن مضمون مذهبه واتجاهه . ومنهم من تتكون معتقداته الاساسية من العلم الاختباري . وهؤلاء ايضاً فرق متعددة حسب ما يؤدي اليه علمهم من مفاهيم لطبيعة الكون ، ولجوهر الانسان وتأثره بمحيطه وتأثيره فيه . فبعضهم مثلاً يجعلون الانسان ، وبالتالي التاريخ ، وليد المؤثرات الجغرافية وحدها ، وبعضهم يعتبرونهما نتيجة لقوى الانتاج المادي وللعلاقات الاقتصادية ، وآخرون يرون ان الانسان هو في جوهره عقل وان التاريخ ليس سوى تفتح هذا العقل وتجسده في شتى المظاهر الحضارية والاجتماعية ، وهكذا .

ان هؤلاء جميعاً يختلفون في تعليلهم للتاريخ . ولا بأس في ذلك ، ولا ضرر — ما داموا مستعدين لان يحكوا تعليلاتهم المختلفة بمحك الاختبار ، ويمتحنوها بواقع الحوادث كما تكشفه تدريجاً دراسة الماضي . ولكن الخطأ كل الخطأ هو في تجاهل هذا الواقع ، والانقياد الاعمى لتعليل معين ، او في المحاولة ، الواعية او غير الواعية ، لتطبيق الواقع على التعليل ، او سكبه في قالبه . وهذا ما حدث ويحدث لاكثر التعليلات التاريخية ، وما يدفع الكثير من المؤرخين اليوم لان يشكوا بها ، ويتنكبوا عنها ، ويقصروا

تحملهم على تسجيل الماضي فحسب ، دون اية محاولة تعليلية او جدل تعليلي . وهكذا تكونت هوة واسعة عميقة بين فريقين من الباحثين في الماضي : فريق يقدم على النظرات الشاملة والتعليلات الجريئة ، المستمدة اصولها في اكثر الاحوال من خارج التاريخ ، والمعرضة ، لحد قريب او بعيد ، عن مواد الماضي ووقائعه ذاتها ، وفريق آخر يغوص في جمع المصادر وتحقيقها ، واثبات الاحداث الجزئية ، والامعان في التخصص ، دون ان يرتفع فوق الحقائق المفردة والنتائج المحدودة ، ليدرك مقامها في الحياة الانسانية عموماً ، وليستكشف العوامل الفاعلة فيها ، والمعاني التي تنطوي عليها .

ولعلنا لا نخطىء اذا قلنا ان النزعة الثانية هي التي غلبت في الاعصر الاخيرة ، خصوصاً بعد التقدم الذي احرزته « الصناعة التاريخية » في القرن الماضي . على ان الاحداث الجسام التي تتابعت على البشرية في الخمسين السنة الاخيرة ، والعواصف التي اجتاحت العالم وهزته هزاً عنيفاً ، والقلق والاضطراب والفوضى التي تسوده في الوقت الحاضر — كل هذا اخذ يهيب بالمفكرين الى الشك في كفاية هذا الاسلوب العلمي في التاريخ ، كما كان يتصور ويطبق ، والى الاحساس بضرورة فهم المجرى العام الذي جرى فيه الماضي ، والقوى الفاعلة فيه ، و « المعاني » التي ينطوي عليها . ومن هنا كان الاهتمام الجديد بتعليل التاريخ : هذا الاهتمام الذي لا يقتصر على المؤرخين وحدهم ، بل يتعداهم الى دوائر الفلسفة والادب والعلم واللاهوت . من هنا كانت اهتمامات توينبي ، وبرديايف ، وهيدجر ، وسارتر ، وسوروكين ، وماريتان ، وكسيرر ، وبترفيلد ، وكثيرين سواهم . ومن هنا كانت الحظوة التي تلقاها مباحثهم ومباحث اتباعهم وشراحهم عند الخاصة من المفكرين ، بل عند عامة المثقفين في هذا الجيل القلق الحائر الذي يفتش عما يدله على معنى الحياة ويبعث ايمانه بها ويضمن له بعض الثقة والاطمئنان .

هذا في العالم الغربي . اما في العالم الشيوعي ، فمن المعروف ان الحياة كلها قائمة هنالك على فلسفة معينة ، وان من اهم اركان هذه الفلسفة تعليلاً معيناً للتاريخ يطغى على مسالك الفكر والعمل جميعاً . اما العالم الآسيوي الافريقي غير المنحاز ، الناهض بسرعة متزايدة ، فهو بين التعلق بالماضي والجد في بعثه وصوغ الحياة الجديدة على مثاله وبين الثورة عليه وعلى الحاضر الذي نتج عنه والسعي الى تبديل « جذري » يتخطاهما ويعلو عليهما . وفي كل حال ، ان الاحداث الضخمة التي يتعرض لها هذا العالم ، والهزات التي تعتريه ، قد ايقظت حسه التاريخي وامعنت في تحريكه ونشره . وهكذا نرى التعليل التاريخي اليوم عنصراً بارزاً من عناصر الفكر والحياة في العالم اجمع .

•

يتبين مما ذكرنا ان الخطأ الذي تعرض له اكثر الذين عللوا التاريخ قد اندس من جهة من جهتين او منهما معاً . فهو يأتي اما عن استمداد التعليل من خارج التاريخ ذاته (من الدين ، او الفلسفة ، او العلوم التجريبية) ، او عن محاولة « فرض » هذا التعليل على احداث الماضي فرضاً قسرياً والاغضاء عما يخالفه او يناقضه منها ، والخطأ الثاني اجسم واشد خطورة. ذلك انه لا بد ، في التعليل ، من الخروج من التاريخ والارتفاع فوقه . لا بد من التأمل الفلسفي ومن الاستفادة مما انتجه النظر العقلي وما حاول استكناهه من اسرار الحياة . لا بد من تتبع العلم التجريبي في خطاه الجريئة في دراسة مظاهر الكون وفي استكشاف علاقة الانسان بالطبيعة وعلاقته بالمجتمع وعلاقات المجتمعات بعضها ببعض . لا بد من الاهتداء بكل نور شع من تطلع الانسان الى الحقيقة ومن اصطراع الخير والشر في نفسه : سواء اكان ذلك ايماناً دينياً ، ام اختباراً روحياً ، ام استشرافاً ادبياً وفنياً . لا غنى للمؤرخ عن هذه وسواها من الاستطلاعات والاختبارات اذا اراد ان يضمن السلامة من الزلل ، وان يكون تعليله صحيحاً ناضجاً

مثمراً . بل نكرر ما قلنا سابقاً من ان كل من يقبل على الماضي بشيء من التفكير ، فهو مقبل حتماً بنظرة الى الحياة وبنوع من التعاليل . قد تكون هذه النظرة وهذا التعاليل مصيبين او مخطئين ، واضحين او غامضين ، وقد يكون صاحبها واعياً اياهما او غير واع . ولكنهما هناك على كل حال تفعلان فعلهما فيه وتصبغان فكره التأريخي . فمن الخير اذن اخراجهما من الظلمة الى النور ، ومن الخفاء الى الوضوح ، وامتحانهما بكل ما اثبته وحققه التقليد العقلي والتجريب العلمي والاختبار النفسي ، واخضاعهما دوماً للنقد والتصفية والتجديد .

وبصفة خاصة لا غنى للتعاليل التأريخي — وكل تأريخ صحيح ينطوي على تفكير ، وبالتالي على تعليل — لا غنى له عن نظرية معينة في الانسان : الانسان الذي هو لب التاريخ وموضوع التأريخ . ما هو هذا الكائن العجيب الذي ملأ الدنيا وشغل الكون ؟ أهو مادة تتحرك وتتطور ؟ أهو عقل يتفتح وينتظم ، ويخطط وينظم ؟ أهو مخلوق الله وعبده او ابنه ؟ أهو ملاك ام شيطان ام مزيج منهما ؟ أهو وليد عوامل طبيعية وصورة يحتمها المحيط الجغرافي ؟ أهو نتاج العلاقات الاقتصادية او الاجتماعية السائدة ؟ ام هو مركب من بعض هذه العناصر او منها كلها ، ام هو غير هذا وذاك وذلك ؟

ثم ، هل طبيعته راكدة ام متحركة ، ثابتة ام متطورة ؟ أهو مطلق او فيه شيء مطلق ، ام هو نسبي كله وتابع لظروف المكان والزمان ودرجة التطور ؟ هل هو فاعل ام منفعل ، والى اي حد في كل من الحالين ؟ هل هو صانع التاريخ ، ام مظهر له فحسب ؟ هل هو بسيط ام معقد ؟ هل ينطوي على عناصر التقدم والرقي المستمرين ، ام هو في نزاع دائم بين الخير والشر ، وبالتالي في اضطراب بين التقدم والتأخر والخلاص والهلاك ؟ هل هو مخير ام مسير ، وما هي مباعث الاختيار وعوامل التسيير فيه ، أداخلية كانت ام خارجية ؟

هذه وامثالها من الاسئلة تثار عندما نحاول سبر غور الانسان وتكوين نظرية فيه . ولا محيد لنا عن ذلك ، كما قلنا ، اذا اردنا فهم التاريخ ، ما دام يدور اصلاً حول الانسان . ومن البديهي اننا نستمد بعض وجوه نظريتنا من التأريخ ذاته : من ملاحظاتنا لتصرف الانسان — فرداً ومجموعاً — وتغيره وانتاجه خلال العصور المختلفة . ولكن هل هذا كاف ؟ لو كان كافياً لاصبح التأريخ العلم الوحيد ، او بالاحرى العلم الانساني الوحيد . وهذا ما يقول به الفيلسوف الايطالي بنديتو كروتشي عندما يؤكد بشدة واستمرار ان كل فلسفة هي تأريخ وكل تأريخ فلسفة ، وان لا معنى لاحدهما الا بالآخر . ولكن الواقع ان لكل علم مقصده ، وان جميع العلوم — ومعها الفلسفة والآداب والفنون — تتضافر في توضيح طبيعة الانسان وابراز مكامنها وتفتيح مغالقها . حتى العلوم الطبيعية الباحثة في اسرار الكون المحللة مظاهرها ، لها نصيبها في هذا الاستكشاف والاستفهام ، ويجب الا تهمل في اية محاولة لادراك الانسان وفهم التاريخ .

وعلى هذا ، فلا بد من نظرية في الانسان . ومن الخير ان نستمد هذه النظرية من اصولها جميعاً ، وان تحك بكل محك ممكن . وان تمتحن بكل حقيقة يكشف عنها العقل او يؤيدها الاختبار . ومن الخير لنا عندما نتصدى لدراسة الماضي ان نعي كل الوعي النظرية التي كوّناها ، والتعليل الذي نفسر به طبيعة الانسان . ولكن حذار ان نفرض هذه النظرية على التاريخ فرضاً . ليكن موقفنا منها موقف « افتراض » لا « فرض » . ان الفرق بين الموقفين واضح ، والنتائج الحاصلة منهما تختلف اختلافاً جسيماً ونحن ندعو الى موقف الافتراض ، اي ان نؤمن بالنظرية التي توصلنا اليها ببحثنا وتفكيرنا وتأملنا ، وان نمتحنها ، في الوقت ذاته ، بالوقائع التاريخية لنرى اذا كانت هذه الوقائع تؤيدها او تدعو الى تعديلها او نقضها ، ولا نتردد عن التعديل او النقض اذا اقتضت الحاجة . ونظل نسير في هذا الطريق : نظرتنا واعتقاداتنا الاساسية توضح لنا « معنى » الاحداث الماضية ،

وهذه الاحداث ذاتها ، التي نحاول اثباتها بادق اسلوب علمي ، تختبر بدورها تلك الاعتقادات وتضبطها . وهكذا يظل العمل التأريخي في تفتح نير ، وفي تصحيح وتوضيح متبادل بين الكلي والجزئي ، وبين النظرية العامة والحقائق التفصيلية . وهكذا ايضاً يربط التعليل التأريخي التأريخ بسواه من العلوم ، بل بجميع الاختبارات الانسانية ، برباط الامتحان المتبادل والتفاعل المثمر والفهم المشترك المتدرج .

في بدء التأريخ اذن افتراض : افتراض في تعليل الكون وما وراء الكون والحياة ودوافعها ومجاريها ، وبصفة خاصة افتراض في طبيعة الانسان . والمهم في هذا الافتراض ان لا يأتي عفواً او بخفة ويسر . فهو ، اذا فهم على حقيقته ، اخطر ما يقبل عليه المرء . انه خلاصة ايمانه ، ومعقد رجائه ، ومصدر القرارات الفكرية والعملية التي يتخذها . انه اصدق تعبير عن شخصيته ، اذ فيه يتمثل مقدار احساسه بالمسؤولية ، ومدى الجهد الذي بذله لتبين الحق وقدرته على هذا التبين . منه يظهر نوع الاسئلة التي تثيرها الحياة في ذهنه ، وموقفه ازاءها وقراراته بصددها . فالخير كل الخير في ان يتخذ له المرء كل عدة ممكنة ، من حيث التجهز الفكري والاطلاع العلمي والاختبار النفسي ، وان يكون استعداده هذا مفعماً بالشعور بالمسؤولية الدقيقة والتبعة الخطيرة ، والنقد الذاتي الملح الصارم .

هذا في البداية ، ولكن ما قولنا في النهاية ؟ اين نهاية الطريق وختام المطاف ؟ نقول : انّا لا نعرف لهذا الطريق نهاية ولا لهذا المطاف ختاماً . بل ان التاريخ ليدلنا على ان اي فرد او اي فريق من الناس اعتقد انه بلغ الحقيقة النهائية وقبض على ناصيتها ، فقد بدأ يسير ، بتأثير هذا الاعتقاد ، في طريق التحجر والتقلص ، ويضعف او يعجز عن الانتاج والتقدم . ان الحياة كلها مغامرة — اية مغامرة ! — ومن وقف في الطريق واعتقد انه « وصل » ، فقد اخذ في الانكفاء والانزلاق والارتداد . ولكان الانتاج ، في الفكر والعمل ، شبيه بتساق قمم متتابعة متسامية ، كل قمة

منها تشرف على افق جديد . فمن اكتفى ببلوغ احدى هذه القمم وظن انه رأى كل ما يمكن ان يرى ، فقد تجمد وتعطل وأوشك ان يصبح في مؤخرة الركب . ليس معنى هذا ان القمم لا تفصلها بين آن وآخر اودية وسهول ، وان الرقي لا يتخلله هبوط وانحطاط . وانما معناه ان العقل الانساني خليق بان ينهض بعد عثرة ، ويتحرك بعد جمود ، ويرقى بعد انحطاط ، وان اتجاهه هو الى مزيد تفتح ورفعة رقي ، وان الحقيقة **تتكشف** تدريجاً وبشكل متزايد كلما ازداد هذا الرقي والتفتح . ولذا فان التعليل التأريخي ، وهو وجه من وجوه الجهد الذي نبذله لاستبانة حقيقة الوجود ، – ان هذا التعليل يجري ، اذا تمت له شروطه ، في طريق التكامل ، وتصحيح الاخطاء ، وتعديل الانحرافات ، متوغلاً في ادراك طبيعة الكون والانسان وفي ادراك حوادث الماضي ، ضابطاً وداعماً ومخصباً كلا من الادراكين بالآخر . ولسنا نرى الآن لهذا التكامل من نهاية يقف عندها .

وعلى هذا يمكننا القول ان تعليل التاريخ هو ، في الوقت ذاته ، مقدمة للتأريخ وخاتمة له : مقدمة ، لانه يكشف عن الافتراضات التي ينطوي عليها نظرنا الى الانسان والى الماضي ، وخاتمة لانه يظهر خلاصة مفهومنا للماضي المستمدة من الحوادث كما تكشفت لنا بالتحقيق العلمي ومن الافتراضات الممتحنة بها . وبين المقدمة والخاتمة اغتناء مستمر وبيان متزايد . ولكن كل خاتمة ، مهما **تكن** جليلة ، ليست ، في معيار التعليل الصحيح ، سوى مقدمة لجهد آخر . وهكذا دواليك : شأن التعليل في هذا شأن اي تفكير حي واي عمل مثمر .

•

قلنا هذا هو شأن التعليل اذا تمت شروطه . وهذه الشروط عديدة : منها صحة النظر ، والاستعداد الفكري ، والجهد الناشط المبذول ، والاحساس الدقيق بالمسؤولية ، وغير ذلك من الشروط الاصلية المطلوبة في اي تفكير صحيح . ولكن ثمة شرط خارجي لا بد من توجيه النظر اليه لخطورته

في هذا الشأن بل في كل شأن من شؤون الحياة . وهو انطلاق الحرية الفكرية . فما دامت التعليلات في بدئها افتراضات ، وما دامت الافتراضات لا تؤيد او تعدل او تنقض إلا باخضاعها لحكم الواقع ، وبامتحانها بعضها ببعض ، فمن الضروري ان ينفسح المجال لهذا الامتحان المتبادل ولهذا التفاعل المثمر على اوسع نطاق ممكن . بهذا الجو من الحرية السمحة ، المقرونة طبعاً بأدق احساس بالتبعة ، تتنافس التعليلات في اظهار نصيبها من الحقيقة ، فيكون للفكر وللتأريخ من هذا التنافس اجل ربح واجزل فائدة . وهكذا يصدق على التعليل التأريخي ما يصدق على اي تفكير اصيل من انه لا ينمو ولا ينتعش الا في جو عابق بالحرية .

ونحن اذا استعرضنا التعليلات التأريخية وجدنا ان تلك التي تصلبت في اعتقادها انها قبضت على الحقيقة كاملة هي التي قُرنت بحركات اجتماعية ونظم سياسية قيدت حرية الفكر وضيقت نطاقها . ومن جهة ثانية نرى ان الحركات التقدمية الصحيحة هي التي آمنت بالحرية الفكرية وبان التاريخ يكشف ذاته لنور العقل بقدر ما لهذا النور من قوة ، فآثرت ان تطلق مجال هذه الحرية واسعاً ، كي يحتك العقل بالعقل ، ويقوى النور بهذا الاحتكاك . ولذا ، فحيثما وجدت تعليلاً تأريخياً ينتج عنه تقييد للحرية الفكرية ، امكنك ان تحكم عليه بانه ناقص او فاسد ، او بأنه ، على الاقل ، قد فقد قابلية النمو والاعتدال ، وسار في طريق التطرف والتمادي .

ولعلنا ، اذا اطلقنا مجال الحرية وسمحنا لهذه النظريات والتعليلات بان تمتحن بعضها بعضاً وان تتنافس وتتفاعل ، نستطيع ان نرى في اكثرها قسطاً من الحقيقة ، وان اختلفت هذه الاقساط وزناً وقيمة . ولعل التأريخ يدلنا على انه ليس ثمة عامل واحد او عوامل محتمة تفعل فعلها النافذ المحتم ذاته في كل ظرف وزمان ومكان ، وانما هناك عوامل مختلفة في طبيعة الانسان وفي طبيعة العالم الذي يحيط به ، وان بعض هذه العوامل هي في وقت ما اشد فعلاً من سواها ، وان نفاذها واثرها يختلفان باختلاف الاحوال .

ولعلنا لا نستطيع اكثر من ان نعين العوامل الفاعلة ومدى فعلها في فترة محدودة من الزمن ، وفي حال معينة . اما ان نقرر هذه العوامل ونعين مدى اثرها في خلال التاريخ بكامله ، فأمر اوسع واعمق من ان تحيط به او تنفذ اليه معرفتنا في الوقت الحاضر وقد لا تقدر عليه معرفتنا المقبلة. فليس ما يدل على ان العقل الانساني قادر على حل اسرار الكون والحياة الانسانية كلها ، وعلى تفتيح جميع مغالقها . فحري به ، وقد قام بفتوحاته الباهرة وانتاجه الضخم الذي يعظم يوماً بعد يوم ، حري به ان يقدر ايضاً حدوده ، وان يقف متواضعاً متسائلاً مدهوشاً امام بعض مكنونات الحياة واسرار الوجود . وقد يكون في هذا الموقف المتواضع من الادراك ما يفوق الاحكام الجازمة التي تدعي انها وقفت على الحقيقة كاملة ، او انها تستطيع تعليل التاريخ من ألفه الى يائه .

من اجل هذا نؤثر ان نعتبر التعليلات المختلفة نقاط انطلاق نحكها بمحك الحوادث التاريخية ، فنرى ما ترشدنا اليه من معانٍ في الناحية التي نعنى بها من التاريخ ، ونحاول تقدير مدى انطباقها على هذه الحوادث او ابتعادها عنها ، ومدى ما تتضمنه من صواب او خطأ ومن غلو او اعتدال ، وذلك في سبيل فهم تلك الناحية التاريخية ذاتها ، وفي سبيل ادراك اوسع واعمق لطبيعة الانسان ولمجرى الحياة . وقد يعتقد البعض ان في هذا الموقف تهرباً من الحقيقة وعجزاً عن ادراكها ، ولكننا نرى انه اقرب اليها واشد اتصالاً بطبيعة العلم وروحه من اتخاذ تعليل جازم شامل ، خصوصاً اذا كان هذا التعليل يدور حول عامل واحد من عوامل الحياة ويفرض فرضاً مسبقاً على حوادث التاريخ . ان الحياة ، في نظرنا ، لأعقد وادق من ان تدرك اسرارها وتفتح مغالقها بمثل هذه السهولة .

•

هذا بشأن التعليل . فلننتقل منه الى الناحية الاخيرة التي سنعالجها من التفكير التاريخي ومن عمل المؤرخ بوجه عـام . وهي ناحية الحكم على

الماضي ورجاله واحداثه . أيجوز لنا عند النظر في الماضي ان نصدر احكاماً فيه : ان نقول مثلاً ان هذا او ذاك من رجال التاريخ ، او ذلك الفريق او الجماعة او الشعب قد اخطأ او أصاب ، وأساء او احسن ، واضر او افاد ، وكان عامل تأخر وانحطاط او مصدر تقدم ورقي ؟ أيكون من وظيفتنا ان نحكم على ارسطو لانه برر الرق واعتبره حالة طبيعية للانسان ، او ان نحمل على ابناء القرون الوسطى لما اظهروه من تعصب ديني وللاضطهادات والمذابح والحروب التي دفعهم هذا التعصب اليها ، او ان ننقد الاجيال السالفة من العرب في القرون الاخيرة لانهم استكانوا للظلم وخضعوا للتحكم وقعدوا عن النهوض ؟ ومن ناحية ثانية : أيجوز لنا ان نهتف للخير عندما نراه ، وان نثني على الافراد او الفئات او الامم عندما تحسن او تفيد او تدفع بنفسها او بالانسانية الى الامام ؟ أيتسع التفكير التاريخي للمدح والذم ، والثناء والقدح ، والاقرار والانكار ، والنقد والحكم ؟

من المؤرخين من ينكر هذا ويدعو الى تنكبه . فالمؤرخ في نظره ليس قاضياً حاكماً ، بل مستنطقاً ومحققاً فحسب . ان غايته هي اثبات الحوادث كما جرت ، ووصف الافكار والاعمال كما وقعت ، ووضع الامور في تسلسلها التاريخي . يكفيه ان يقول ان ارسطو برر الرق ، وان الحروب الدينية اطاحت بالمئات والالوف من الناس ، وان العرب عجزوا في القرون الاخيرة عن النهوض ، وان حاكماً من الحكام انشأ المنشآت وقام بالاصلاحات ، وان عهداً من العهود قد سجل تقدماً في هذه الناحية او تلك . ولكن يجب الا يسمح لنفسه بان يتجاوز مجرد الوصف الى الحكم في الصواب والخطأ ، والحسن والسوء ، والخير والشر . هذا ، في نظر هؤلاء ، عمل آخر يخرج عن نطاق التأريخ . فاذا كان العمل سياسياً كان من مهمة العالم السياسي ان يحكم له او عليه بمقاييس علمه . واذا متّ الى الاقتصاد او الاجتماع بصلة كان نقده من وظيفة ارباب هذا العلم او ذاك . اما الاحكام الادبية ، فلنتركها للفيلسوف او رجل الدين او العالم الاخلاقي الذي يعنى بالحسن

والسوء والخير والشر ويضع لها الاقيسة والمعايير ويجعلها مثار اهتمامه ومدار عنايته . ان العمل التأريخي يقتصر على الوصف ، فهو يهيىء المادة لارباب الاختصاصات الاخرى ، ويترك لهؤلاء ان يعالجوا هذه المادة ويحكموا لها او عليها ، كل ضمن اختصاصه . وجل ما يجب ان يصبو اليه المؤرخ هو ان يحرص على صحة هذه المادة وسلامتها ، وعلى مطابقة الوصف للحقيقة كما وقعت . وكل خروج عن هذا العمل المحدود والغاية البينة يؤدي الى تداخـــل الوظائف بعضها في بعض ، وتعدي الاختصاصات بعضها على بعض ، والى اضطراب وغموض وفوضى في الاعمال العلمية جميعاً .

ومن المؤرخين من يتخذ الموقف ذاته متجنباً الحكم في التاريخ ، لسبب آخر غير هذا الذي ذكرنا . ان الحكم في التاريخ هو ، في نظر هذا الفريق ، غير ممكن ، لان الحوادث انما هي وليدة عصرها وبيئتها ولا يمكن ان تكون غير ما كانت . لم يكن ممكناً لارسطو ان يرى في الرق غير ما رآه ، لان تطور المجتمع ، او تطور العقل ، كان حينذاك في مرحلة لم تكن تسمح له بغير ذلك . ولا يصح ان نصف ابناء القرون الوسطى بالتعصب الديني ، لانه في نظرهم لم يكن تعصباً كما نراه اليوم : لم يكن رذيلة بل فضيلة . وليس لنا ان نحكم على العرب في القرون الاخيرة لانهم خنعوا واستكانوا ، فظروفهم واحوالهم لم تكن تؤهلهم لغير تلك الحال . وهكذا فان كل حدث هو نتاج القوى المتفاعلة فيه ، في حالة ومرحلة معينة ، و « الحكم » الوحيد الذي يمكننا ان نستخرجه هو اظهار مطابقة الحوادث للقوى الباعثة لها ، وللمقاييس والنظم السائدة في عصرها وبيئتها . وبكلمة اخرى : ان كل حدث ، او كل جهد انساني ، هو امر « نسبي » ، ويجب الا ينظر اليه الا « بالنسبة الى » الحال او الاحوال التي تحيط به . ولكل عصر من العصور ، او مرحلة من المراحل ، او بيئة من البيئات ، مقاييسها ومعاييرها . فتعدد الزوجات قد يكون صالحاً في حالة وغير صالح في حالة اخرى ، والديمقراطية قد تكون خيراً في

بيئة وشراً في بيئة ثانية ، والعدل هنا قد يعتبر ظلماً هناك ، وهكذا . فلنمتنع عندما ننظر الى الماضي من ان نحكم فيه الا من ضمنه ، ولنتجنب اي حكم مبني على مفاهيمنا الحاضرة .

انّا ، مع تقديرنا لما في هذين الموقفين من حذر واحتراز ، لا نستطيع ان نقرهما ، بل نرى ان الحكم في التاريخ هو من صلب التفكير التأريخي وان لا مفر منه ولا مهرب . فهل يستطيع احد منا ان يكتب التأريخ دون ان ترد في كتابته امثال النعوت التالية : العادل والظالم ، الصالح والفاسد ، المحسن والمسيء ، المحرر والمستبد ، الرفيع والذليل ، العظيم والحقير ؟؟ الواقع ان أمر الحكم شبيه بأمر التعليل . فكما ان كلاً منا لا بد من ان يكون له عندما يتصدى للنظر في الماضي نوع من التعاليل — وغالباً ما يكون هذا التعليل منبثاً في ثنايا شعوره محاطاً بالغموض والاضطراب — كذلك ان لنا مقاييس للخير والشر وللحسن والسوء نطبقها من حيث ندري او لا ندري على احداث الماضي ورجاله وجماعاته وشعوبه ، فنحكم لها او عليها . ومن الخير في هذا الشأن ، كما هو في شأن التعليل ، ان نخرج هذه المقاييس من خفاء الشعور واللاوعي الى نور العقل والوعي ، وان نتناولها بالنقد والايضاح ، ليأتي حكمنا ، الذي لا مفر لنا منه ، صحيحاً واعياً معتدلاً .

وليس صحيحاً ، كما يقول الفريق الثاني من الذين ينفون الحكم ، ان كل حدث هو وليد عصره وبيئته فحسب وان علاقته المكانية الزمانية الظرفية هذه تستنفد معناه كله ، وانه لا يمكنه ان يرتفع فوق هذه الاحوال المحتمة التي تتحكم فيه . فأرسطو كان ممثلاً لعصره وبيئته في نظرته الى الرق والعبودية ، ولكنه تخطاها بمراحل واسعة في نواحي الاستنباط العلمي والاستقراء الفلسفي . فما دامت في التاريخ امكانات لفهم جديد يتخطى حدود المعلوم ، وما دامت ثمة حرية واختيار ، على اختلاف سعتها او ضيقها ، بين مجالات العمل المتنوعة — فقد جاز النقد والحكم ،

بل وجبا .

ترى ، أكان محتماً على رومية ان تنحط وتسقط امام هجمات البرابرة ؟ او قل : أكان محتماً عليها ان تسقط عندما سقطت ؟ أفرض على العرب ان يضعفوا ويستكينوا ويرضوا بالضعف والاستكانة بين القرن السادس عشر والقرن العشرين ؟ أكان لازماً ان يظهر من ظهر من ابطال التاريخ وعظمائه في اوقاتهم وان يقوموا بما قاموا به من اعمال ؟ ولِم لم يظهر امثالهم في مناسبات مماثلة ؟ إننا نرى في التاريخ ظروفاً واحوالاً محددة مقيدة ، ولكن الحدود والقيود تختلف شدة وجسامة ، فتختلف بذلك حرية الافراد والجماعات في الخضوع لها او تخطيها ، وفي قدرتهم على هذا التخطي . كذلك يختلف الافراد والجماعات في قدرتهم الفطرية والمكتسبة وفي حريتهم الذاتية ، ولولا هذه القدرة والحرية وامكانات التخطي لما كانت عظمة ، ولا حصل تقدم ، ولظلت الحياة في ركودها وظلامها. ولولا الرضى بالقيود والحدود ، ولولا الاسترخاء والاستعلاء والاستسلام للشهوات والوقوف في وجه قوى التقدم ، لما كانت المآسي التي تفيض بها صفحات التاريخ والصراع والنزاع والآلام التي عرفتها البشرية في ادوارها المختلفة .

وحيثما تكون الحرية يصح النقد ويترتب الحكم . ولكن ما هو مقياس الحكم ؟ انه مقياس مزدوج : المقياس الزمني النسبي ، والمقياس المتراكم خلال العصور . ويتكون المقياس الاخير من خلاصة ما حققته البشرية في تطلعها الى الحق وفي نزوعها الى الخير . فلا شك عندنا ان ثمة تقليداً ايجابياً متراكماً خلال الاجيال ، وان من يشارك في هذا التقليد يستمد منه اسمى المقاييس التي عرفها الانسان . لنأخذ على ذلك مثلاً : الحرية . لا شك ان الاختبار الانساني الايجابي المتراكم قد اظهر ان الحرية على مراتب ، لعل اسماها هي الحرية التي هي في الوقت نفسه واجب ومسؤولية ، حرية التضحية من اجل الغير ، حرية الاستشهاد في سبيل المبدأ . والتقدم ، كالحرية ، على مراتب : فهناك تقدم في الحياة المادية ، وفي رفاهية العيش

ورخائه . وهناك تقدم عقلي في الوقوف على اسرار الطبيعة والانسان ، وهناك تقدم في الاختبار النفسي الذي يرقى ببعض الناس الى ان يصبحوا قديسين اطهاراً . هذه القمم التي تتراءى لنا : في الادراك ، والحرية ، والتقدم ، والقداسة (وبكلمة واحدة : في الكرامة الانسانية) تؤلف في مجموعها خلاصة الكسب الانساني وجوهره . وجلال الافراد او الفئات او الشعوب خلال التاريخ هو في مقدار اسهامها في هذا الكسب كماً وكيفية ، وبنسبة ما حققته لنفسها وللانسانية جمعاء من معاني الكرامة الانسانية .

هذا هو المقياس الاول والاثبت . على اننا لا نجهل ان هذه المعاني لم تتحقق فجأة ولم تظهر ظهوراً كاملاً في وقت معين ، وان هناك تدرجاً وتطوراً وعوامل زمنية وبيئية لها اثرها . ولا بد من اتخاذ هذه العوامل بعين الاعتبار ، ولا بد من استخدام المقياس الزمني النسبي . لا بد ، مثلاً ، من ان ندرك ان الظلم في عصر الفراعنة كان له مدلول غير المدلول الذي له اليوم ، فلا يصح ان نحكم على الفراعنة حكماً مبنياً كله على ما نراه ونتبينه في وقتنا الحاضر . ولكن من جهة مقابلة ، لا يكفي ان نحكم لهم او عليهم بمقاييس زمنهم فحسب . وانما يكون حكمنا في اي انتاج ماض اكمل واوضح واجدى اذا بني على مفاهيم العصر والبيئة المعينة من جهة ، وعلى مقدار تخطي اصحاب ذلك الانتاج هذه المفاهيم المرحلية من جهة اخرى ، واذا لم ينحصر في الامكانات المفسوحة لهم ، بل تناول مقدار توسيعهم لتلك الامكانات ، او خلقهم امكانات جديدة . وبتعبير آخر : يجب الا يحكم على ذلك الانتاج بالنسبة الى مرحلته فحسب ، بل ان ينظر اليه ايضاً بالنسبة الى قمم الادراك والحضارة كما تتجلى في التاريخ ، وبالنسبة الى اسهامه في الكسب الانساني المتراكم .

نقول احياناً عن بعض مآثر الشعوب انها مآثر خالدة . ماذا نعني بذلك ؟ نعني ان قيمتها تتعدى المكان والزمان اللذين نشأت فيهما . هناك الزمني العابر ، وهناك الاصيل الباقي ، وكل جهد في التاريخ ، فردي او جماعي ،

يجب ان ينظر اليه من الناحيتين معاً ، ويقاس بالمقياسين ، لا بواحد منهما .
وكمثال محسوس : انا عندما نلتفت الى الحياة العربية الماضية يجب علينا ان ننظر اليها بمنظار المفاهيم السائدة في عصرها ونزنها بمعيار المرحلة التي كان قد بلغها تطور المجتمع وتفتح العقل في زمنها . ولكن هذا النوع من النظر والحكم وحده لا يكفي ، لانه لا يسمح لنا بان نقارن ونقابل قيمة هذه الحياة ومآثرها بمآثر الامم والمدنيات الاخرى . واذا اقتصرنا عليه لم نستطع ان نقول انها اعظم من سواها او اقل عظمة ، او اعلى او ادنى مرتبة ، وان مآثرها اغنى واثمن في مجموعها او في ناحية من نواحيها .
لن نستطيع ذلك الا عندما نتجاوز النظر فيها بصفتها مرتبطة بمرحلة معينة الى الحكم القائم على اساس التقليد الايجابي الحضاري المتراكم ومقدار اسهامها في تكوين هذا التقليد . ومن الواضح ان هذا الحكم لا يتيسر ، على وجهه الصحيح ، الا لمن كان حقاً وريث هذا التقليد ، وتمثله في فكره ونفسه ، فلا يأتي حكمه عن جهل او ادعاء ، بل عن جدارة واستحقاق .

ان الاكتفاء بالمقياس الزمني وحده يؤدي الى ميعان في الحكم ، فلا نستطيع ان نقول عن شيء انه حسن او سيء لان هذا الشيء لا يمكنه ان يكون غير ما كان عليه . والحكم بمقياس « التقليد التراكمي » وحده يؤدي الى القسر والفرض لانه لا يعتبر الظروف والاحوال ، والحدود والقيود . اما الحكم التاريخي الكامل ، المؤلف بين هذا وذاك ، فانه يجمع الميزتين ويتنكب الخطأين ، ويأتي نتيجة للمعرفة المتزنة : النافذة الشاملة الصارمة المحبة ، الناقدة السمحة . وبهذا يغدو من اهم عناصر التفكير التأريخي ومن افضل ثماره .

الثقافة التأريخية



لقد استعرضنا في الفصول السابقة العمل التأريخي في خلال مراحله المتتابعة ومظاهره المختلفة — صناعة ، وتفكيراً ، وتعليلاً ، وحكماً — وحاولنا ، ما امكن ، تبين طبيعة هذا العمل ، والشروط التي يجب ان يوفيها والصفات التي يجب ان يتحلى بها ، ليأتي صحيحاً متزناً مثمراً . ويجدر بنا الآن ان نتقدم بهذا البحث الى مرحلته التالية فنتساءل عن معنى هذا العمل بكامله : عن الاثر الذي يتركه في الفكر والنفس ، وعن نتاج فعله في تهيئتنا لمعالجة الحاضر واعداد المستقبل .

لنبادر الى القول ان هذا العمل يكسب المرء نوعاً معيناً من الثقافة . ان هذه الثقافة — ولندعها « الثقافة التأريخية » — هي خلاصة ما يجني الانسان من جهده في استكشاف الماضي ، وبهذه الصفة تكون عاملاً فعالاً في تكييف نظرته وتعيين اتجاهه بالنسبة الى الحياة بكاملها : ماضياً وحاضراً ومستقبلاً . وهي ، ككل ثقافة ، مؤلفة من عناصر مختلفة يحسن بنا ان نميزها . انها تتألف ، اولاً ، من معارف متنوعة ، بل من معرفة واحدة متماسكة ، تتناول حوادث الماضي والروابط التي تربطها والعلل التي احدثتها والآثار التي نتجت عنها . وقد لاحظنا ان الماضي البشري مديد واسع متشابك ، وان من الصعب ، ان لم نقل من المستحيل ، ان

نقف على حقيقته بكاملها . ولكن كلما كانت معرفتنا اوسع واشمل واشد ترابطاً وتماسكاً كانت ثقافتنا التأريخية اغنى وارحب وكان فعلها ابرز واجدى فائدة . وكذلك تبينا ان الطريق الى هذه المعرفة طريق طويلة شاقة وعرة . ولكن هنا ايضاً ، كلما توغلنا في هذه الطريق وحققنا معرفتنا بالتدقيق والنقد والمقارنة والمقابلة ، كانت ثقافتنا التأريخية اقرب الى الصحة وكان اثرها افعل في سلامة النظر واعتدال الحكم .

اما العنصر الثاني من عناصر هذه الثقافة فهو ملكات عقلية تتولد في خلال الجهاد لاكتساب المعرفة التأريخية . ان هذه الملكات هي ، في الوقت ذاته ، وسائل لاكتساب هذه المعرفة ، وضوابط تضمن سلامتها ، ودوافع لاستمرار نموها وازديادها وتوسعها . وتتصل هذه الملكات بالعنصر الثالث الذي تتألف منه الثقافة التأريخية وهو البواعث النفسية والفضائل الخلقية التي تنميها هذه الثقافة في الانسان والتي تطبع بها شخصيته بكاملها . ولقد بدت لنا اهم هذه الفضائل والملكات في خلال استعراضنا لمراحل العمل التأريخي ، وستعود فتنكشف من ثنايا تحليلنا للثقافة التأريخية واستطلاعنا لاثر هذه الثقافة في الموقف المتخذ من الحياة وفي الجهد الرامي الى توجيهها وتسييرها .

فما هي ميزات الثقافة التأريخية ، وما هو اثرها المنشود ؟؟

●

قبل ان نجيب عن هذا السؤال ، يجب علينا ايضاح ناحية هامة من نواحي العلاقة القوية التي تربط الانسان بماضيه وتدفعه الى تذكره وبعثه وتأريخه . لقد نوهنا مراراً في ما سبق بهذه الميزة التي يتفرد بها الانسان من سائر المخلوقات ، وذكرنا ان « تاريخيته » هي وجه هام من وجوه كيانه الانساني . فحيثما وجد على سطح هذه البسيطة ، ومهما تختلف ظروفه وازمنته واحواله ، نجده يحن الى ماضيه ، ويحاول تذكره ، ويروي اخباره ، ويسجل وقائعه . انه ابداً مشدود الى الماضي ، ملتفت الى الوراء .

قد يقوى هذا الالتفات او يضعف ، وقد يختلف اثره فيكون مبعث نشاط واقدام او علة جمود وتخلف ، ولكنه هناك على كل حال لا ينفصل عن الانسان ما دام انساناً .

ولكن هذه التاريخية التي يتميز بها الانسان لا تستوعب طبيعته بكاملها . انه يذكر الماضي ، ولكنه ايضاً يعيش الحاضر ويخطط للمستقبل . ولعل « حاضريته » و « مستقبليته » ليستا اقل خطراً من « تاريخيته » ، بل لعلها أشد تعبيراً عن انسانيته واقوى اثراً في مجهوده وحياته . انه يحن الى ما مضى ، ولكنه ايضاً مشغول بما يعرض له من مشكلات ، متطلع إلى ما يجيء له الغد المقبل . ولعل حنينه ذاك نتيجة لهذا الانشغال وهذا التطلع . فهو ابداً يسعى ويجد لسد حاجاته الطارئة والدائمة ، ويأمل ويقدم ويخطط ويبني لنفسه ولاولاده ولقومه وللانسانية ويعمل لدنياه كأنه يعيش ابداً ولآخرته كأنه يموت غداً .

ونحن نخطىء اذا اعتقدنا ان الماضي شيء مجرد خارج عن الانسان ، مستقل عن نزعاته وميوله وآماله الحاضرة . وهذا هو الخطأ الذي ينطوي عليه موقف المدرسة الموضوعية التي ركزت ايمانها على « الصناعة التأريخية » وذهبت بها الى ابعد حدودها . فليس من الممكن ــ مهما حاول رانكه وسواه ــ ان ينعزل الانسان عن حاضره انعزالاً تاماً ليكتشف حقيقة الماضي كأنها حقيقة قائمة بذاتها منفصلة عنه . بل لا بد لكل إنسان ولكل جيل من ان ينظر الى الماضي من خلال اعتقاداته واهتماماته وآماله . ورانكه وامثاله من مؤرخي القرن التاسع عشر لم يروا التاريخ كما رأوه إلا لانهم ابناء ذلك القرن ، ولو عاشوا قبله او بعده ــ لو كانت اهتماماتهم ونظرتهم الى الامة والانسانية والفكر والحياة غير ما كانت عليه ــ لجاء نتاجهم مختلفاً عما بلغنا منهم . وما يصدق عنهم يصدق عن سواهم في كل بيئة وجيل ، ولذا كثيراً ما تكون مؤلفات المؤرخين ــ حتى عندما تؤرخ الماضي السحيق ــ اصدق تعبيراً عن عصرهم وبيئتهم وعما يسودهما

من اعتقادات ودوافع مما هي عن الماضي الذي يعالجونه .

وها نحن الآن ننظر الى ماضينا بغير العين التي نظر بها اجدادنا اليه، فما يهمنا منه الآن هو غير ما كان يهمهم. اننا في خضم هبة قومية نفهم الأمة بغير مفهومهم ، ونقبل على تطورات اقتصادية واجتماعية وعقلية لم يكونوا يعرفونها او يحلمون بها ، فلا بدع اذا استلهمنا من الماضي ذاته غير ما استلهموا واذا اخترنا منه غير ما اختاروا واذا كانت الصورة التي له في ذهننا والاثر الذي يحدثه في نفسنا يختلفان عن تصورهم له وتأثرهم به . ولن يكون غريباً ، بعد ان تستقر نهضتنا القومية وتنضج وبعد ان نجوز التطورات التي نتمخض بها الآن — لن يكون غريباً ان ينظر ابناؤنا الى تاريخنا الماضي والى التاريخ البشري عامة نظرة جديدة منبعثة عما سيكونون من معتقدات ويتخذون من مواقف وما سيجيش في صدورهم من آمال واحلام .

وليس معنى هذا ان ليس في الماضي عناصر ثابتة ، وان لا مهرب لنا من النسبية المطلقة التي عرضنا لها وحذرنا منها في فصل سابق . وانما معناه ان هيئة هذا الماضي كما تتراءى لنا تختلف بحسب قربنا منه او بعدنا عنه وبحسب المنظار الذي ننظر به اليه . ولعلنا لا نخطيء كثيراً اذا شبهناه بالسهول والوهاد والاودية والتلال الممتدة وراءنا ونحن نرقى جبلاً من الجبال . انه هناك حقيقة واقعة ، او قد وقعت ، بلا جدال . ولكننا كلما صعدنا او تحولنا في سيرنا تبين لنا منه ما لم يكن ظاهراً قبلاً وتبدلت هيئته العامة نوعاً من التبدل . ومن يكن منا في مكان آخر من الجبل وينظر اليه من الزاوية التي يحتلها تتبين له صورة تختلف عن الصورة التي تبدو لنا . ولهذا نجد ان كل جيل يعود ويكتب التأريخ من جديد : لا لانه اطلع على حقائق جديدة فحسب ، بل لان المرحلة التي بلغها في طريق التطور تجعله يرى الحقائق القديمة على غير ما كانت تراها الاجيال السابقة . ولهذا ، ايضاً ، كان للتأريخ ذاته تأريخ . وما تأريخ التأريخ سوى متابعة هذه

النظرات المتعاقبة للماضي التي كونتها الاجيال المتتابعة وتفهم اثر هـذه النظرات في التأليف التأريخي خاصة وفي الفكر والحياة بوجه عام .

نخلص من هذا كله الى تقرير حقيقة اساسية: وهي اننا نعود الى الماضي من خلال اهتمامات الحاضر وآمال المستقبل . فبقدر ما نكون احياء فاعلين يساورنا القلق ويشغلنا الاهتمام : القلق من المشكلات القائمة والحاجات المادية والفكرية والروحية الطارئة ، والقلق من مخبآت الغد ومكنونات المصير. ان الماضي بذاته لا يبعث على القلق. وانما هو القلق من الحاضر والمستقبل ، وما يبعثه في النفس من طموح ونشاط او من خوف وحذر وما يثير من الم وأمل — انما هو هذا القلق الذي يعيد النفس الى الماضي لتستوحيه وتتقوى به او لتثور عليه وتنطلق من قيوده وحدوده .

ان الانسان الحي الفاعل هو ابداً في صراع داخلي تتجاذبه اهتمامات الحاضر وآمال المستقبل وذكريات الماضي. وانه ليرقى في مراتب الكيان والحرية والانتاج كلما كان هذا التفاعل نيراً ايجابياً مثمراً . فلا غرق في الماضي يشل النشاط والحيوية ، ولا غرق في الحاضر يضيق مجال النظر ويعمي عن اصول الاشياء وعللها ، ولا غرق في المستقبل تضيع فيه الحقيقة في اعماق الاحلام العذبة الخادعة . وانما ، كما قلنا ، تفاعل حي بين الامل والحنين، بين التطلع والتلفت، بين الحرص على ما هو كائن والنزوع الى تخطيه ، تفاعل بين « التاريخية » و « الحاضرية » و « المستقبلية » في طبيعة الانسان يبعث كلاً منها ويضبطها ويخرج من كل منها، ومنها جميعاً ، افضل النتائج وأخصب الثمار .

●

على ضوء هذه الحقيقة لنعد الى موضوع بحثنا في هذا الفصل ولننظر في مميزات الثقافة التأريخية وفي اثرها في الفكر والنفس . وأول ما يبدو لنا من هذه المميزات ومن وجوه هذا الأثر هو ان الثقافة التأريخية **توسع اختبار الانسان وتعمقه**. فالانسان الذي يعمد الى معالجة مشكلاته او مشكلات

امته او مشكلات الانسانية جمعاء ، او الذي يسعى الى تحقيق آمال او تنفيذ مشروعات او تخطيط سبل جديدة — ان الذي يفعل في الحاضر ويمهد للمستقبل ليحتاج الى مرانة وخبرة كي لا يخطىء الهدف وكي يبلغ افضل النتائج. وليس التعلم كله سوى الجهد لاكتساب هذه الخبرة (بأوسع معاني هذه الكلمة وأغناها)، وليس التعليم والتثقيف والتربية سوى محاولة نقل هذه الخبرة وتوليد القدرة على اكتسابها. وفي هذا السبيل — في سبيل نقل الخبرة واكتسابها — كانت الجهود المستديمة والتضحيات الجسيمة والبذل السخي في ميادين التربية والتعليم .

لسنا نعني بالخبرة المهارة في فن من الفنون ولا التجربة المكتسبة في القيام بعمل معين من الأعمال ، وانما نعني النظر الواسع الى الأمور الذي يتناول اصولها وعللها ، ومظاهرها ونتائجها ، وتشابهها واختلافها ، وأسس تقديرها وتقييمها ، كما نعني المعالجة التي تستند الى هذا النوع من النظر والتفكير. وهذا كله لا يأتي عفواً ولا يحصل بيسر بل يتطلب معرفة اصيلة واختباراً مديداً . ونحن نرى في حياتنا اليومية فرقاً بيناً محسوساً بين الذي يقدم للمرة الاولى على معالجة امر من الامور ، والذي يكون قد جاز مثل هذه المعالجة مراراً عديدة . فان النظر الى المشكلة ، والاسلوب الذي يتبع في معالجتها، يختلفان في الحالة الثانية عما هما في الاولى لما يكون صاحبهما قد اكتسب من تجربة ونضج واختمار . واذا كان المرء يكتسب من اختباره الخاص، فهو يكتسب ايضاً من اختبار غيره . والثقافة التاريخية تمده بهذا الاختبار : لا باختبار فرد او افراد فحسب، بل باختبار اجيال وشعوب وثقافات وحضارات . فاذا بحياته قد طالت وامتدت وشملت حياة المئات والالوف بل الملايين من الناس ، واذا بمعرفته قد اتسعت وشملت معرفتهم ، واذا بخبرته قد غزرت واغتنت بما أفاد من خبرتهم المديدة المتنوعة .

لنعد الى مثلنا الذي ذكرناه : مثل الرجل الذي بلغ في سيره الوئيد

عبر السهول والوهاد والجبال مكاناً معيناً . فقد يحصر الرجل نظره في المكان الذي بلغه او في دائرة ضيقة حوله . وبمقدار هذا الحصر يقصر فهمه لذاته ومشكلاته وظروفه وتحـد قدرته على تخطيط سيره المقبل . أما اذا التفت الى الوراء ووعى كل ما اجتازه من مسافات وما بذل من جهود ، وما حقق من انتصارات وما اصابه من اخفاق وانكفاء — اذا استطاع ذلك فقد اصبح فهمه لموقفه اصح وأشمل واعداده للمرحلة التالية من سيره أضبط وأدق وأضمن .

يعتقد البعض ان للثقافة التأريخية فائدة عمليـة مباشرة ، استناداً الى القول المردد : « ان التاريخ يعيد نفسه » . ويتوهمون ان من اطلع على التأريخ وعرف كيف وقع حادث من الأحداث استطاع ان يتنبأ بحدوثه مجدداً في الحاضر او المستقبل وتهيأ له وعلم نتائجه وأدرك طرق معالجتها. ونحن لا نقول بهذه الفائدة العملية المباشرة ، لأننا لا نعتقد بعودة التاريخ ، وتكرار الأحداث كما وقعت تماماً . فالحياة تتبدل وتتطور ، وكل حدث جديد يؤثر فيها ويكيفها بعض التكييف . ولئن كانت مراحلها تتشابه في بعض ميزات ومظاهر، فهي تختلف وتتباين في اخرى. وهي تتضمن الخاص والفريد من الاحداث والمظاهر الاجتماعية ، كما تتضمن العـام والمستمر منها . ومع ان لها بعض اتجاهات عامة تتبعها في تبدلها وتغيرها، ومع اننا نصوغ هذه الاتجاهات احياناً بشكل قوانين ، فان هذه القوانين لا يمكنها — نظراً لتعقد الحياة ذاتها ولوجود الحرية والاختيار فيها — ان تبلغ الدقة والتحديد التي للقوانين الطبيعية ، بل لا بد لها من ان تزداد تعقداً وتقل ضبطاً وانضباطاً كلما تطورت الحياة وتتابعت الاحداث ، لأن لهذه الاحداث ، كما قلنا ، آثارها الخاصة التي تتراكم او تتناقض والتي ما تفتأ تفعل فعلها في تغيير شكل الحياة وتعديل مجراها .

اننا لا ننكر الفائدة المجنية من معرفة الاتجاهات العامة التي اتبعتهـا الحياة الماضية في سيرها ، وما تمكننا اياه هذه المعرفة من ادراك افضل

لمشكلات الحاضر وللتطورات الممكنة في المستقبل . وانما الذي ننكره هو القول بالفائدة العملية المباشرة المستندة الى الاعتقاد بأن التاريخ دولاب يدور ، وان ما حدث في الماضي سيتكرر بالشكل نفسه في المستقبل ، وان من اطلع مثلاً على الوقائع الحربية السالفة يستفيد مباشرة في الفنون الحربية الحاضرة او المقبلة ، ويستطيع ان يطبق ما حدث في الظروف والاحوال القائمة الآن . فان سرعة تبدل هذه الاحوال — خصوصاً في هذا العصر الذي يقفز العلم فيه كل يوم قفزة جبارة جديدة — لتزيد في اختلاف أحداث الحاضر عن امثالها في الماضي ، وتنفي المعنى الضيق الذي يفهم به البعض تكرار الاحداث وعودة التاريخ و «العبر» و «الأمثولات» التي نستمدها من المعرفة التأريخية . اننا نقول بالفائدة المستمدة من معرفة الاتجاهات العامة في الماضي ، ونقول فوق ذلك بفائدة أعم وأشمل نجنيها من الثقافة التأريخية ، وهي التي تحصل لنا حين نستخلص اختبارات الاجيال المتلاحقة والامم المتعاقبة والثقافات والحضارات في تكونها وازدهارها وانحلالها — حين نؤمن مع المؤمنين ، ونشك مع الشاكين ، ونسعى مع الساعين ، وننتصر مع المنتصرين ، ونتخذل مع المنخذلين — حين تغنى حياتنا وتزخر بما نستمده ممن سبقنا من علم ومعرفة ، ومن ألم وأمل ، ومن اقدام وقعود ، ومن كسب واخفاق ، ومن كل اختبار يجعل الحياة أدق ادراكاً لذاتها وأقدر على شق سبلها المقبلة . ان حياة كل منا قصيرة المدى ، وخبرته ضيقة ، وقدرته على الفهم والفعل محدودة . فمن فضل الثقافة التأريخية ، في ما نرى ، ان تمد الى ابعد حدود ممكنة طول حياتنا وسعة اختبارنا وقدرتنا على الادراك والفعل . وفي الاغناء الناتج عن هذا كله اول ميزة نلاحظها من ميزات الثقافة التأريخية وأول أثر من آثارها المنشودة .

•

لقد قلنا في ما سبق اننا قلما نعود الى الماضي من اجل الماضي ذاته

ان الذي يستحثنا اليه هو في الاغلب مشاغل الحاضر والمستقبل . وينتج
ن هذا اننا اذا تدبرنا معنى هذه الثقافة التأريخية التي نتحدث عنها وجدناها
في اخر الامر **سبيلاً من سبل ادراك الذات** . فسواء نظرنا الى انفسنا كأفراد
او كأبناء امة واحدة او كأعضاء في الأسرة الانسانية ، وجب علينا ان
نحرص على تفهم ذاتنا او ذواتنا وأوضاعنا على حقيقتها . ونحن انما نعود
الى الماضي ونطلع على مجرى احداثنا لكي يساعدنا هذا الاطلاع على معرفة
أنفسنا . وبالعكس ، كلما صحت وازدادت معرفتنا لواقعنا كنا اقدر
على تفهم الماضي واستخراج معناه . وهكذا تتفاعل الثقافة التأريخية وسواها
من عناصر الثقافة في الشخصية الموحدة الغنية النيرة الفاعلة .

وتتجلى هذه المعرفة الذاتية اصدق تجل في نوع الأسئلة التي نثيرها
عن طبيعتنا وواقعنا . اننا نفرض ان كل انسان حي — كل انسان يستحق
هذا الاسم — يتساءل بشكل من الاشكال . ولكن تساؤله يختلف حدة
وعمقاً ومرتبة وقيمة حسب حظه من الثقافة . ومن شأن الثقافة التأريخية
ان تساعد على اثارة الأسئلة الأساسية في نفسه وان تستحثه للاجابة عنها
وبالتالي الى ادراك ذاته على وجه أدق وأشمل. انها تدفعه مثلاً الى التساؤل
عن الصلات التي تربطه بسواه من الناس وعن تنوع هذه الصلات واختلاف
اسبابها . لماذا يشعر بصلة بأعضاء أسرته وأبناء أمته اقوى من صلته بسواهم ؟
كيف تطورت الأسرة وكيف تكونت الامة، وفي اية مرحلة من مراحل
تكونهما وتطورهما يعيش في هذا الوقت بالذات ؟ وما يصدق عن الأسرة
والأمة يصدق عن سائر المجتمعات التي ينتمي اليها . ثم انه يجد انه يشبه
سواه من ابناء مجتمعه في اشياء ويختلف عنهم في اشياء ، ويجد ان مجتمعه
يشبه سائر المجتمعات في اشياء ويختلف عنها في اشياء . فما هي اسباب
هذا التشابه والاختلاف وما هي عللها وأصولها ؟

ويقوده هذا النظر في التشابه والاختلاف الى ان بعض المجتمعات
اكثر حظاً من التقدم والرقي والمدنية من سواها ، ويتساءل عن حظ مجتمعه

او قومه منها ، ولماذا كان له هذا الحظ بالذات ؟ لماذا هو متقدم على غيره او متأخر عنه، وما هي اسباب هذا التقدم والتأخر وعلله المتحدرة من الماضي؟ فاذا بلغ هذا المبلغ وكانت ثقافته التأريخيـة صحيحة متفتحة اضطر الى التساؤل عن معنى التقدم والتأخر وعن مقاييسهما ، وعن معايير الرقي والحضارة وقيمهما ، كي تأتي مقارناته ومقابلاته سليمة وحكمه عـلى نفسه وعلى سواه معتدلاً منصفاً .

وانه ليجد انه اذا سار في هذا الطريق فسيبلغ المرحلة ذاتها التي بلغها عن طريق آخر كنا قد أشرنا اليه سابقاً ، طريق تعليل الاحداث الماضية والحكم فيها . هذه المرحلة هي مرحلة التساؤل عن طبيعة الانسان : عن خصائصها الأصيلة ، وعن مظاهرها المتبدلة خلال التاريخ . ولا بد له هنا ايضاً من ان يكوّن لنفسه نظرية في الانسان تنطلق منها نظرته الى الكون والى ما وراء الكون والى الحياة وميزاتها وغاياتها ودوافعها . هل الانسان مادة ام عقل ام روح ، ام مركب منها ، وفي هذه الحال ايها افعل فيه؟ هل هو وليد ظروفه وبيئته ومجتمعه ام فاعل مولد لها ، والى اي حد في كل من الحالين ؟ هل هو ابن الطبيعة ام ابن الله ؟ هل هو مسير ام مخير ؟ هذه وسواها من الأسئلة لا بد للمرء من مجابهتها اذا اراد ان يكون حياً فاعلاً . ومن شأن الثقافة التأريخية ان تقوده اليها وتثيرها في نفسه وتدفعه الى الاجابة عنها . حتى عندما يتوصل الى جواب معين، تظل هذه الثقافة تلح عليه بامتحان هذا الجواب على ضوء الاحداث التاريخية لاختبار صحته وتلمس ضرورة حفظه او تعديله او نقضه .

لسنا نقصد بهذا الى ان الثقافة التأريخية هي العامل الثقافي الوحيد الذي يقود الانسان الى هذا التساؤل المتتابع والذي يضعه آخر الامر امام اهم ما تثيره الحياة من أسئلة ومشكلات . ولكننا نقصد الى ان الثقافة التأريخية اذ تعود بالانسان الى ماضيه وتطلعه على مراحله ومظاهره المتتابعة والمتنوعة وتحاول استكشاف اسباب التغيّر والتبدل والنمو والتطور والتأخر تسهم

بنصيبها الهام في اثارة اسئلتها المعينة وفي دعم الأسئلة التي تطلقها الجوانب الاخرى من الثقافة الانسانية أو في القاء اضواء جديدة عليها. وبهذا تدفع صاحبها الى ان يجابه، والى ان يجعل ابناء قومه ومجتمعه يجابهون، مشكلات الحياة الاساسية – مشكلات التقدم، والحضارة، والحرية، والعقل، والانسان، والكون. وما وراء الكون والانسان – وان يمتحنوا اوضاعهم على ضوئها، فلا يكتفوا بالسطحي الظاهر، وبالطارىء العابر، بل يغوصوا ما امكنهم الى الاعمـــاق ليستكشفوا الاصول والمنابع وليلتمسوا الجوهر الباقي. وبهذا ايضاً يتوصل الفرد، ويتوصل القوم، الى ادراك اوفى لذواتهم وأحوالهم ومشكلاتهم، فيكون للثقافة التأريخيـــة نصيبها الوافر في تكوين تلك الميزة الهامة للانسان الحي الناهض وللامة الحية الناهضة، وهي: معرفة النفس.

•

وعندما ينظر المرء، مدفوعاً بثقافته التأريخية، في اصوله، ويجابهها وجهاً لوجه مجابهة وعي وفهم وادراك، يشيع في نفسه شعور بالحرمة التي يجب ان تكون لها. فهذه الاصول تمثل جهود اجيال واجيال وحياة نفوس تعايشت وتتابعت خلال العصور. ولا شك في ان هذه الاجيال والنفوس تختلف قوة وضعفاً، وخصباً وجدباً، وكسباً وخسراناً، وجمالاً وبشاعة. ولكنها كلها تعبير عن الحياة الانسانية. وللحياة الانسانية كرامتها وحرمتها: في قوتها وفي ضعفها، في ما قدرت عليه وفي ما عجزت عنه، في ارتفاعها الى اسمى المراتب وفي انخفاضها الى ادنى الدركات. ان الشعور بكرامة الانسان وحرمته هو من ابلغ الادلة على رقي الفكر واصالة الثقافة. فحري بالثقافة التأريخية ان تبعث في انفسنا هذه الحرمة للاجيال التي سبقتنا فنحفظ لها كرامتها ونقر لها بفضلها. نقول هذا ونؤكده في هذا المجال لأنه يبدو لنا اننا نعيش في عصر قد ضاع فيه كثير من الحرمات وساده كثير من الهزء والازدراء. وقد كان للماضي – ماضينا وماضي سوانا – حظه

الوافر من هذا كله . فكأن التقدم الذي أحرزته المدنية الحديثة في حقول العلم والانتاج المادي ، وكأن التحفز الذي تجيش به صدور الافراد والامم اليوم — كأن هذا وذاك ، على ما فيهما من عناصر الخير ، قد أديا بنا ، في كثير من الاحيان ، الى الثورة على كل ما في ماضينا وفي الماضي الانساني من تراث وعلى الهزء به وانتقاص قدره .

على انه يجدر بنا ان نذكر ان التخلص التام من هذا التراث والتجرد من «تاريخيتنا» المتأصلة في انسانيتنا امر مستحيل . وهو بعد هذا مخل بما لهذا التراث علينا من واجب التقدير والاحترام ، ان لم يكن لشيء فعلى الأقل لكونه — كما قلنا — تعبيراً عن الحياة الانسانية ، وهي عنوان الحرمة وموضوع الكرامة . واذا كانت هذه الحرمة واجبة نحو الماضي بكامله ، فهي اشد وجوباً نحو الماضي الذي يتصل بنا ويربطنا بمجتمعنا او امتنا . ومن الطبيعي ان يكون لنا حدبنا الخاص على هذا الماضي وميلنا اليه ، وافتخارنا به ، وان يكون له مكانه البارز وفعله النافذ في قلوبنا ونفوسنا . ومن الطبيعي كذلك ان نعمد الى انماء هذا الشعور في ناشئتنا ، وان نحيط ماضينا القومي بهالة من الاكبار والاعزاز ليغدو لنا مصدر الهام ومبعث انطلاق وحافزاً على تحقيق الآمال الجديدة ، والسير قدماً في طريق الانتاج المادي والحضاري وتوفية اسباب الكرامة والعزة والمجد. على ان الاحترام الواعي والاستلهام الرشيد شيء والهوس الفائر والانقياد الاعمى شيء آخر . فالماضي لا يمكن ان يرجع او ان يسترجع كما كان تماماً ، ولا يمكن عجلة التاريخ ان تعود القهقرى. وما دام ثمة عقل ، وما دامت ثمة حرية ، فان امكانات التقدم والرقي وتخطي المآثر الماضية تبقى قائمة ويبقى مجالها منفسحاً رحباً . ولذا ، فان من ميزات الثقافة التاريخية التي نتحدث عنها انها ثقافة واعية وان تعلقها بالماضي واحترامها له لا يصدران عن شعور بدائي او حماسة هوجاء بل عن تقدير متزن قد صقله الفكر واضاءته المعرفة . ولا شك ، في نظرنا ، في ان الايمان بحقيقة الماضي وقيمة فعله الذي يبعثه

مثل هذا التقدير المتزن في النفس هو اقوى وارسخ من سواه ، وان الاستلهام الذي ينطوي عليه يكون اصفى واثبت ، وان فعله في صنع الحياة الجديدة يأتي اصدق وانفذ وابعد مدى .

ومن شأن هذا الاحترام الواعي الذي تبثه الثقافة التأريخية الصحيحة انه **يركز الفرد ويركز الأمة ويوطد كيانهما**. فان الاحساس بالجذور المتأصلة والأسس الراسخة يبعث في النفس شعوراً بالثقة والاطمئنان وينمي المناعة والصلابة في وجه الاحداث ، فلا يبقى المرء ، ولا تبقى الامة ، عرضة للاهواء الجامحة وللزعازع العاصفة . وان الناظر الناقد ليستطيع التمييز بيسر وسهولة بين المرء الذي له جذوره القوية المديدة في الارض والتاريخ ، وذلك الذي هو ابن يومه ومكانه الطارىء فحسب . وما ينطبق على الافراد ينطبق على الامم . فثمة امم اقوى جذوراً من اخرى او اشد شعوراً بهذه الجذور . فاذا كانت هذه الجذور سليمة تمد باسباب الحياة والنمو وكان الشعور بها شعوراً واعياً نيراً ، كان هؤلاء الافراد والامم أصدق ادراكاً للواقع وأصح حكماً على الاشياء من سواهم ، واستطعنا ان نلمس في كيانهم وتصرفهم الثقة والاستقرار والايمان منبعثة من نفوسهم ومنبثة منها الى ما حولهم . ومن هنا كانت صفة « الاصالة » او « العراقة » التي يتمايز بها الافراد والشعوب ، والتي تجعل حياة بعضهم اغنى من حياة البعض الآخر وانفس واكثر استقراراً واقدر على تحمل الهزات والنوائب . ومن البديهي اننا هنا ايضاً نعني الاصالة الحقيقية التي تستند الى ماضٍ واقع لا الى ماضٍ موهوم ، الاصالة الفعلية لا الاصالة المدعية ، الاصالة التي لا تزال نابضة بالحياة لا التي هرئت روابطها وانخات شرايينها واوردتها .

فمن ميزات الثقافة التأريخية اذن انها تؤدي الى تركيز حياة الفرد والأمة وتوطيدهما والى تقوية الاصالة الفردية والقومية والانسانية وتنقيتها ، والى تنمية الشعور بهذه الاصالة وجعله عامل استقرار وثقة بالنفس ومبعث تجدد وتقدم في الوقت ذاته .

●

على ان التجدد والتقدم لا يكونان صحيحين دائمين الا اذا لازم الشعور بقدر الماضي وحرمته شعور بحدوده وقيوده وقصوره ، والا اذا كانت معرفة الذات المؤدية الى احترام الذات وتقدير الماضي هي ايضاً **نقد للذات وللماضي** . لقد قلنا ان نسيج الماضي محوك من خيوط تختلف متانة وضعفاً ، ونفاسة وضعة ، وجمالاً وقبحاً ، ونقاوة وفساداً . بل قلنا اننا نحب الماضي ونتعلق به من اجل نقائصه كما نحبه من اجل فضائله . ولو لم تكن فيه نقائص وحدود لما جاء تعبيراً صادقاً عن الحياة ، وهي لم تأتِ في اي طور من اطوارها مثالية او متصفة بالكمال المطلق ، بل كانت تجمع دوماً بين التحقيق والتقصير ، بين الكسب والخسران ، بين الايجاب والسلب ، بين الانطلاق والتقيد . ولا نعرف هذه الحياة حق المعرفة الا اذا ادركناها من الناحيتين معاً ، وكذلك لا تكون معرفتنا لانفسنا وللماضي صحيحة الا اذا تضمنت نقداً له ولذاتنا . ان الاحترام الصحيح للتاريخ — بل لأي شيء — لا ينفي النقد بل يستوجبه . والمحبة الخالصة لا تخشى الثورة : لا تخشى أن تثور أو أن يثار عليها ، بل كثيراً ما يأتي أخلص احترام وأصدق محبة نتيجة للنقد والثورة ، لأن الاحترام والمحبة يصدران حينذاك عن وعي تام وادراك شامل ، ويكتسبان منها القوة على مغالبة الخوف وعلى مجابهة الحقيقة . ان المعرفة الذاتية التي تطمح الثقافة التأريخية الى ان تولدها — المعرفة المحترمة الناقدة ، المحبة الثائرة — خليقة بان تزيل من نفس الفرد ، ومن نفس الامة ، ما يعتريهما من مركبات نقص او من مركبات تفوق ، وان تجعلها يريان ذاتهما وماضيهما على حقيقتهما وان يعتزما تخطيهما بتحقيق اوسع للامكانات المنفسحة ، وتخطٍ للحدود والقيود ابعد واجرأ ، واحراز قيم وفضائل اعظم وانبل .

لقد قلنا في ما مضى في معرض حديثنا عن الصناعة التأريخية وفضائلها ان حاسة النقد لم تتولد عند الانسان عفواً وبيسر ، وان الطبيعة الانسانية كانت ، وما تزال الى حد بعيد ، اقرب الى التصديق منها الى النقد واميل

الى التوهم والتخيل منها الى مجابهة الحقيقة . واذا كان هذا يصدق عن النقد بوجه عام ، فهو يصدق بصورة خاصة عندما يكون موضوع النقد متصلاً بالانسان ذاته او بقومه او بتاريخه او بأي شيء آخر متعلق به او اثير عنده . ولهذا نرى نقد الذات من اصعب الأمور التي يقدم عليها الفرد او المجتمع ومن اكثرها تطلباً وتكليفاً وأبطئها تحقيقاً وتنفيذاً . ان الفرد ليميل الى حبس نظره على فضائله ومآثره وامجاده ، او على ما يتوهمه من ذلك ، ويؤثر ان ينطلق في اجواء الاحلام ويستعذب كل ما يستثير في نفسه الاعجاب بالذات والافتخار والمباهاة . وكذلك شأن الامة او اية جماعة اخرى . فان معرفة النفس على حقيقتها تتطالب بحثاً وتتبعاً وتدقيقاً ، وفي هذا ما فيه من الجهد والمشقة اذا قيس بيسر التوهم وعفوية الحلم والتخيل . يضاف الى ذلك ان هذا الجهد الرامي الى المعرفة قد يؤدي الى كشف العيوب والحدود ، وقد يبدي وجوه الضعف والنقص ، مما لا ترضى به النفس بطبيعتها ولا تستسيغه . فلا بد اذن من مشقة مضاعفة ومن مجالدة فائقة ، ومن مغالبة للنفس وبذل دائب لقهرها على رؤية الحق . لا بد من هذا كله ، ولكن لا سبيل سواه الى معرفة النفس معرفة صحيحة ، تلك المعرفة التي هي اساس كل عمل مثمر واقوى منطلق الى الرقي والاكتمال والابداع .

واذا كان نقد الذات مطلوباً من كل فرد ومن كل قوم في جميع ادوار حياتهما ، فانه مطلوب بوجه خاص من الافراد والامم عندما تكون سطوة الماضي قوية نافذة وصورته مستولية على النفس متحكمة بالعقل ، فيكون من نتيجة هذه السطوة والاستيلاء ان يتوقف النشاط وتخف الحيوية ، اكتفاء بما حقق وقناعة به واستكانة اليه ، او ان ينحصر الجهد والنشاط في محاولة اعادة مجرى التاريخ ورسم الحاضر على صورة الماضي ومثاله . وفي كلتا الحالتين ضرر وسوء : في الاولى استرخاء وعجز ورضى بالهين السهل وقعود عن الجد الدائب والتجدد المستمر اللذين تتطلبهما الحياة

الصحيحة ، وفي الثانية جدب وعقم لما في محاولة اعادة الماضي من قسر وارهاق واصطناع ، بل من بطل واستحالة . اما النقد الذاتي فانه يزيل نير السطوة المتحكمة ويزيح كابوسها ، بتمييزه بين الصالح والفاسد ، والباقي والزائل ، والنافع والضار ، والباعث الى التقدم والرقي والداعي الى التأخر والانحلال ، ويغدو هو ذاته عامل نهوض وتحفز لتحقيق نتائج جديدة واستكشاف آفاق مجهولة .

لقد قلنا ان للثقافة التأريخية المحترمة للماضي فعل تركيز وتوطيد وتأصيل . اما عندما نعمد الى نقد الماضي فانها **أداة اطلاق وتحرير** . انها تحررنا من سطوة الجهل ومن غرور الوهم والتواكل ، وتهيب بنا الى تحري الحقيقة مهما يكن طلبها شاقاً وتكاليفها عسيرة . انها تنمي في نفوسنا القدرة على مجابهة نتائج هذا التحري واستساغتها مهما يكن منظرها مؤذياً او طعمها مراً . انها تطرد الخوف من قلوبنا وتبعث فينا الجرأة وتكسبنا المتانة العقلية والخلقية والنفسية التي تصمد امام الواقع وتعلو عليه . انها تصفي اصالتنا مما علق بها من ادران وتعيد الحياة والنشاط الى جذورها ، فتجعلها اصالة ايجابية مثمرة لا اصالة ادعاء وتيه وارتداد .

ولا يعتقدن احد ان التركيز والتحرير عملان متناقضان ينفي احدهما الآخر ويزيل اثره ، وان الاول يشد روابط النفس والثاني يحلها ، وان ما ينتجه الاول من تثبيت وتوطيد ينقضه ما في الثاني من انطلاق وانعتاق . انهما ، على العكس ، عملان متكاملان يقوي احدهما الآخر وينميه . ولئن كان بينهما تناقض واصطراع داخلي ، فان هذا الاصطراع ذاته — هذا التجاذب والتنافر — هو عامل من عوامل النمو والاغتناء والخصب والابداع . فكل من الاتجاهين يتغلب بايجابيته على سلبية الآخر فتعزز بذلك ايجابية كل منهما وايجابيتهما المشتركة . وبهذا تبلغ الثقافة التأريخية الداعية الى معرفة النفس ونقدها ، المركزة المحررة ، المؤصلة المتسامية — تبلغ هذه الثقافة غايتها ، وتحدث آثارها المنشودة في الفكر والعمل ، في

فهم الحياة وفي صنع الحياة .

●

لقد استعرضنا اهم ميزات الثقافة التأريخية التي عنينا بها في هذا الفصل وابرز آثارها في نفس الفرد وفي حياة المجتمع . ولعل من المفيد في ختام هذا الاستعراض ان ننفذ الى لب هذه الآثار وان نحاول جمعها وتلخيصها. انّا اذا فعلنا وجدنا انه بامكاننا ان نحيط بها كلها بكلمة واحدة ، وان الصفات التي تنميها هذه الثقافة تتلخص في صفة جامعة هي ، في الواقع ، نتيجة كل جهد ثقافي ، وحصيلة الثقافة الانسانية بمجموعها . ونعني بها « **الحكمة** » ، الحكمة التي يولدها عمق الاختبار وسعته ، فتأتي دليل النضج والاختمار ، الحكمة التي تثير الاسئلة ولا تخشاها والتي تلح في التساؤل حتى تكشف عن جذور المشكلات وعن اعمق ما تخبئه الحياة ، الحكمة التي تحث على معرفة النفس واحترامها وتقدير اصولها ، والتي لا تخشى النقد بل تقدم عليه وتسلط اضواءه على احب الامور للذات واشدها اتصالاً بها واعزها عليها ، الحكمة التي تدرك الحدود والقيود وتدعو الى الانطلاق منها ، الحكمة المحبة الثائرة ، المركزة المحررة ، الاصيلة المنطلقة ، المنبعثة الباعثة . هذه الحكمة هي غاية الثقافة ولب نتاجها . وحسب هذا اللون الخاص من الثقافة — الثقافة التأريخية — ان يسهم في بلوغ هذه الغاية وتكوين هذا النتاج .

وحسب الفرد ان يجهد لاكتساب هذه الفضيلة ، وحسب الامة ان تسعى ليكون لها منها نصيب وافر وذخيرة نامية . فبقدر ما نحقق منها — افراداً وجماعة — يرقى كياننا ويجلّ عملنا ويكون لحياتنا قيمتها ومعناها لنا ولسوانا .

صُنع التاريخ



ليس سبيل ادراك الماضي واكتساب الوعي التأريخي الصحيح سبيلاً مختصراً هيناً ، وإنما هو سبيل طويل عسير ، يتدرج فيه الساعي من الجهد لتحقيق أحداث الماضي بأدق أساليب الصناعة التأريخية ، إلى التفكير فيه تفكيراً نافذاً شاملاً يربط بين تلك الاحداث ويسبر غورها ، إلى محاولة استكشاف العوامل التي تفعل فيه ، إلى الحكم على مظاهره ونتائجه بأضبط الموازين وأعدلها . وتتكون من نتيجة هذا السعي معرفة متدرجة نامية لحقيقة الماضي ، كما تتكون في الساعي ذاته فضائل عقلية وخلقية وثقافة متميزة تتوّجها كلها فضيلة الحكمة — تلك الفضيلة التي هي غاية الجهود العقلية وأنفس ثمار الثقافة وأعزها وأبقاها .

على ان الانسان ليس كائناً مدركاً فحسب ، وإنما هو كائن عامل أيضاً . لا يكتفي بادراك العالم الذي يحيط به وادراك ذاته (ومن ضمن ذلك ماضيه) ، وإنما يظل يعمل وينفذ ويحقق ، ومن خلال هذا كله يحدث اثره في تبديل عالمه وتبديل ذاته . إن الانسان هو ، من بين المخلوقات كلها ، الكائن الذي يحس بالمشكلات التي تجبهه وينهض لمعالجتها ، ويرى الامكانات التي تنفسح من خلالها ويختار بينها . لقد وجد على وجه هذه

البسيطة ، تكتنفه طبيعة زاخرة القوى عميقة الاسرار ، فجاهد جهاداً عنيفاً طويل المدى لاقتناص وسائل عيشه وكفالة أمنه وحماية ذاته وذويه من فعل هذه القوى ، وانصرف ما أمكنه الانصراف إلى محاولة التغلب عليها وتسخيرها لمصلحته وخيره . وكذلك جابه مشكلات طبيعته البدائية، وما تتصف به من طمع وغرور وجهل ، وسعى — ناجحاً حيناً مخفقاً حيناً آخر — إلى ان يقهر ضعفه ونقائصه ويسمو بحياته الفردية وبتنظيمه الاجتماعي إلى المراتب التي يكشفها له عقله المتطلع إلى الحق ونفسه المتشوقة إلى الخير . ولم يكن هذان الجهادان — جهاد الطبيعة وجهاد النفس — منفصلين مستقلين ، بل كانا مترابطين متفاعلين يستفيد أحدهما من الآخر ويتقوى به ويقويه . وكانت المدنية الانسانية والثقافة الانسانية ، بمختلف مظاهرهما وأشكالهما ، نتيجة هذين الجهادين ، بل هذا الجهاد المشترك ، الذي قام به الانسان ، فرداً وجماعة ، والذي ما زال يتابعه — بل الذي سيظل يتابعه ما دام انساناً — لمجابهة مشكلات عالمه الخارجي وعالمه الداخلي .

ولعلنا لا نعدو الحق إذا قلنا ان رقي أي انسان يقاس بطبيعة المشكلات التي يحس بها والتي تثير قلقه واهتمامه ، وبنوع هذا الاحساس والقلق والاهتمام ، وبقيمة النتاج المادي والفكري والروحي الذي يؤدي اليه ويبرزه إلى حيز الوجود . وما ينطبق على الفرد ينطبق على الجماعة والامة والحضارة ، فان مرتبة كل منها في مدارج الرقي ومعارج التقدم رهن بنوع المشكلات التي تتحداها وبطبيعة احساسها بها وطرق مجابهتها لها . ذلك ان المشكلات الانسانية والاسئلة التي تثيرها تختلف من حيث البدائية والتطور ، والبساطة والتعقد ، والجدب والخصب ، ومبلغ الاصالة والبقاء والاثر . كما ان الاحساس بها ورؤية الاختيارات الناتجة عنها يختلفان صفاء وحدة وامتلاكاً للنفس ، وسبل معالجتها تتفاوت دقة وصحة واثماراً . ومن هذا كله يكون الاختلاف والتفاوت في قيمة النتاج ومرتبة الحضارة .

وإذا قلنا الانسان العامل المجابه للمشكلات ، فقد قلنا ضمناً الانسان

الحر في تصرفه ، الواعي لحريته ، المختار بين شتى السبل المفتوحة أمامه . فليس من عمل منتج لا تسبقه حرية واختيار . ونوع الانتاج وقيمته يتوقفان على مدى الحرية التي يتمتع بها المرء ، وعلى ادراكه لهذه الحرية ، وعلى استخدامه لها في ما يتوصل اليه من قرارات وفي ما يقدم عليه من اعمال . ان الانسان الحي هو الانسان الذي يحس بضرورة اتخاذ قرارات ازاء ما يعترضه من مسائل ، هو الذي يشعر بالتحدي — تحدي الطبيعة والتحدي البشري — وبالحاجة إلى الرد عليه ، هو الذي يدرك امكانات الاختيار ومواضع القرارات ويحسن الاقدام عليها . ولعل هذه هي أبلغ أمثولة يلقننا إياها التاريخ : وهي ان الحياة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بنوع اختيارنا ومداه ، وبطبيعة قراراتنا ، وانها بالتالي تتأثر بما نعتزم وما نصنع ، وتتوقف إلى مدى بعيد على مؤهلاتنا للاعتزام الواعي الصادق والصنع المحكم السليم . نقول هذا غير ناسين أو متناسين ان للحياة قيودها وحدودها — من حيث المحيط الطبيعي والمؤسسات الاجتماعية والاحوال السياسية والاقتصادية والثقافية . فان من صفات الاعتزام والصنع الصحيحين تبين هذه الحدود والقيود . وإنما نقوله لأننا نرى في الماضي امكانات للاختيار من ضمن الحدود ، وأحياناً عبر الحدود ، قد حققت حيناً ، ولم تحقق حيناً آخر ، تبعاً لمؤهلات الافراد والجماعات الذين انفسحت أمامهم . وبكلمة أخرى : اننا لا نجد التاريخ ، كما لا نجد الحياة الحاضرة ، حصيلة قوى متسلطة على الافراد والجماعات ، مستقلة عنهم ، غير متأثرة بهم ، حارمة إياهم جدوى الاختيار والفعل وامكان الاسهام في تكييف مجرى هذه القوى ذاتها .

●

يختلف الناس من هذا القبيل : من قبيل مجابهتهم للمشكلات ومدى ما يتصفون به من اختيار وعزم — وينقسمون فرقاً وفئات . فمنهم فئة لا تشعر إلا بأقرب المشكلات اليها من حيث ضمان العيش واستمراره ،

وتجابه هذه المشكلات باحساساتها البدائية أو بالتقليد السائد في مجتمعها . تلك هي الفئة الغالبة في المجتمعات البدائية ، والتي نجدها أيضاً في المجتمعات المتحضرة ، ولكننا لا نجد لها اسهاماً في حضارة هذه المجتمعات أو اثراً في شق طرق جديدة أو ابداع اشكال متطورة راقية لحياتها أو لحياة قومها أو للحياة الانسانية عموماً . وبعرفنا ان هذه الفئة لم تحقق انسانيتها ، أو لم تحقق إلا أدنى مراتب هذه الانسانية . فهي تطفو على مجرى التاريخ ، يجرها معه إلى هنا وهناك ، دون أن يكون لها أثر في توجيهه أو تعديل سيره ، لأنها لم تر ما يعترض هذا المجرى ويسد عليه سبيله ، ولم تتنبه إلى ما ينفسح أمامها من وسائل وامكانات من خلال هذه السدود أو على رغمها ، ولم تحقق هذه الامكانات تحقيقاً يمكنها من ان تفرض ذاتها ، من قريب أو من بعيد ، على مجرى التاريخ . إنها في المستوى الذي تعيش فيه ، قد تذكر ماضيها أو تتخيله أو تتوهمه ، ولكن هذا التذكر لا يسمو ليصبح عاملاً حافزاً على التحكم بالحاضر أو اعداد المستقبل ، فلا يسهم بالتالي في صنع الحياة .

ومن الناس فئة ثانية قد شعرت بما يعترض طريقها من صعاب وما يحيط بها من قيود وحدود ، ولكنها لم تؤمن بأن لها يداً في التغلب عليها أو قدرة على التحكم بمجرى الحياة . فهي مستسلمة إلى هذا المجرى ، أو بالأحرى إلى القوة أو القوى الخارجية أو الداخلية الفاعلة فيه ، الموجهة إياه في سيره المحتم . وقد يكون السير المحتم في نظر بعض أرباب هذا الإعتقاد تقدم الحياة الانسانية تقدماً مستمراً إلى ان تتحقق طوبائية تامة في نهاية الشوط ، وقد يكون في نظر آخرين انزلاق المدنية إلى هاوية الانحلال والفناء ، أو اجتياز دور معين من الادوار أو مرحلة من المراحل ليتبعها دور تال أو مرحلة قادمة حسب نظام محتم يسري حكمه على الامم والحضارات بلا رفق أو هوادة . على ان هؤلاء جميعاً يؤمنون انه مهما يكن نوع السير ومهما كانت غايته ، فان اثر الفرد أو الجماعة فيه اثر ضئيل أو

معدوم وان لعوامل المحيط أو لدوافع المؤسسات الأثر كل الأثر ، ولذا فالخير كل الخير في الرضى والقناعة والاطمئنان ، والاكتفاء بادراك القوة أو القوى المتحكمة والايمان بها والاستسلام لها .

إن هذه الفئة لم تكن فئة مبدعة في التاريخ . فبقدر ما حددت أو نفت اختيار الانسان وحريته ومقدرته على تعيين مصيره ، حددت أو نفت بالتالي فعلها في تجديد الحياة وتوجيهها وتحويل مجراها . فالابداع والتجديد وتغيير الاوضاع وتطويرها إنما جاءت على أيدي الافراد أو الفئات التي أقدمت وغامرت ، وآمنت ان بامكانها ان تختار بين هذا وذاك وان لها قدرتها وفعلها وأثرها ، ومضت تنفذ الاختيار وتحقق القدرة وتثبت الفعل والاثر . ولا شك في انها اصطدمت أحياناً بالحدود وانساقت إلى المزالق وتعرضت للشرور ، ولا شك في انها جرّت معها سواها من ابناء المجتمع لهذا كله أو لبعضه ، ولكن هذه الاخطار هي — على ما يبدو — الثمن الذي تدفعه الانسانية من حين إلى حين في سبيل التقدم والنمو . ولسنا نعني بهذا ان كل اقدام يؤدي إلى تقدم ، وان كل مغامرة تنطوي ضرورة على ابداع ، وإنما الذي نعنيه ان الابداع والتقدم لا يحصلان بالاستكانة إلى الواقع ، والاستسلام إلى القوى التي تحتمه ، بل يتضمنان الايمان بالاختيار والحرية والقدرة الانسانية ، والاقدام بفعل هذا الايمان . أجل ! ليس الاختيار والحرية مطلقين ، وليست القدرة الانسانية غير محدودة . ولذا كان فضل هذه الفئة المستسلمة التي نصف ان موقفها يذكر الافراد والجماعات بقيود المحيط الطبيعي والمؤسسات الاجتماعية وحدود الطبيعة البشرية ذاتها ، فلا يتملكهم الغرور ولا يتحكم بهم الخيال ، ولا يعتقدون خطأ ان بيدهم القدرة الشاملة ، أو ان الحياة تخضع لرغائبهم كل الخضوع . ولكن التذكير بالقيود والحدود شيء ، والوقوف عندها والاستسلام لها شيء آخر . ومن هنا كان ، على العموم ، عجز هذه الفئة عن الاسهام الخصب في النتاج الحضاري وفي التقدم الانساني .

وثمة فئة ثالثة . إنها تؤمن بالاختيار وتسعى وتجهد لتتحكم بمجرى التاريخ ، ولكنها تبذل هذا السعي لايقاف المجرى أو إعادته إلى الوراء . اولئك هم الرجعيون . وهم أيضاً على أنواع . فمنهم من ارتضى بما ينعم به من خيرات ومن نفوذ بارز أو مصلحة قائمة ، فهو يخشى أي تبدل أو تغير إذ يرى فيه خطراً على نعمه وخيراته وخسراناً لنفوذه ومصالحه . إن موقف هؤلاء ازاء الحركات الاصلاحية أو النهضات التحررية ظاهر بيّن في خلال التاريخ ، كما ان من الظاهر البيّن أيضاً انهم إن استطاعوا أن يحتفظوا بمكانتهم ويحموا مصالحهم زمناً فانهم لا يستطيعونه أبداً ، وانهم ان تمكنوا من الوقوف في وجه التاريخ المتبدل والحياة المتطورة فلحين محدود وأمد محصور . وقد ضاق هذا الأمد في الاحقاب الاخيرة بعد أن تنبه الافراد والجماعات والشعوب إلى حقوقهم ، وبعد أن انتشر الوعي والتحفز إلى الانطلاق والتحرر والتجدد ، وبعد ان قويت الثورة على كل من يقف حجر عثرة في الطريق أو من يسعى إلى صد المجرى المتدفّق .

ومن هذه الفئة الثالثة اولئك الذين يسعون ، عن عقيدة وايمان ، لا إلى ايقاف مجرى التاريخ فحسب ، بل إلى اعادته القهقرى . لقد سطت على شعورهم وعقولهم صورة عصر ذهبي ماضٍ ، واعتبروا ان كل ما جاء بعده تدهور وانحطاط ، وان شر الحياة الحاضرة وفسادها إنما هما في تحولها عن صور ذلك العصر وابتعادها عنه . قد يكون هذا العصر عند البعض ، كما كان عند الفيلسوف الفرنسي روسو ، حياة الطبيعة البدائية « الحرة » ، أو قد يكون عصر بركلس الذهبي في آثينا ، أو عصر الخلفاء الراشدين في المدينة ، أو عهد رسل الكنيسة وآبائها ، أو عصر النهضة في أوروبا ، أو غير هذا وذاك من عهود التاريخ القومي أو التاريخ الانساني الزاهية الألوان الخصبة الانتاج . ويهون الأمر ، بل يصبح مفيداً جداً ، لو ان هؤلاء المتلفتين ركزوا اهتمامهم على الحيوية الفاعلة في تلك العهود

وعلى الدوافع الخلقية والعقلية والروحية التي أدت إلى الانتاج والابداع فيها . ولكنهم في أغلب الاحيان يطمحون إلى ان يستعيدوا ، مع الروح الباعثة ، الاشكال التي اتخذتها الحياة في تلك العهود ، والنظم الاجتماعية التي كانت سائدة فيها ، والاحكام والقوانين والتقاليد والاساليب التي تمثلت بها . وهم يجهلون أو يتجاهلون أن هذه كلها مرتبطة بدرجة التطور العقلي التي بلغتها المجتمعات في تلك الآونة ، وانها خاضعة لسنن التبدل والتحول ، وانه لا يمكن استعادتها كما كانت ، وان كل جهد من هذا القبيل جهد فاشل عقيم .

إن الاختيار الذي تتخذه هذه الفئة اختيار خاطئ ، واعتزامها إعادة الماضي بصوره وأشكاله يرهق الحياة ويناقض طبيعتها ، وقد اظهرت التجربة الانسانية جدبه واستحالة تحقيقه . وقد اظهرت هذه التجربة أيضاً ان الابداع التاريخي لا يأتي عن الخضوع المطلق للتاريخ ، بل يتطلب نوعاً من التحرر يتيح للمرء ان يرتفع فوق التاريخ وان يحكم فيه فيميز بين الاصيل الباقي من تراثه والطارئ المتغير من أحواله وصوره وأشكاله . إن العمل التاريخي ، الذي فيه صنع للحياة الجديدة ، يتضمن ادراكاً لحدود التاريخ وقيوده ، كما يتضمن اختياراً للانعتاق منها وعزماً على تخطيها .

وهناك فئة رابعة يناقض موقفها هذا الموقف الذي وصفنا مناقضة تامة . فهي تعيش بكل جوارحها وأفكارها في المستقبل الآتي ، لا في الماضي المنقضي . تستهويها صورة عصر ذهبي مقبل ، لا عصر ذهبي فائت . إنها ثائرة على الماضي ثورة شاملة جارفة . وإذا كانت الفئة السابقة تمثل « التاريخية » المطلقة ، فان هذه الفئة تمثل « المستقبلية » المطلقة . انهما تتشابهان في روحيتهما وحدّة شعورهما وعنادهما . كل منهما مؤمنة بغايتها ، وبسبيل الخلاص الذي اختارته . كل منهما مجاهدة في سبيلها . على ان السبيلين متناقضان متعاكسان ، ولا امكان للاتفاق الجوهري بين الفريقين ، لأن موقف كل منهما منافٍ لأي تقارب أو اتفاق .

لقد كانت هذه الفئة « المستقبلية » في طليعة الحركات الثورية في التاريخ — الثورات السياسية والاجتماعية والفكرية — وكان دأبها القضاء التام على الماضي وتقويض أركانه ودعائمه في سبيل بناء حياة جديدة . ولئن قامت بدورها الذي تتطلبه سنة الحياة المتوثبة المتجددة — دور تقويض الاوضاع والنظم القديمة — فكثيراً ما أحدثت ردة استعاد بها الماضي نفوذه بشكل جديد ونحو مغاير . ذلك انه لا يمكن ان ينقض التاريخ نقضاً تاماً ، ولا بد لقواه المتراكمة من ان تعود فتحدث فعلها مهما اشتدت ثورتنا عليها وانكارنا لها . فالحياة تعاقب بين الثبات والتغير ، بين الاستقرار والثورة : كل ثورة فيها تؤدي إلى استقرار جديد ، كما ان كل استقرار لا بدّ من ان يحمل في طياته بذور ثورة مقبلة .

إن عمل هذه الفئة عمل تاريخي وابداع تاريخي من بعض وجوهه ، فهي مؤمنة بالاختيار ، حاسمة في اتجاهها ، متطلعة إلى الامام ، ضائقة ذرعاً بالقيود والحدود ، محاولة الانفلات منها وتخطيها . ولكنها تنكر صفة أساسية من صفات الانسان ، وهي تاريخيته ، وتناقض سنة من سنن الحياة ، سنة التماسك والترابط والتراكم . ولذا تقصر عن الصنع التاريخي المكتمل والابداع التاريخي الناضج . ولئن كانت تقترب من هذا وذاك أكثر مما تقترب الفئات الثلاث الاخرى ، بما تمهد لهما من سبل وتخدم لهما من اغراض ، فهي تقف دون تحقيقهما تحقيقاً تاماً وتعجز عن الارتفاع إلى مراتبهما السامية .

●

فما هو اذن الصنع التاريخي الصحيح ، الذي جعلناه محور حديثنا في هذا الفصل ، ومن هم الافراد أو الفئات المؤهلون له القادرون عليه ؟

لقد اهتممنا في الفصول السابقة بـ « التأريخ » ، بأوسع معاني هذا الجهد العقلي وأشملها ، فحللنا أهدافه ووسائله : صناعة وتفكيراً وثقافة ، وبيّنا ثماره . ولكننا لاحظنا ، في مطلع هذا الفصل ، ان الانسان ليس كائناً مفكراً

فحسب ، بل هو كائن عامل كذلك . بل نقول ان الحياة هي تفاعل دائم بين الفكر والعمل ، يبعث احدهما الآخر ويسنده ويقويه ، وكلما كان الفكر رشيداً نيراً حكيماً والثقافة غنية خصبة كان العمل أشد احكاماً وأوفى عائدة ، وبالعكس ان العمل المحكم المنتج يساعد على اختبار الفكر ونقده وضبطه . وهكذا إذا صفا الفكر وضبط العمل رقي كل منهما بفعل الآخر ، ورقيت بهما الشخصية الانسانية : الفردية والاجتماعية .

ولما كنا قد بحثنا في العناية التأريخية وحاولنا ان نصف كيف يكتسب الانسان التفكير التأريخي الراجح النير ، فقد وجب علينا ان نكمل هذا البحث بالنظر إلى الانسان العامل المنشئ الحياة الصانع التاريخ ونرى أية علاقة تقوم بين العمل التاريخي ، والجهد الفكري التأريخي .

اننا نعني بالعمل التاريخي — أول ما نعني — العمل الذي له أثره البيّن في مجرى التاريخ . والواقع ان هذا المجرى يتكون من جميع الاعمال الانسانية على اختلاف مداها وقدرها وخطرها . فسيرة الفرد هي خلاصة أعماله المتتابعة ، وسيرة الجماعة أو الامة نتيجة الجهود التي بذلها أعضاؤها : افراداً ومجتمعين ، وسيرة الانسانية عامة هي المجرى الذي تجتمع فيه هذه السير الفردية والجماعية والقومية . ولكن من المعروف ان بعض هذه الموارد أكثر فعلاً وأبهى لوناً من سواها وان بعض الجهود والاعمال أقوى اثراً وأبعد مدى وأبقى ذكراً . ولذا بدأنا تعريف العمل التاريخي بقولنا انه ذلك العمل الذي يخلف اثراً بيّناً في مجرى التاريخ .

ولكن قوة الاثر ليست بذاتها الصفة المثلى أو الغاية المرجوة . فلكم من فاتح قاد جحافله إلى المدن الآمنة وسلط عليها غضبه أو اطماع اتباعه ، فعاث فيها فساداً واعمل في سكانها تقتيلاً وتشريداً ، وفي معالمها وحضارتها تهديماً وتبديداً . فكان له حقاً اثره القوي ، ولكنه اثر سلبي لا ايجابي وفعل في تفكيك الحياة ونقضها بدلاً من ان يكون في انشائها وابداعها . وكم من طاغ مستبد استطاع ان يتحكم بشعبه زمناً وان يسلبهم نشاطهم ويشلّ

حيويتهم ويمنعهم من الاكتساب الحضاري أو من الخلق والانتاج . وكم من هبة جماعية هزت ما حولها واجتاحت كل ما في طريقها دون تمييز بين النفيس والتافه ، والعظيم والحقير ، والنافع والضار ، فأضاعت الكثير من مكاسب المدنية ومفاخر الحضارة .

إن لبعض قوى الطبيعة أيضاً فعلها القوي : فالبراكين تلقي بحممها على ما حولها فتحرق وتهدم وتميت ، والهزات الارضية تقوض العمران وتبتلع الحياة ، والعواصف الهوجاء تذهب في أيام أو ساعات بجهود سنين أو أجيال . والفيضانات والاوبئة وأمثالها من « غضبات » الطبيعة أبادت في الماضي الملايين من بني الانسان وأضاعت نتائج جهودهم ، وما زال لها فعلها الساطي وخطرها القائم في بعض اصقاع الدنيا .

أجل ! ان قوة الاثر في الاعمال الانسانية – شأنها في الظواهر الطبيعية – ليست الصفة المبتغاة . وإنما ما يبتغى هو ان يكون الفعل موجهاً إلى الانشاء لا إلى الهدم ، إلى بعث الجهد لا إلى تبديده ، إلى صنع الحياة لا إلى نقضها . ما يبتغى هو ان يكون في العمل تحقيق ايجابي ، وارتقاء في مراتب الكيان ، وكسب وابداع . فالعمل التاريخي المقصود هو العمل المبدع . والابداع ، لا شك ، على مراتب ودرجات ، والاعمال التاريخية تختلف في ما تحققه منها ، ولكنها لا تدخل في صلب التاريخ الباقي ولا في نسيج الحضارة إذا لم تتميز بنوع من الابداع وصفة من صفاته .

فكيف يحصل العمل التاريخي المبدع ، وما هي متطلباته ، وما هي مؤهلات الفرد أو الجماعة التي تقوم به ؟؟

●

أول متطلبات العمل التاريخي المبدع **صحة الاحساس بالحاضر وحدّة** هذا الاحساس . فلقد ذكرنا في بدء هذا الفصل ان الانسان الحي الفاعل هو الذي يشعر بما يعترضه من مشكلات ، والذي تثير هذه المشكلات في نفسه قلقاً ونزوعاً واهتماماً . وكلما ارتفعت مرتبة هذا الشعور ، عظمت

مؤهلات الانسان للعمل الجليل المبدع . وتتوقف مرتبة هذا الشعور وقيمته على الصفتين اللتين ذكرناهما : صحته ، وحدّته . فالمشكلات التي تجابه الانسان ، وامته ، والانسانية جمعاء ، على أنواع : منها الأصيل والدخيل ، والخطير والتافه ، والعام والخاص ، والباقي والزائل ، وما إلى ذلك من أنواع وأجناس . والاحساس الصحيح بها هو الذي يحسن التمييز بينها ، ويرتبها مراتب ودرجات بحسب أولويتها وقيمتها وأثرها ، كي لا يضيع الجهد في معالجة الطفيف الضئيل دون العميق الاصيل ، وكي تأتي هذه المعالجة محكمة حاسمة . ولكم تبذل الجهود في الوجوه الخاطئة أو الناقصة، فتتبدد الآمال ، بل تنقلب يأساً وانتكاساً . ولذا كانت قيمة العمل التاريخي المبدع متوقفة على قدرة صاحبه على هذا التمييز المطلوب ، وعلى وضع المشكلات التي تجابهه وتجابه مجتمعه في مواضعها الصحيحة ، وتبين أنواع الاختيارات التي ترتسم أمامها في المدى القريب والمدى البعيد .

وقد يكون هذا الاحساس صحيحاً دون أن يبلغ الدرجة المطلوبة من الحدة والدقة ، كما هي الحال عند فريق من المفكرين المتجردين الذين يحسن رأيهم ولكنه لا ينفذ إلى أعماق نفوسهم ولا يثير فيها القلق الملح والتوتر العنيف . أما العمل التاريخي المبدع فيتطلب من صاحبه ان يحيا حاضره حياة قوية عميقة ، فتخفق نفسه بما يضطرب به مجتمعه وجيله من آمال وآلام ، ومن أفراح ومآسٍ ، وينبض قلبه بما يحققانه من كسب وانتصار وبما يصيبهما من اخفاق وانهزام . فهو أبداً ابن الحاضر يستقي من منابعه ، ويكتوي بناره ، ويحسه في كل جارحة من جوارحه وفي كل خلجة من خلجات ذاته . إنه أمين للحياة التي يحياها ، فلا يهجرها ولا يتهرب منها إلى عالم خيالي ماضٍ أو مقبل ، بل يشعر بارتباطه الوثيق بها وتعلق مصيره بمصيرها ، ويدرك بالتالي مسؤوليته ازاءها .

وبمجرد قولنا ان الانسان الفاعل المبدع يدرك الاختيارات التي تتجلى أمامه وأمام مجتمعه فقد ألمحنا إلى صفة ثانية من صفاته : هي تطلعه الى

المستقبل واقدامه عليه . إن المبدعين في التاريخ كانوا أبداً متطلعين إلى الامام ، كانوا روّاداً مقدمين مغامرين . لقد تبينوا مُثلاً جديدة فطمحوا إلى بلوغها وتمخضت نفوسهم بآمال ضخمة فنهضوا لتحقيقها . إنهم المكافحون المناضلون الذين قادوا مجتمعاتهم في ميادين الحرية ومعارك الدفاع عن المبدأ والعقيدة . إنهم الروّاد الذين جابوا البراري وقطعوا البحار وتجشموا الاخطار مابين نداء المجهول مستكشفين عوالم جديدة . إنهم العلماء المدفوعون بقوة خفية إلى الغوص على حقائق الكون واستكناه أسرار الوجود . إنهم الشعراء يحدوهم التوق إلى مواطن الجمال والتشوف إلى اقتناص بدائع الصور . إنهم المصلحون تجذبهم مثل الخير الرفيعة فينهضون بمجتمعهم اليها . إنهم الانبياء يبعثون الحياة بعثاً جديداً ويهدونها سبل الكرامة والخلاص . ان هؤلاء جميعاً – وسواهم من المبدعين – لم يكونوا من الحيارى المترددين ، ولم يغرقوا كل الغرق في ماضيهم وحاضرهم ، بل توجهوا قدماً بعزم وثبات نظر ، مؤمنين مغامرين ، يشعرون بقوة خفية تدفعهم لمنازلة القدر وصنع التاريخ .

على ان العمل التاريخي المبدع المنبثق من أحاسيس الحاضر ومن رؤى المستقبل **يظل ذا صلة بالماضي** . وصلته هذه صلة ادراك ، وحكم ، واستلهام ، وتسام . فهو يقوم على رغبة صادقة ملحة في معرفة هذا الماضي كما وقع فعلاً ، ولا يرضى بالتوهم والتخيل والتصور بدلاً عن الادراك الصحيح وعن كشف الحقيقة . والمؤهل لهذا العمل التاريخي شغوف بالحقيقة متطلع اليها لأنه لا يريد ان يخدع نفسه أو أن يخدع سواه ، ولأن له من صلابة عقيدته ومتانة ايمانه ما ينفي من نفسه كل خوف من مجابهتها ، ولأنه يعلم ان خداع النفس لا يجدي ، آخر الأمر ، ولا يفيد بل يؤدي حتماً إلى الخيبة والخسران .

إن من طبيعة هذا الادراك اذن ان يؤدي إلى الحكم في الماضي : في ما له وفي ما عليه . إنه يميز بين عناصر الماضي الايجابية وعناصره السلبية .

بين المغانم الحقيقية التي غنمها والحدود التي وقف عندها ، بين ما استطاعه وما عجز عنه ، بين الأصيل الباقي من تراثه والاشكال الطارئة لهذا التراث الخاضعة لسنن التبدل والتطور ، بين العوامل التي دفعت بـه إلى الانتاج والرقي والتقدم وتلك التي اضعفت حيويته واوقفته في مسيره وأخرته عن قيادة الركب بل عن مماشاته ، بين القوى والدوافع التي أدت إلى النمو والتكامل والنضج وتلك التي جرّت إلى الشلل والتفرق والانحلال . وبكلمة موجزة ان هذا الادراك ، والحكم الناتج عنه ، يبيّنان حقيقة « التراث » : (التراث القومي ، والتراث الإنساني) ، فيشدّان صاحبهما إلى جوهره ويوصّلانه فيه ، ويحررانه ، من جهة ثانية ، من أشكال الماضي العابرة ، ويغذيان في نفسه الثورة على كل ما خلفه من قيود وحدود ومن عناصر تعيق عن التغلب على مشكلات الحاضر وتحقيق رؤى المستقبل .

فالذي يقوم بالعمل التاريخي هو اذن ، كما قلنا في فصل سابق ، متأصل ومتحرر بالوقت ذاته . انه متركز في التراث الايجابي والكسب الحضاري مستلهم إياهما في ما يفكر فيه ويعده ويقدم عليه ، وهو أيضاً ثائر على عوامل الضعف والتأخر والانحلال في الماضي ، طامح إلى تخطي هذا الماضي والتسامي عليه . انه امين لماضيه : امين في تمسكه بتراثه الأصيل ، وامين كذلك في ثورته على ما في ذلك الماضي من قيود ونقائص . وذلك لأن التراث الاصيل هو ، عند التحقيق ، من صنع اولئك المبدعين الذين كانوا في زمانهم متطلعين إلى الامام ، ثائرين على القيود والحدود ، طامحين إلى تخطيها ، عازمين على ان يجعلوا مستقبلهم خيراً من ماضيهم وأجلّ وأجمل .

ويتجلى من هذا ان العمل التاريخي المبدع هو النتاج الصحيح للماضي ، لأنه متصل بلب الماضي وجوهره : وما هذا اللب والجوهر سوى التراث الايجابي ، القومي أو الانساني ، المتكون من خلاصة الاعمال التاريخية المبدعة في ماضي الأمة ، أو ماضي الانسانية جمعاء . وصانع التاريخ ،

الطامح إلى ابداع الحياة الجديدة بتخطي الماضي ، هو في الواقع الابن الحقيقي لذلك الماضي ، لأنه وارث اصالته ووارث كذلك ما تجلى فيه من ثورة وتخطٍ وتسام وابداع .

ولنؤكد هنا ما ألمعنا اليه قبلاً من ان الانسان الحي الفاعل ، صانع التاريخ ، ليس « مستقبلياً » مطلقاً سابحاً في الرؤى والاحلام ، ولا « حاضرياً » مطلقاً غارقاً كل الغرق في ما حوله من مشكلات ، ولا « تاريخياً » مطلقاً يحن إلى الماضي ويبغي ان يرجعه كما كان . وإنما هو يعيش في توتر دائم بين الحاضر والمستقبل والماضي ، تتفاعل ذاته وإياها جميعاً بادراك متزن صحيح ، وبشعور دقيق نافذ ، فيكون من اثر هذا التفاعل العمل التاريخي المبدع ، الأمين للماضي ، المتسامي عليه ، المتغلب على الحاضر ، المخطط للمستقبل ، الداخل في صلب الحضارة ، المسهم فيها ، المتشوق إلى من يأتي بعده ويتخطاه في مجالات الصنع والابداع والاسهام الحضاري .

ومن الطبيعي ان صانع التاريخ هذا لا يستطيع تحقيق كيانه وبلوغ هذه المرتبة التي نصف إذا لم يشعر بقدرته على الاختيار وإذا لم يكن مستعداً لتنفيذ اختياراته . فالذي لا يرى السبل المختلفة المرتسمة أمامه ، ولا يثير هذا الاختلاف قلقاً في نفسه ، ولا يحس ان عليه ان يختار بينها ، وان يعتزم ويقرر ، وانه قادر على هذا ومسؤول في نهاية الامر عنه — الذي لا يتصف بهذه الصفات أو ليس مؤهلاً لها يقصر عن الارتفاع إلى مرتبة العمل التاريخي ويظل تابعاً يجر قدميه في مؤخرة الركب ولا يتوصل إلى مقدمته . وشعور المرء بحريته الذاتية كانسان — بأنه مخير لا مسير — شرط أساسي من شروط اقدامه وابداعه وتأثيره في مجرى الحياة . ومن هنا تتبين خطورة تنمية هذا الشعور في افراد المجتمع ، إذ هو ، من ناحية ، عنصر رئيسي من عناصر انسانيتهم وكرامتهم الذاتية ، ومن ناحية أخرى ضرورة لبروز قابلياتهم كمفكرين عاملين مبدعين . فاذا أقفل صانع التاريخ هذه الابواب على ابناء مجتمعه ، ومنعهم من اكتساب شعورهم

بالحرية والاختيار والقدرة وارادهم تابعين مقلدين وأدوات تنفذ ولا تختار ، فقد سد أمامهم سبل الابداع وانضب منابعه فيهم ، وحال دون قيامهم بالاعمال التاريخية الباقية الاثر الدافعة إلى استمرار الكسب وتنمية نتاجه . ولا شك في ان قيمة أي مجتمع وقدرته على المحافظة على كيانه والسمو بهذا الكيان — ان هذا كله يتوقف على مقدار ما يضم من أفراد قد حققوا انسانيتهم بحسن ادراكهم لمعاني الحرية والاختيار والاعتزام واتخاذ المواقف والقرارات ، وصحة تطبيقهم لهذه المعاني في ما يقدمون عليه من تفكير وتخطيط وعمل وتنفيذ .

وصانع التاريخ ، الشاعر باختياره وقدرته ، العامل على تنمية هذا الاختيار والقدرة في سواه ، شاعر ايضاً بحدوده . ذلك انه ليس ثمة قدرة انسانية مطلقة . ففي الوقت الذي يشعر فيه الفرد — مهما عظمت صفاته وجلّ عمله — بانه أصبح على كل شيء قدير ، فقد بدأ يسير في طريق الشطط والزلل وبدأ ابداعه ينقلب مضرة وخطراً . وفي الوقت الذي تأخذ أية جماعة أو أمة — مهما تعلُ منزلتها — في تأليه ذاتها ، فقد انحرفت عن جادة الصواب ، وأصبح اثرها يتجه إلى الشر والفساد بدلاً من ان يكون عامل نمو ورقي ورشاد .

وحدود الانسان ناشئة عن ضعف طبيعته ، وعن نقائص ذاته . فانه يأتي إلى هذا الوجود عبداً لشهواته وميوله ورغائبه وتظل هذه تفعل فيه طول حياته . وسبيل تحرره منها وتحويله إياها إلى مقاصد الخير والفضيلة سبيل طويل شاق يقتضي التعلم المستمر والتثقف الدائم والسهر ومراقبة النفس أشد مراقبة ومحاسبتها أقسى محاسبة . ولذا يفرض على الانسان ان يكون في صراع داخلي لا يهن ولا يهدأ ، فاذا زاغ بصره أو فترت همته عادت الشهوات والاطماع فتملكته وتنكبت به عن سبل الحق والخير . ولعل هذا الاضطراب الذي نعيش في خضمه في هذا العصر الحاضر مرده إلى اعتداد الانسان الحديث بنفسه ، الذي تملكه منذ عصر النهضة ، وإلى

مغالاته في الثقة بقدرته وجبروته ، واغتراره بما حقق من فتوح في حقل الاكتشاف والاختراع ، وتغاضيه عن حدوده ونقائصه ، حتى أخذت هذه النقائص تفرض ذاتها عليه وعلى المدنية التي شادها فتشيع في دنياه الاضطراب والارتباك وتعرض مدنيته لخطر التفكك والانحلال . فحري بمن يقدم على العمل الجليل ان يجمع إلى الايمان بحريته واختياره وقدرته التنبه اليقظ إلى ما يقيد هذا كله ويضعفه ، كي لا يغفل عن مكافحة الضعف وعن التحرر ما أمكن من القيود ، وكي لا يدعي لنفسه فوق ما هو خليق به وقادر عليه . وهنا أيضاً نلاحظ كيف ان هذا الانسان الحي الفاعل يشعر بتوتر داخلي يظهر بمظهر آخر غير المظهرين اللذين ذكرناهما سابقاً (بين « المستقبلية » و « الحاضرية » و « التاريخية » ، وبين الخير والشر المتأصلين في طبيعته) ، ونعني به هذا التوتر بين الاحساس بالقدرة والاحساس بالحد ، بين عزيمة المغامرة وادراك المدى الذي تنحصر فيه ، بين الثقة الزاخرة بالنفس والتواضع الذي يمليه الاختبار ، بين تملك الايمان وهيبة التبعة . ومن طبيعة هذا التوتر — عندما يكون صادقاً واعياً نيراً — ان يؤدي إلى اعلاء مرتبة الكيان الانساني وتعزيز انتاجه وتوفير ابداعه .

ومن هنا تتبين لنا الصفة الاخيرة من صفات صانع التاريخ التي نود الاشارة اليها في هذا المجال . لقد ذكرنا ان هذا الفريق من بني الانسان قد أحسن ادراك التاريخ الماضي حتى استطاع ان يحكم له وعليه . ولكننا نراه ، من جهة أخرى ، شاعراً **بانه هو ذاته خاضع لحكم التاريخ** . إن احساسه بالمشكلات الحاضرة وبضرورة حلها على ضوء رؤى المستقبل وبروح الامانة للتراث الماضي ، وشعوره باختياره وقدرته وبقيوده وحدوده — ان هذا كله يملأ نفسه روعاً وتهيباً . فإذا به يقدر جلال المهمة وثقل التبعة ، وإذا به يرى ما لا يراه غيره من ان التاريخ حاكم قوي المراس لا يهن ولا يلين ، وانه يعدل ولا يرحم ، وان الاجيال القادمة واقفة لنا جميعاً بالمرصاد وان الامتحان الذي سنجوزه سيكون شاقاً عسيراً .

إن صانع التاريخ الحقيقي يهمه ــ كأي انسان ــ ان تسجل له الاجيال القادمة روائع العمل ومفاخر العز والابداع . ولكنه لا يرمي أولاً إلى هذا ، بل إلى ان يرضي ضميره بأنه أحسن القيام بمهمته والنهوض بتبعته ، وبأن عمله سيؤدي إلى خير الاجيال القادمة وسيسهم في تحقيق القيم الانسانية وتعميمها . انه قلق دوماً لأنه حريص على ان يكون عاملاً من عوامل دفع التاريخ لا من عوامل ايقاف عجلته وتأخير سيره . وفي هذا القلق ذاته الناشيء قبل كل شيء عن دقة احساسه بمسؤوليته ، سر عظمتــه وجلال قدره .

وهنا أيضاً نعود إلى المبدأ الذي ذكرناه في ما مضى ، وهو ان الحرية تكتسب أسمى معانيها وترتفع إلى أعلى مراتبها عندما تغدو احساساً بالتبعة وشعوراً بالمسؤولية . ولعل أعظم الصفات التي ينتج عنها العمل التاريخي المبدع ، والتي يرتفع بها الكيان الانساني إلى ذروته ، هي صفة الحرية التي هي في الوقت ذاته مسؤولية ، والتي يمارس بها المرء اختياره تحت وطأة الضمير الساهر اليقظ ، الشائع اثره في الشخصية بكاملها .

●

ولا بد لنا قبل أن نختم القول في متطلبات العمل التاريخي المبدع وفي الصفات التي يتحلى بها صاحبه من ابداء ملاحظتين ايضاحاً لبعض المعاني التي حاولنا التعبير عنها . فلقد يتبادر إلى ذهن القارئ اننا نحصر « صنع التاريخ » بفريق خاص من المبرزين من بني البشر ، فريق قادة السياسة والحرب الذين يحرزون الانتصارات الرائعة في هذه الميادين ويحدثون في الارض دوياً تردده الاجيال التالية . وقد يظن اننا نرمي إلى تأليه هؤلاء الافراد ، أو إلى الدعوة إلى تمجيد هذا العمل دون سواه . ونحن لا ننكر للفاتحين وأرباب السيف وقادة السياسة اثرهم القوي وذكرهم المدوي ، ولكننا ننكر ان يكون هذا الاثر في جميع الاحوال اثراً مبدعاً ، وان تكون أعمالهم وفتوحاتهم قد أدت حتماً إلى الرقي والتقدم ، فمنها الكثير

الذي هدم المعالم ويبدد المكاسب ونشر الدمار . ونؤكد انهم لم يأتوا بابداع إلا بقدر صحة الفكرة التي ناضلوا من أجلها وسمو العقيدة التي كافحوا تحت رايتها وبقدر أمانتهم للفكرة وخضوعهم للعقيدة وتلبية نفوسهم لصوت الضمير واحساسها بنبل المسؤولية وخطرها .

كما ان صنع التاريخ لا يقتصر على هؤلاء . فثمة ، كما ذكرنا ، العلماء الذين يستهويهم المجهول ويقلقهم الجهل ، فيندفعون للبحث عن الحقيقة ويجدّون ويكدحون لاكتشافها ونشرها بين الناس . وهنالك الفلاسفة الذين يربطون أجزاء المعرفة بعضها ببعض ويتحرون المعاني ولا يفترون في سعيهم إلى جواهر الاشياء وعللها وإلى معرفة أسرار الكون وما وراء الكون ، والشعراء وسواهم من أرباب الفنون الذين يتطلعون إلى مُثل الجمال ويطمحون إلى رفع نفوسهم ونفوس سواهم من البشر اليهـا . وهنالك ارباب الاختبار الروحي الذين يحاولون جهاد النفس واقتحام سيرها الشاق العسير في سبيل الرفعة والصفاء ، والمصلحون الاجتماعيون العاملون في إقامة مجتمعاتهم على أسس المبادئ والعقائد ، بل هنالك كل رائد في ميادين العمل أو الفكر يؤدي جهده إلى نوع من أنواع الخلق والتجديد والابداع .

إن سر العمل التاريخي ليس اذن في قوة الاثر ذاتها ، بل في ما ينطوي عليه من ابداع . والابداع ليس محصوراً بفئة من الناس دون سواهم . وإنما نجده حيث يكون ارتقاء كياني واكتساب حضاري ، وبقدر مـا يؤدي اليه هذا الاكتساب والارتقاء من اشاعة معاني الكرامة الانسانية ومؤهلات الابداع في أفراد المجتمع وتحقيقها فيهم وفي المجتمع عموماً .

أما الملاحظة الثانية التي نود ابداءها فهي ان العمل التاريخي المبدع ليس مقصوراً على الفرد ، بل يكون أيضاً من نصيب الجماعة من الناس . وقلّ بين الافراد المبدعين من لم يكن في ابداعه فرداً من جماعة : قـد يكون هو رائدهم وقائدهم ، وقد يفوقهم قدراً ومرتبة ، ولكن إذا لم

يكن له ممن حوله من يشاركه في ايمانه ، ومن يحس بمشكلات الحاضر ويرى رؤى المستقبل مثلما يحس بها هو ويراها ، ومن له مثله حظ من القابلية للتصميم والاختيار ، فمن الصعب ان يكون لعمله القدر المرتجى والاثر المنشود . والامة جماعة من الجماعات ، وهي مؤهلة شأن سواها من الجماعات للاعمال التاريخية المبدعة . ولذا نرى الأمم تختلف فيما بينها بمقدار ما توفر لأنفسها من الأهلية والاستعداد ، وتؤمن بهما ، وتصرفهما في مجالات الانتاج والابداع .

الافراد ، والجماعات المؤتلفة ـ كائنة ما كانت ـ هم الخمائر التي ينبعث منها العمل الابداعي إلى محيطه وعالمه ، والمنائر التي تشع منها الرؤى ، والموارد التي تنطلق منها قوى الاختيار والتحقيق . فبقدر ما تكون الخمائر غنية والمنائر مضيئة والموارد زاخرة ، يكون المجتمع الذي يضمها مجتمعاً فاعلاً ، ناهضاً بالاعمال التاريخية الجليلة ، ايجابي الاثر في اسهامه في الابداع واغنائه للحضارة .

وثمة كلمة أخيرة . لقد ذكرنا في بدء هذا الفصل ان الانسان كائن عامل مجابه للمشكلات متميز بالاختيار ، وان انسانيته تقاس بمقدار ما يكتسب من هذه الصفات وبنوعها ومرتبتها ، وان هذا القياس ذاته ينطبق على الجماعة والأمة . والذي نريد ان نثبته هنا هو ان بعض الظروف والاحوال التي يجوزها الافراد والجماعات والامم أدعى من سواها إلى تنمية هذه الصفات وابرازها. فهذه الاحوال تختلف يسراً وعسراً ، وبساطة وتعقداً ، وأمناً وخطراً . ولقد دل التاريخ على ان الاحوال المعقدة العسيرة الخطرة تنبه الناس إلى ما يجبههم من مشكلات وما يرتسم أمامهم من سبل الاختيار أكثر مما تفعل الاحوال الوادعة اليسيرة الآمنة . ومن هنا فضل الشدائد والازمات التي تنزل بالافراد أو بالامم . إنها تسبغ على المشكلات حدة وبروزاً وتبعث فيها قوة ضغط وشدة إلحاح لا نشاهدها في ظروف اللين والاستقرار . ان الذي يختبر أزمة من الازمات ويعيش تحت وطأتها يحس بالمشكلات

ترتسم في ذهنه بارزة حافزة ملحة ، ويرى السبل تتفرع وتتشتبك أمامه فيشعر بقوة خفية صارخة تدفعه إلى الاختيار وإلى اتخاذ القرارات وتعيين المواقف ، ويدق ادراكه لخطر هذا الاختيار وللمسؤولية المترتبة عليه . ويكون من فعل هذا كله ان يشتد التوتر الذي يصطرع في نفسه ويسمو ويخصب — التوتر بين متطلبات الحاضر ورؤى المستقبل وتراث الماضي ، وبين القدرة وحدودها ، وبين الحرية والمسؤولية — فتنمو قابليته للعمل التاريخي الحاسم المبدع .

إن أيام الازمات هي أيام العزم والتصميم . وبهذا تساعد على الاعمال التي توجه الحياة توجيهاً جديداً فيكون منها صنع للتاريخ . ولكن دون ذلك شرطين أساسيين : اولهما ان يشعر الفرد أو المجتمع بالازمة وان يصل فعلها إلى أعماقه . فلكم من شدائد تصيب الافراد والجماعات ، وكم من ازمات تحيق بهم ، فلا يكون لها في نفوسهم صدى ولا تترك فيهـا اثراً . وكم من شعوب نزل بها الظلم ، فلم تشعر بظلم ، أو حلت بها المصائب فاستسلمت لها . وما ذلك إلا لأن حيويتها كانت مشلولة ، وادراكها كان سادراً مخدراً ، ومنابع قوتها ونشاطها كانت ناضبة . فما كانت خليقة بالأزمات التي مرت بها ، ولا مؤهلة لفعلها الحافز المنبه . بل ان الازمات لا توجد حقاً ، ولا يصح ان ندعوها بهذا الاسم ، إذا لم يكن اولئك الذين تصيبهم قد أحرزوا حظاً من التنبه والاحساس بالمشكلات والنقمة على الحال التي يرسفون بها . عندها تفعل الازمة فعلها في تقوية الحس وزيادة حدته ، واثارة النفس على الاوضاع ودفعها للاختيار والتبديل وسلوك السبل الجديدة .

على ان الاختيار لا يكون ضرورة للخير ، والتبديل لا يعني حتماً التطور والرقي والتقدم . وهنا يبرز الشرط الثاني . وهو ان يكون الفرد أو المجتمع مؤهلاً للتمييز بين الغايات والتفضيل بين الوسائل ، بما اكتسب من علم ، وما اختزن من خبرة ، وما أدرك من القيم التي بها يستطيع

التمييز والتفضيل . ولذا كان العمل التاريخي المبدع منوطاً بهذه القابليات كلها ، وبما سبقها ونماها من جهد وسعي ، ومن كدٍ وجد في سبيل الادراك الصحيح والرقي الذاتي . وتأتي الازمات فتفعل فعلها في تنمية هذه القابليات ، وفي توجيهها إلى الصنع الصحيح .

فلكي يكون الفرد أو الشعب خليقاً بالاعمال التاريخية المبدعة التي تحفز عليها الازمات وتوسع مجالاتها ، يجب ان يكون مؤهلاً لهذه الازمات وخليقاً بها . ولا يمكنه ان يصنع التاريخ أو يتحكم به – في أوقات الازمات أو في سواها – قبل ان يحكم له التاريخ ويجده صالحاً جديراً .

نحن والتاريخ



أ . وضعنا الحاضر

لقد آن لنا ان نلم أطراف هذا البحث وان نجمع خيوطه وان نستخرج منه بعض ملاحظات واستنتاجات تفيدنا في تبين الموقف الذي يجب ان نقفه من تاريخنا بوجه خاص ومن التاريخ الانساني بوجه عام. وقد اشرنا مراراً في ما مضى إلى ان الحياة الانسانية تفاعل مستمر بين الحاضر والماضي والمستقبل، وان الموقف الذي يتخذه الفرد أو المجتمع من تاريخه يرتكز إلى حد بعيد على القوى والمشكلات التي تجبهه في حاضره وعلى الغايات التي يرسمها لمستقبله. ولهذا، لا بد لنا من ان نصف بايجاز حاضر المجتمع العربي تمهيداً للبحث في النظرة التي له، أو بالاحرى النظرة التي يجب ان تكون له، لتاريخه وماضيه. ومن الطبيعي اننا لا نستطيع هنا أكثر من رسم الخطوط الكبرى لواقعنا، لأننا لا نقصد إلى هذا البحث بالذات وانما نتوسله مقدمة وسبيلاً إلى غايتنا: وهي ايضاح علاقتنا بماضينا.

من الواضح البين ان المجتمع العربي اليوم هو في طور انبعاث وتحرك يتمخض بقوى عديدة شديدة تدفعه إلى التبدل والتحول. لقد انتهى الدور الطويل، الممتد على خمسة قرون أو تزيد، الذي كان فيه سادراً بخدراً مستكيناً بفعل عوامل مختلفة، داخلية وخارجية، تضافرت على احلاله تلك الحال من الشلل والاستكانة. وبدأ منذ أوائل هذا القرن — أو قبل ذلك بقليل — دور جديد: دور يقظة وتنبه وتحفز. وسرت قوى التنبه هادئة متفرقة في أول الأمر، ثم أخذت تشتد وتتفاعل وتتجمع، بفعل التطور ذاته وبفعل الاحداث العالمية العنيفة المتتابعة، إلى ان بلغت في

يومنا هذا درجة من الشدة والحدة جعلتها تفرض ذاتها لا على الشعوب العربية فحسب ، بل على انظار الشعوب الاخرى وقادتها أيضاً .

إن هذه القوى ، المنبعثة من مصادرها المختلفة ، تلتقي في اثارة التبرم بالحاضر وبالماضي القريب وفي النقمة على العوامل والظروف الخارجية والداخلية التي أدت اليها ، وفي الرغبة في تبديلها إلى ما هو أقوى وأفعل وأفضل . فثمة نقمة عارمة على التحكم الخارجي وعلى الاستعمار الأجنبي الذي تسلط زمناً طويلاً على أكثر أجزاء الوطن فبسط نفوذه فيها واستغل مواردها واستخدمها أداة لمصالحه ووسائل لغاياته . ولئن تكن البلاد العربية قد تحررت سياسياً ، فلا تزال للاستعمار خططه وأطماعه وأساليبه المتعددة الوجوه والأشكال والمصادر . وكذلك مكّن الاستعمار للحركة الصهيونية العالمية الواسعة النفوذ المتفرعة الجذور من أن تستولي على جزء عزيز من الوطن ، وان تقيم فيه دولة طامعة معتدية ، وما زال يمد هذه الدولة بوسائل الحياة وموارد القوة ، في حين ان ابناء الوطن مشردون عن ديارهم أو راسفون في قيود الحكم الصهيوني والاحتلال العدواني . فلا بدع ، في مثل هذه الحال ، أن تثور النقمة على الاستعمار وعلى الصهيونية ، وأن تجتاح أبناء الأمة الدعوة إلى التحرر منهما ومن آثارهما ، وأن تلتهب الروح الثورية في الجماهير العربية ، وألا يهدأ العرب ولا يستقروا حتى يستعيدوا حقوقهم في فلسطين وحتى يحققوا لأنفسهم أسباب المنعة والسيادة لصيانة كيانهم من شرور الاعتداء من أية جهة جاءت .

ويشعر العرب بأن سبباً هاماً من أسباب ضعفهم وسوء ماضيهم القريب وحاضرهم الذي يطمحون إلى تبديله إنما هو تفرقهم وتشتتهم وتبعثر قواهم وجهودهم . فليس من الغريب اذن ان ينزعوا نزوعاً شديداً إلى جمع الشمل وتعزيز الاتحاد في ما بينهم . وقد اتخذت جهودهم ومساعيهم في هذا السبيل مظاهر عدة ، لم يكتب لها النجاح المنتظر . ولكن التيار الذي تمثله سيفرض نفسه عاجلاً أو آجلاً . ومع انه من الصعب تحديد

الشكل الذي سيتخذه اتحاد الشعوب العربية في المستقبل ، ومع ان هذا الاتجاه نحو الاتحاد يصطدم برواسب داخلية كثيفة موروثة من الماضي وباغراض وعوائق خارجية ، فانه آخذ في التزايد والانتشار ، وسيكون بلا جدال عاملاً من أهم عوامل تطوير المجتمع العربي في المستقبل القريب .

على ان عوامل الحياة ليست منفصلة متباعدة ، وانما هي متصلة متفاعلة ، ولذلك فان هذا النزوع إلى الاتحاد مرتبط أشد ارتباط بالتطور الداخلي في المجتمع العربي . ان التحرر السياسي والاتحاد دعوتان تحمل لواءهما فكرة القومية العربية وحركتها . ولكن التاريخ قد دلنا على ان الحركة القومية – أية حركة قومية كانت – لا تتحقق وتنجح إلا في مجتمع قد بلغ نوعاً معيناً من التطور والانسجام . وبعبارة موجزة مجملة يمكننا ان نقول ان القومية لم تقم في الغرب في مجتمع تسوده أوضاع القرون الوسطى ، بل قامت على انقاض هذه الأوضاع . ان القومية تتعارض والثيوقراطية ، وتتطلب – أول ما تتطلب – علمانية الدولة . ولم تتأصل جذور القوميات في العالم ، ولن تتأصل جذور القومية العربية ، الا على هذا الاساس . وكذلك تتنافى القومية – اية قومية – والاقطاع الذي يحصر قسطاً هاماً من موارد المجتمع في أيدي فئات قليلة نافذة اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً . وفوق هذا تتطلب القومية تطوراً اقتصادياً مبنياً على الآلة وقائماً على جهود الطبقات الوسطى والعاملة ، وتطوراً اجتماعياً ناشئاً عن انتشار العلم والمعرفة ، وتحرير المواطنين من المرض والعوز ، ومن النزعات القبلية والطائفية والمحلية ، ومن الشهوات المصلحية والآفات الاجتماعية والعلل الخلقية .

ليس معنى هذا ان الحركة القومية تقف مشلولة اليد إلى ان تتحقق هذه الشروط كلها . فانها هي ذاتها اداة فعالة في هذا التطور الاقتصادي والاجتماعي والعقلي ، تجعله ، كما تجعل التحرر السياسي والاتحاد ، غاية لها ، بل تنظر إلى هذه الغايات الثلاث في ترابطها وتفاعلها ، فترمي إلى انشاء وطن متحرر متحد متحضر ، وترى ان المعركة ، على تعدد

جبهاتها ، معركة واحدة تؤثر كل جبهة منها في الأخرى ، وان الظفر منوط بنجاح كل منها وبنجاحها معاً .

وخلاصة القول اذن ان المجتمع العربي هو في دور تمخض وانبعاث وفي نزوع إلى تبديل الاوضاع ، وان هذا النزوع والانبعاث يتخذ الطابع القومي الذي يرمي إلى انشاء أمة متحررة متحدة متحضرة . وينتج من هذا ان اصالة الحركة القومية العربية وصحتها وابداعها تتوقف على صحة فهمها لهذه الاغراض الثلاثة : التحرر ، والاتحاد ، والحضارة ، وعلى المقاييس التي تقيسها بها ، والسبل التي تتخذها لها ، وعلى ما فيها من قابليات للنمو والتقدم والسمو ، فكراً وعملاً ، تخطيطاً وتنفيذاً ، في هذه المجالات كلها.

●

ومما يتصف به الوضع العربي الحاضر النزوع إلى الثورية في الفكر والعمل . فالدعوة قوية ملحة إلى نقض الاوضاع القديمة ، وإلى معالجة الادواء والمشكلات معالجة حاسمة ، وإلى اختصار الطرق والاساليب إلى الغايات المرجوة . فالناس قد ضاق ذرعهم بما هم عليه ، وبما يحيط بهم من أخطار خارجية وما يشعرون به من تخلف داخلي ، فكأنهم في سباق مع الزمن ، وكأن القوى التي تستحثهم لا تسمح لهم بأي تمهل أو هوادة . إن الثورية التي تجتاح المجتمع العربي لا تقبل بابقاء الاوضاع القائمة أو بمسايرتها ، ولا باصلاحها اصلاحاً متدرجاً متمهلاً ، بل تدعو إلى « الانقلابية » في الفكر والعمل : إلى « الثورة » على هذه الاوضاع ، وإلى اختيار الحلول « الجذرية » والمعالجات « الحاسمة » . وهذه الشعارات والدعوات وأمثالها ان دلت على شيء ، فعلى ما تغلي به الصدور والنفوس من أحاسيس بالحاجات الملحة ومن اندفاعات لنهب المسافات وسبق الزمن. ولولا هذه الأحاسيس والاندفاعات لما قامت النظم الثورية في البلاد العربية ولما أنجزت ما أنجزته مهما يكن تقديرنا لإنجازاتها وآثارها . ان النقمة على الحاضر جعلتنا نشعر كأننا مضطرون إلى ان نحقق في سنوات

ما حققه سوانا في أجيال ، واننا لا نستطيع ان نركن إلى التطور وان ليس لنا أمل ورجاء إلا بالحلول الجذرية السريعة مهما تتطلب من جهود وتكلف من تضحيات .

وهنا لا بدّ من القول ان وصفنا للاندفاع القومي وللنزوع الثوري اللذين يتمخض بهما المجتمع العربي ليس سوى وصف مجمل لا يفيهما حقهما ولا يستوعب جميع معانيهما ومتضمناتهما ، لأن الحاضر — كما قلنا — ليس هو مقصودنا بالذات . ولا بد كذلك من القول ان قوة هاتين النزعتين وحدتهما وحظهما من الاثر والانتشار — ان هذا كله يختلف باختلاف أوضاع البلاد العربية ، بل باختلاف الطبقات الاجتماعية في البلد الواحد . فهما في بعض البلدان العربية أعنف منهما في غيرها . ولكن ليس من بلد عربي لم ينفذا اليه ولم يفعلا فيه فعلهما ، حتى تلك البلاد التي تبدو ساكنة سادرة بعيدة عن مجاري التبدل والتحفز . وكذلك ان هاتين النزعتين هما أبرز ما يكون في الاجيال الصاعدة وفي الطبقات المتوثبة التائقة إلى تبديل الاوضاع ، ولكن ليس من طبقة اجتماعية لا تحس بأثرهما وبالجو الذي تسبغانه على المجتمع العربي بكامله . ولا شك ، على كل حال ، في انهما في مقدمة العوامل التي تكيف مستقبل هذا المجتمع وتنشئ حياته الجديدة .

ولا بد من القول أخيراً ان هذا التبدل الذي يحدث في المجتمع العربي والذي يتخذ أقوى مظهر له في الحركة القومية الثورية — ان هذا التبدل يجري في وسط عالم متبدل مضطرب تصطرع فيه شتى القوى والتيارات التي تجذبه ذات اليمين وذات اليسار . فالعرب ليسوا منفصلين عن العالم المحيط بهم ، بل هم متصلون به أشد اتصال . ان التيارات العنيفة التي تضطرب بها الدول الكبرى ، والحرب الباردة القائمة بين الجبهتين الضخمتين ، والتطورات التكنولوجية والاقتصادية والاجتماعية التي تتدفق من المجتمعات المتقدمة في ميادين العلم والتطبيق — ان هذا كله ، والكثير المتصل به أو

الناتج عنه ، له فعله النافذ وأثره البارز في التطورات التي يجيش بها المجتمع العربي . ولهذه التطورات أيضاً ما يماثلها في مجتمعات أخرى تشبه أوضاعها أوضاع هذا المجتمع . وعلى العموم ، لا نكون مغالين أو بعيدين عن الحقيقة إذا قلنا ان الثورية تجتاح اليوم العالم أجمع . فالعالم الشيوعي قائم على فلسفة تعتبر الثورة سنة الحياة ، والعالمان الغربي والشيوعي — السبّاقان المتسابقان في ميادين العلم والاختراع — يعيشان في خضم تكنولوجية ثورية تتوالى فيها الاكتشافات والاختراعات وتقفز بالانسانية بجرأة وسرعة فائقتين إلى عصر الذرة والفضاء . وهي قفزة لا تعدلها أية قفزة أخرى في تاريخ الانسانية العلمي ، وتصغر ازاءها « الثورة الصناعية » في مستهل عصرنا الذي تعودنا ان ندعوه بـ « العصر الحديث » والذي يتقادم عهده يوماً بعد يوم . وكذلك تجتاح النزعات الثورية العالم الآسيوي الافريقي حيث نرى مثل ما نرى في المجتمع العربي من تحفز لتبديل الاوضاع وانشاء الحياة الجديدة بأسرع الطرق وأقصر الوسائل .

هذه صورة خاطفة لوضعنا الحاضر وللقوى والنزعات والتطورات التي يتمخض بها مجتمعنا ضمن المجتمع الانساني الاوسع . ولا جدال في ان سلامة المستقبل العربي نتوقف على صحة اتجاهاته واصالة مواقفه في خضم هذه التبدلات الخارقة التي تعصف في داخله ومن حوله . ولقد ذكرنا في مناسبة سابقة ان الازمات التي تسطو على الافراد والأمم تضخّم اثر قراراتهم وتضاعف نتائج أعمالهم . وكذلك شأن المجتمع حين يعيش في جو ثوري . بل نقول إن نزعتنا الثورية ناشئة عن الازمة التي بدأنا نشعر اننا نعيش فيها ، وما هي بالفعل سوى رد على تحدي هذه الازمة . وينتج من هذا ان القرارات والمواقف التي نتخذها في هذه الايام والاعمال التي نقبل عليها لها أثر في مستقبلنا أعظم وأشد مما يكون لامثالها في أيام الدعة والاستقرار والتطور الوئيد .

ولما كان موقفنا من التاريخ — ومن تاريخنا بوجه خاص — هو أحد

المواقف الاساسية التي تتجلى بها نظرتنا إلى الحياة ويبرز منها فعلنا ، فقد وجب علينا ان نحرص على ان يكون هذا الموقف سليماً وان يأتي اثره في معالجة الحاضر وبناء المستقبل ايجابياً مثمراً . فما هي الشروط التي يجب ان يحققها هذا الموقف ، والصفات التي يجب ان يتصف بها ، لكي يكون له هذا الفعل المبتغى والاثر المنشود ؟؟

ب . التاريخ العبء والتاريخ الحافز

للتاريخ أثران متناقضان . بل لنقل ان التاريخ تاريخان : التاريخ العبء ، والتاريخ الحافز . فثمة تاريخ يثقل كاهل صاحبه — فرداً كان أو أمة — ويشل حيويته ، ويضعف همته ، ويجعل انتاجه هزيلاً سقيماً . وثمة تاريخ آخر يحفز وينشط ويبعث ، ويدفع إلى الابداع والتقدم . ولما كنا ، ابناء الأمة العربية ، كما ذكرنا ، بأشد الحاجة إلى السير الحثيث والانشاء المتصل والعمل المستديم لبلوغ الغايات التي نطمح اليها بشوق ملح ونزوع ثائر ، فان من الخير لنا ولمستقبلنا ان تكون احمالنا خفيفة وان ننزع عن كواهلنا ما يعيق ويؤخر ، وأن نسعى إلى كل ما يضاعف همتنا ويبعث نشاطنا للقيام بالواجبات الضخمة المتتابعة التي تجبهنا . ان من الخير ان يكون تاريخنا حافزاً لنا ، لا عبئاً علينا .

ان اثر التاريخ — أي تاريخ — ينتج عنه بالذات ، وعن الموقف المتخذ منه . فتواريخ بعض الشعوب أزهى وأنفس وأبلغ روعة من سواها . وكذلك المواقف التي تتخذ منها تختلف صحة وفساداً ، وقوة وضعفاً ، وتحرراً وعبودية . ومن الواضح ان التاريخ ذاته هو هو لا يتغير ، وانه لا يمكن أحداً ، مهما يسع أو مهما يعظم فعله ، ان يبدله أو أن يعود فيفك خيوطه لينسجها من جديد . أما الموقف المتخذ منه فهو تابع للدرجة الاستعداد ونوع الأهلية وما ادخر الفرد والقوم من معرفة وخبرة وما اكتسبوه من صفات عقلية وخلقية . فلكم من تاريخ جليل حافل كان لأهله عامل استكانة وتأخر ، وكم من تاريخ هزيل مظلم كان لأبنائه

مثار نقمة ومبدأ انطلاق لاعمال باهرة مجيدة . ولذا فان نوع الاثر الذي يكون لتاريخنا فينا متوقف ، آخر الأمر ، علينا . فكون الاثر ايجابياً او سلبياً ، او نصيبه من هذه الصفة او تلك ، رهين بجدارتنا واستحقاقنا وصحة موقفنا . فكيف نأمن ان يكون التاريخ عبئاً ثقيلاً عائقاً ، وكيف نجعله حافزاً ملهماً باعثاً ؟

يكون تاريخنا عبئاً علينا اذا سحرنا وقبض على نفوسنا وشدّنا الى اجوائه وعالمه وحصرنا ضمن حدوده . فمن الناس من يعيشون في ماضيهم الخاص وما يفتأون يذكرون ذلك الماضي ويحنون اليه ولا يجدون رضى وقناعة الا فيه ، فتراهم يرددون في مجالسهم اخبار الحوادث الماضية التي جرت لهم والاعمال الجليلة وغير الجليلة التي قاموا بها ، وكأنهم اسرى ذلك الماضي لا يستطيعون الانفلات منه او الانصراف عنه الى الاهتمام الجاد المنتج بمشكلات الحاضر . فلا غرابة اذا سئمهم الناس بعد حين ، وضاقوا ذرعاً بهم ، خصوصاً في هذه السنوات التي تثور فيها اهتمامات الحاضر وتبرز آمال المستقبل . ومن الافراد والجماعات من يأسرهم ماضي مجتمعهم او امتهم ، فلا يرتاحون الا اليه ، ولا ينفكون يستعيدونه ويتغنون به ويلتجئون اليه ، عن وعي او عن غير وعي ، هرباً مما يحيط بهم من هموم وتحديات . وكذلك نجد الامم تنجذب في بعض ادوار حياتها الى ماضيها ، فتبقى متلفتة الى الوراء ، قانعة بهذا التلفت ، عاجزة عن ان تولي وجهها شطر الميادين المتفتحة امامها والسبل التي ترتسم في ادوار حياتها المقبلة .

ولقد عاش المجتمع العربي قروناً طويلة — منذ حوالي القرن الخامس عشر للميلاد — على هذه الحال ، سادراً مأسوراً مسحوراً . ولا يزال لهذا السحر ، بالرغم من الثورية التي يتمخض بها مجتمعنا اليوم ، فعله في فريق كبير من افرادنا وجماعاتنا ، ولا تزال النظرة التي ينظرون بها الى الامور ، والاحكام التي يطلقونها عليها ، والقيم التي يزنونها بها ،

هي نظرة القرون الحالية واحكامها وقيمها ، ولا تزال رسوبات هذا الماضي وبقاياه هي التي توجههم وتتحكم في تفكيرهم وعملهم .

ولقد ألمعنا في ما مضى الى ان الفرد الحي المبدع هو الذي يحس بمشكلات حاضره وبآمال مستقبله احساساً مدركاً دقيقاً . وكذلك شأن الامة الحية المبدعة . وأشرنا ايضاً الى ان الحيوية وقابلية الابداع تتمثلان بتبين الاختيارات التي تنفسح امام الفرد او الامة وبمقدرتها على التمييز بينها واتخاذ القرارات بشأنها . فبمقدر ما يكون سحر ماضينا متسلطاً علينا ، حاصراً ايانا في نطاقه ، مانعاً ايانا عن تبين الغايات والسبل المرتسمة امامنا وعن الاختيار بينها بروية وادراك للمسؤولية — بهذا القدر تضعف حيويتنا وتخف قابلياتنا للابداع . وبهذا القدر يكون تاريخنا عبئاً علينا ، لا حافزاً لنا .

●

ولا ينحصر فعل السحر الذي يتسلط به تاريخ امة عليها في صرفها عن مهامّ حاضرها ومطامح مستقبلها ، بل يتعدى ذلك الى تضييق نظرتها الى ذلك التاريخ بالذات والى اهمال الصلات التي تربطه بما قبله وتشده الى ما عاصره وتوثق الصلة بينه وبين ما جاء بعده . فيبدو هذا التاريخ كأنه قائم بذاته مستقل منفصل عن سواه . والواقع ان تاريخ اي شعب من الشعوب مرتبط بتواريخ شعوب اخرى سبقته او عاصرته او خلفته . ولئن كانت الروابط البشرية قد قويت وانتشرت في هذا العصر الحديث باتساع وسائل الاتصال واختصار المسافات والابعاد ، فانها لم تكن معدومة في الماضي . وليس بين الشعوب التاريخية من لم تتصل حياته بحياة شعوب اخرى وتتفاعل واياها ، ومن لم يأخذ ويعطِ بصور واشكال تكون ظاهرة في احيان ، خفية في احيان اخرى .

ومن ناحية ثانية ، ان الاختبارات التي تمر بها الشعوب تتشابه في اشياء وتختلف في اشياء . فهي في اساسها اختبارات انسانية متماثلة ، ولكنها تتفاوت وتتباين تبعاً لظروف الزمان والمكان ودرجة التطور العقلي والروحي

ولذا لا يمكن ان تفهم هذه الاختبارات على حقيقتها الا بمقارنتها ومقابلتها بسواها مما عاصرها او سبقها او تلاها . اذ بهذه المقارنة والمقابلة تظهر طبيعتها الانسانية المشتركة من جهة ، وميزاتها القومية الخاصة من جهة اخرى . وعلى هذا ، فان اي تاريخ قومي لا يدرك ادراكاً صحيحاً الا اذا نظر اليه في الاطار العالمي العام ، اي اذا فهمت صلاته بتواريخ الشعوب والحضارات الاخرى ، وقورنت وقوبلت اختباراته واختباراتها ، واعتبر مظهراً من مظاهر التاريخ الانساني له جوهره العام المشترك ، وفي الوقت ذاته ، مميزاته وطوابعه الخاصة .

ويتضح من قولنا هذا اننا نخطىء عندما نبدأ دراسة التاريخ العربي بعرب الجاهلية في الجزيرة دون ان نفي الشعوب التي سبقتهم في هذا الشرق الادنى حقها من الاهتمام ، ودون ان نطلع الاطلاع الكافي على المدنيات التي قامت قبلهم او عاصرتهم ، كالمدنيات الساميّة المختلفة ، ومدنيات الفرس والاغريق والرومان . فالصلات التي تربط الاجيال الاولى من العرب بهذه الشعوب والمدنيات اوفر واقوى مما يبدو للوهلة الاولى . وكذلك يجدر بنا عند تتبع هذا التاريخ الا نسهو عن الروابط التي تربطه في خلال مراحله المتتابعة بالشعوب القريبة والبعيدة ، من غربية وشرقية ، فنلحظ الظاهر الواضح من هذه الروابط ونسعى لاستكشاف الخفي المنبث منها . وكلما اتسعت نظرتنا ، ووضعنا تاريخنا القومي ضمن اطاره العالمي ، فلمسنا صلاته بما سبقه وما عاصره وما تلاه ، واستطعنا ان نقارنه ونقابله بسواه — كلما وفقنا الى ذلك ، جاءت نظرتنا اليه اصح واسلم ، وفهمنا له ادق واعمق ، وفعله فينا أجلّ وافضل .

اذ كيف تمكننا مثلاً ان نفهم الادب العربي اذا لم نطلع على صلاته بالآداب التي تأثر بها او اثر فيها ، واذا لم ندرك اوجه الشبه والاختلاف بينه وبين الآداب العالمية الاخرى ؟ وما يقال عن الادب يقال عن الفلسفة والفن ، بل عن اي مظهر من مظاهر الحضارة . وليس معنى هذا ، كما

قد يعتقد البعض ، انتقاص قدر التاريخ القومي والدعوة الى الخروج عنه الى سواه ، بل بالعكس انه ، كما قلنا ، السبيل لمعرفة هذا التاريخ معرفة صحيحة ولتبين خصائصه وميزاته على حقيقتها . وهكذا شأن اي شيء من الأشياء ، فان جوهره وطبيعته وصفاته لا تبين الا على ضوء علاقاته بسواه من الأشياء ومشاركاته لها واختلافاته عنها .

نخلص من هذا الى القول ان التاريخ القومي اذا سحرنا وحصرنا في نطاقه ومنعنا من ان نراه في اطاراته الواسعة ، وميزاته العامة والخاصة ، فقد اوشك ان يغدو ، من هذه الوجهة ايضاً ، عبئاً علينا بدلاً من ان يكون حافزاً لنا . ومهما يكن اثر هذا السحر محبباً إلى نفوسنا في بادىء الأمر ، فانه يصبح بتتابع الأيام وتطور الظروف عامل اعاقة وتأخر في حين يجب ان يكون مصدر بعث وتقدم .

•

الانجذاب الى الماضي الذي يحوّل النظر والاهتمام عن الحاضر والمستقبل ، والانحصار التام في دائرة معينة من الماضي — اثران من آثار هذا السحر التاريخي الذي تكلمنا عنه ، نضيف اليهما اثراً ثالثاً . وهو الاكتفاء بالماضي وعدم الرغبة في تخطيه . ويظهر هذا الاكتفاء اما بصورة انفعالية او بصورة فعلية . ونعني بالصورة الانفعالية استمرار الفرد او الامة ، بفعل رسوبات الماضي وآثاره المتراكمة ، في النظر الى الحاضر والمستقبل بافكار الماضي وسننه واشكاله ودوافعه ، دون التنبه الى اختلاف الظروف وتبدل الأحوال . فكأن الفرد يعيش ظاهراً في جيل ، وباطناً في جيل آخر : يأكل ويلبس ويتنقل ويعمل في عصر الكهرباء ، ويفكر ويتصرف ويندفع الى هنا وهناك بفعل قوى اجيال سابقة مختزنة فيه . او يحدث احياناً ان تكون حياته الداخلية موزعة منقسمة على ذاتها ، فيفكر تفكيراً معاصراً ويعمل عملاً حديثاً في جوانب من شخصيته ، ويخضع لدوافع الماضي السحيق واتجاهاته في جوانب اخرى . ولكم نرى بين المتعلمين وحملة الشهادات

العليا ، من يتقنون فناً من الفنون او اختصاصاً من الاختصاصات الدقيقة ، ولكنهم يتصرفون احياناً تصرفاً لا ينسجم ومقتضيات العصر ، بفعل رسوبات متراكمة في نفوسهم وبواعث عميقة في افئدتهم لم يتحرروا منها ، لان الماضي قابض على نواصيهم ، فهم راضون به مستكينون اليه ، او واجدون مصلحتهم في بقائه واستمراره . ألسنا نرى التعصب الطائفي مثلاً ، المتحدر من الماضي ، الموروث عنه ، والذي لم يعد له ادنى مسوغ في عصر القوميات ، بل في عصر الذرة والفضاء — ألسنا نرى هذا التعصب يصدر في احيان كثيرة عن اولئك الذين يعيشون في جانب من حياتهم في هذا العصر ، وفي جانب آخر في عصر زال وانقضى ، فاذا هم اقدر من سواهم على اثارة رسوبات الماضي وتحريك دوافعه في نفوس الآخرين ، واذا هؤلاء واولئك عبيد اسرى لهذه الدوافع والرسوبات ، ولشهواتهم الخاصة ، واذا الوطن يتحمل اوزار هذا الاسر والعبودية تفرقة واضطراباً ، وخسراناً مادياً ومعنوياً ، وتخلفاً عن ركب الانتاج والحضارة ؟

اما الصورة الفعلية لهذا الاكتفاء التاريخي الذي نتحدث عنه — وليس ثمة حدود فاصلة بين الانفعال والفعل في هذا الاتجاه العقلي والنفسي — فتتجلى عند اولئك الذين يرتضون الماضي وينعمون به الى الحد الذي يحدوهم الى محاولة اعادته كما كان وتطبيق نظمه وسننه ومفاهيمه في الحياة الحاضرة . وهي محاولة مخفقة حتماً ، لان العقل الانساني في تطور مستمر ، واشكال الحياة ونظمها التي تبتدع في عصر ما وفي درجة معينة من درجات التطور لا تصلح للدرجات التالية ، والسعي لفرضها فرضاً مصطنعاً لا بد من ان يظهر عجزه واستحالته ازاء قوى الحياة المندفعة . ولئن نجح آناً او في حدود معينة ، فانه سينكفيء ويتراجع وسيضطر آخر الامر الى مجاراة سنن التطور . هذا ما دلت عليه اختبارات الامم جميعاً وتواريخها المختلفة . وفي هذه المحاولة ما فيها من اضاعة للوقت وتبديد للجهود — خاصة في هذا العصر الذي تتسابق فيه الامم وتتنافس الى العمل والانتاج اشد

تنافس وتسابق .

حتى الامجاد الماضية ، بما تتضمنه من روعة وعظمة ، لا يمكن ان تستعاد بالاشكال التي اتخذتها في العصور الغابرة ، بل يجب ان تكتشف وتقتبس البواعث التي دفعت اليها . وعندما نفعل هذا نرى ان تلك الامجاد لم تكن لتحدث لو ان اصحابها كانوا مقيدين عقلياً ونفسياً بحس الاكتفاء التاريخي ، ولم تحصل فعلاً الا عندما خرجوا عن دائرة هذا الاكتفاء وتخطوا الزمن بدلاً من ان يستعيدوه . والامم الحية المبدعة هي التي ترى ان آفاق المجد لا تحد وان ذراه لا تنتهي ، وان بعد كل افق ماضٍ آفاقاً جديدة ، وفوق كل ذروة قد اقتحمت في السابق ذرى تعلوها وتستهوي جهود العاملين اليها . وهنا ايضاً يبدو هذان الامكانان المختلفان للتاريخ : امكانه عبئاً ، وامكانه حافزاً ، ويظهر فعل سحر التاريخ ، الدافع الى الاكتفاء به ، في تقوية الامكان الاول واضعاف الثاني .

ولنا في التاريخ العربي امثلة كثيرة على هذا الاكتفاء التاريخي — الانفعالي والفعلي — وعلى اثره العائق الضار عندما اخلد العرب لرواسب ماضيهم او حاولوا استعادة اشكال حياتهم الموروثة . فقد ورثوا مثلاً عن الجاهلية القديمة عصبيات قبلية ومنازعات قيسية ويمنية ، وهي عصبيات ان كان لها مكان في الحياة البدوية فقد اصبحت منافية لملك منظم وامبراطورية واسعة الارجاء . فكان تمسك العرب بها ، وحملهم اياها الى بلادهم الجديدة من خراسان شرقاً الى الاندلس غرباً ، وعجزهم عن ان يصهروها في رابطة اوسع وامتن — كان هذا كله عاملاً في اضعاف شأنهم وتفكك حكمهم . كذلك ورثوا عن الجاهلية شعراً له مكانته في عالم الصحراء ، ولكنه لم يكن يفي كل الوفاء باغراض مدنية زاهرة ، فكان اكتفاؤهم به وتعصبهم له واحتذاؤهم اياه احتذاء يكاد يكون اعمى سبباً في انهم لم يرتفعوا فوقه ولم يكن لهم في تاريخ الادب تلك المكانة التي كانت لهم في تاريخ العلم . ففي العلم نراهم في عهد نهضتهم قد ماشوا المدنية في

مجراها الرئيسي ، اما في الادب فقد انفصلوا عن هذا المجرى فخفّ بذلك اثرهم الباقي . حتى في ميدان العلم ذاته — ونعني بالعلم التفكير المنتظم على اختلاف مظاهره وتعدد فروعه — نراهم عندما توقفوا عن الارتياد العقلي للآفاق المجهولة ، وخضعوا لنير التقليد فاقتصروا على مآثر الماضي واكتفوا باختصارها وشرحها والتعليق عليها ، قلّ انتاجهم وبدأوا يتنحون عن القيادة ويتخلفون عن قافلة البشرية المنطلقة . عندها كان تاريخهم — او بالاحرى موقفهم الواعي او غير الواعي من تاريخهم — عبئاً عليهم مثقلاً مؤخراً ، لا حافزاً لهم للتحقيق المتزايد والارتقاء المتسامي .

●

هذه بعض آثار السحر التاريخي عندما يكون متسلطاً كل التسلط ، آخذاً بتلابيب النفس . يضاف الى هذه الآثار — وهي الانشغال عن الحاضر ، والنظر الضيق الى التاريخ ذاته ، والاكتفاء به ومحاولة استرجاعه — بل يتخللها ويدعمها في احيان كثيرة ، اثر آخر نختتم به هذا القسم من البحث . وهو نزوع الفرد او المجتمع الى توهم تاريخه ، او تخيله ، او تصوره ، بدلاً من السعي الى ادراكه على حقيقته . والتوهم والتخيل والتصور اسهل وايسر واحب لاكثر النفوس من السعي الجاد الذي يتطلب جهداً ومشقة ، والذي قد يؤدي الى بعض الحقائق التي لا تستسيغها هذه النفوس . وكل ما نستطيع ان نقوله هنا هو اعتقادنا المكين ان كل جهد يتعامى عن الحقيقة سيصطدم بها آخر الامر وسينحني امامها ، وكل بناء يشاد يكون ضعيفاً بمقدار بعده عنها وتنكره لها . ولما كان من ضمن واقع اي مجتمع وحقيقته واقع ماضيه ، فلا خير في الانخداع عن هذا الواقع ، وفي محاولة تخيله كما يخطر لنا او كما نريده ان يكون . بل الخير كل الخير في السعي لادراكه دون زيغ او ضلال ، ولاستجلاء جوهره وعناصره ومقوماته كما هي بالذات . ومن الخير كذلك تدريب نفوس ابناء الأمة على التشوق الى الحقيقة والقدرة على مجابهتها وتحمل رؤيتها ، بل على انشراح الصدر

لها والاستمتاع بخيرها . وكلما ارتقت امة ونضجت ، كانت هذه الصفات في افرادها وفيها كمجموع ابين وابرز وكان فعلها البناء المنتج اقوى واخصب.

ومن هنا تبدو خطورة الجهود التي بدأت تبذل عندنا لاخذ التاريخ باساليب الصناعة الدقيقة : بالتفتيش عن المصادر وحفظها ونشرها واستنطاقها بروية واحكام قصد استكشاف حقيقة الماضي . فان هذه الجهود حرية بكل رعاية وتعضيد ، سواء من قبل الحكومات او من قبل الجامعات او المؤسسات او الافراد . ان العاملين في هذا الحقل لا يزالون قلة متفرقين ، ولا يزال اثرهم ضئيلاً بالنسبة الى ما يجب ان يكون . ونحن لا نتعامى عن حاجات الساعة ، وعن ضرورة العناية بالنهضة التكنولوجية ، وتدعيم اسباب العلم التطبيقي لانشاء اجهزة بنائنا القومي . ولكن هذا كله يجب ان لا يصرفنا عن الاهتمام بالثقافة النظرية الانسانية ، وعن اعداد الاجيال من المفكرين المتمكنين من هذه الثقافة ، المسهمين في اضاءة سبل امتهم بنورها ، القادرين على تغذية الحضارة العالمية بنصيبهم منها . ولا جدال في ان معرفة الماضي عنصر هام من هذه الثقافة ، ولذا كان من الضروري أن نفي بمتطلباتها ونقوم بدورنا فيها . فليس من المعقول ، أو من الداعي إلى الرضى والاطمئنان مثلاً ، أن يظل انتاج المستشرقين في دراسة التاريخ العربي وتحقيق وقائعه اقوى من انتاجنا واوسع . بل ان من الضروري — الملح ايضاً — ان تكون لنا القيادة في هذا الامر الذي هو من اخص شؤوننا : لحسن تفهم ماضينا وسلامة بناء مستقبلنا من جهة ، ولاثبات مكانتنا في عالم العلم والثقافة من جهة اخرى . ان طريق العلم هو طريق المستقبل . يصدق هذا على دراسة الماضي مثل ما يصدق على اية دراسة اخرى . فيجب ان نتغلب على كل ما يحول بيننا وبينه ، ويجعلنا نستسيغ التوهم والتصور ونستسهلهما ، ويمنعنا عن البذل الذي يشترطه استكشاف الحقيقة ومجابهة الواقع .

وهنا تعرض مشكلة يحسن الوقوف عندها بعض الشيء . ان دراسة الماضي دراسة علمية ، حسب القواعد التي حاولنا رسمها في الفصول السابقة ، تقتضي قسطاً كبيراً من التفرغ والانصراف والتجرد . ورب قائل يقول انها قد تكون شكلاً آخر من اشكال الانصراف عن الحاضر والتهرب منه ، فتغدو حتى هي ضرباً من ضروب التأريخ المثقل المؤخر . على ان ثمة فرقاً بين هذا الانصراف والانصرافات الاخرى السابق ذكرها التي تكون عادة مشوبة بالتوهم والتخيل . ان الدراسة العلمية الصحيحة تقبل على الماضي ، مثلما تقبل على أي من الموضوعات الاخرى ، بعقل متنبه وفكر متيقظ واع . والعقل الواعي لا يخضع لمادته ويستسلم اليها ، ولا يكون عبداً لها واسيراً ، بل هو عامل فاعل وله من خواص فعله ومن القواعد التي يتقيد بها والمثل والقيم التي يستلهمها ما يؤهله للتحرر من مادته وللسيطرة عليها . وهذا هو الفرق بين العالم القابض على موضوعه بالعقل المدرك ، وسواه ممن لم يبلغ هذه المرتبة ، بل وقف عند حدود التوهم والتخيل ، فسطا عليه موضوعه بسطوة وهمه وخياله . واذا نحن استعرضنا تاريخ البشرية بمختلف مراحله ومظاهره وجدنا ان سبيل الانسانية الى التقدم والرقي كان سبيل السيطرة على قوى الطبيعة والاهواء الانسانية بالعقل المدرك والروح المتسامية الفاعلة ، بدلاً من الانسياق لها والخضوع لسيطرتها بجهل حقيقتها او تجاهلها .

ثم ان الدراسة العلمية المنصرفة الى استجلاء الماضي تعمل للحاضر وللمستقبل عن طريق ابراز الحقيقة ، وتنمية الصفات والمؤهلات التي يتطلبها السعي اليها . ذلك ان سلامة اي بناء حاضر او مقبل تتوقف على محصل الحقيقة الذي يكون قد اكتسبه وادخره المجتمع الباني ، وعلى مقدرة هذا المجتمع على الاستمرار والتقدم في الاكتشاف والتحصيل. فكل حقيقة جديدة نستخرجها ، وكل مزية من مزايا العقل المدرك الفاعل ننميها في انفسنا او في سوانا ، هي حجر من الاحجار الثابتة في البناء الذي

نشيده لحاضرنا او لمستقبلنا . فلا يخيفننا كثيراً هذا النوع من الانصراف عن الحاضر الذي تقتضيه دراسة الماضي دراسة علمية . فهو ، في نهاية الامر ، من اضمن مقومات الحاضر واثبت اسس المستقبل .

ولكن ثمة معترضاً يعترض فيقول : ان من المشكلات ما هو اشد الحاحاً من بعض وادعى لبذل الجهد وتجميع القوى . اية جدوى لنا مثلاً ، في هذا الظرف الخطير من حياتنا ، في تحقيق واقعة قديمة كواقعة صفين ، او في تتبع سيرة خليفة او عالم في العصر العباسي ، او في دراسة جانب من جوانب الحياة الاقتصادية او الاجتماعية في فترة معينة من هذا العصر او ذاك ، في حين نجد فيه انفسنا مدعوين الى الدفاع عن كياننا وحمايته من الاخطار الخارجية والداخلية وبعثه بعثاً جديداً ؟ وفي هذا الاعتراض ما فيه من الوجاهة . ذلك ان من اهم واجبات الافراد والامم ، في ايام الشدائد والازمات ، ان يميزوا بين المشكلات التي تجابههم وبين الغايات التي تنتصب امامهم ، وان يستجمعوا جهودهم ويوجهوها نحو الغايات التي تكفل افضل النتائج واغزر الفوائد . ولكن الجهد الفردي والقومي يكون فاسداً مختلاً — وتتعاظم نتائج فساده واختلاله على مرّ الايام — اذا جرى الى الغايات الخادعة بدلاً منه الى الصادقة ، او اذا اكتفى بالقريب منها دون البعيد . ان معرفة الماضي معرفة صحيحة ، واتخاذ موقف سليم منه على اساس هذه المعرفة ، شرطان ضروريان لحسن التمييز بين الغايات وللدفع المجتمع نحو الصحيح منها دفعاً مجدياً . فيجب ان لا تنكر او تزدرى خطورتهما ، بل ان تصان لها جبهتها في الجهاد ، المتعدد الجبهات ، لحماية الحاضر وانشاء المستقبل .

لقد قلنا ان مجتمعنا تجتاحه نزعة ثورية تتوق الى هدم الاوضاع والمفاهيم الفاسدة وانشاء اوضاع ومفاهيم جديدة افضل واقوى . فعسى ان يكون بين المفاهيم التي ننقلب عليها ونسعى الى التجرد منها كل مفهوم لماضينا يعيقنا عن الفكر الصحيح والعمل الايجابي المنتج — في المدى البعيد وفي

المدى القريب . وعسى ان تتسرب هذه الثورة الى اسس الموقف الذي نتخذه من تاريخنا فتخلع عنها سلطة الوهم والسحر والخيال وتخضعها للعقل الفاعل المميز ، وتجعل من تاريخنا حافزاً لنا يدفعنا الى الامام ، وينمي قابلياتنا ، ويقوي مقدرتنا على صنع التاريخ الجديد .

ان في تاريخنا من الخوالد والمآثر ما هو كفيل بان يكون لنا حافزاً على هذا الصنيع الذي نبتغيه . فالذي يتطلبه منّا موقفنا الحاضر الدقيق، بل الذي يتطلبه تاريخنا ذاته ، هو ان نكتسب تلك الصفات ونسلك تلك السبل التي تمكنه من هذا الفعل — اي ان نتحرى حقيقته وتنفذ الى لبّه ونحرز فضائله ، وان نتخذه نقطة انطلاق لا مجال اكتفاء وانكفاء ، فتكون أمانتنا له امانة حقيقية ، امانة الحياة الصحيحة الفاعلة التي تطمح على الدوام الى ان تتخطى ذاتها ، وتسعد كل يوم بابداع جديد.

ج . حكمنا في التاريخ

لقد قلنا في ما سبق ان الادراك الصحيح للتاريخ ينتهي الى الحكم فيه : الى التمييز بين صحيحه وفاسده ، بين ما له وما عليه . وعلى هذا ، فان الموقف الذي نتخذه من تاريخنا لا يكون صحيحاً كاملاً ، باعثاً على العمل المجدي لحاضرنا ومستقبلنا ، اذا لم يؤد بنا الى الارتفاع فوقه والحكم في عناصره التي يجب ان نحرص عليها ونحييها ونستوحيها ، وتلك التي يجب ان ننفلت منها ونثور عليها ونتخطاها .

وما هو الصالح ، وما الفاسد ، من عناصر التاريخ ؟ من الصعب جداً الإجابة عن هذا السؤال الخطير بجواب عام قاطع . ولكننا قد لا نكون مخطئين كثيراً اذا عدنا هنا الى ما ذكرناه سابقاً عن العمل التاريخي ، واتخذنا صفته الاساسية مقياساً لنا . لقد قلنا هناك ان العمل التاريخي – ونعني « بالعمل » هنا الجهد الانساني بمعناه العام الذي يشمل الفكر والاختبار الروحي كما يشمل التنفيذ والتطبيق – هو ذلك النوع من العمل الذي فيه صنع جديد للحياة ، وابداع لمفاهيمها ونظمها واشكالها . فالسر فيه هو الابداع ، او بعبارة اخرى هو ما يمثله ويؤدي اليه من تقدم عما جاء قبله . وفي نظرنا ان العناصر الصحيحة في التاريخ الماضي هي تلك « الاعمال » التاريخية التي يتجلى فيها الابداع والتقدم الصحيحان ، والتي تؤلف في مجموعها خلاصة التراث الانساني الايجابي الباقي . اما العناصر الفاسدة فهي التي تعطل قابليات الفرد او المجتمع للابداع والتقدم او تضعفها ، فلا تدخل في صلب هذا التراث الايجابي بل بالعكس تقف في طريق نموه

وتكامله وتفسد عليه عمله ومجراه .

ولكن هذا يجرنا حتماً الى سؤال آخر : ما هو الابداع ، وما هي مظاهره ، وما هو التقدم الصحيح وما هي مقاييسه ؟؟ وهذا بدوره يقودنا — كما قادنا بحثنا من نواحٍ اخرى — الى احد الاسئلة الهامة التي ينتهي اليها اي بحث فلسفي مهما يكن منطلقه ، وهو : ما هو الانسان ؟ ونرى هنا ، كما رأينا هناك ، ان التعليلات التأريخية ، والنظريات الفلسفية ، بل مختلف المواقف الفكرية التي يقفها الافراد والجماعات ، تتمايز فيما بينها بكيفية صوغها لهذا السؤال ونوع اجابتها عنه .

ان جوهر الانسان ، في نظرنا ، هو قابليته للتحرر ولاكتساب الكرامة الذاتية . فلقد اختاره الله تعالى من بين المخلوقات كلها وغرس فيه البذور التي اذا نميت بالجهد المتصل والرعاية الساهرة تفتحت واثمرت حريةً وكرامة . ولكن ، هنا ايضاً نتساءل : ما هي الحرية ؟ ما هو جوهر هذه الفضيلة التي يدور لفظها على ألسنتنا باستمرار ، وبمعانٍ واشكال مختلفة متضاربة ؟ ان للحرية ، في نظرنا ، وجهين : أحدهما سلبيٌ والآخر ايجابي. اما السلبي فيتمثل في التحرر من القيود التي تفرضها قوى الطبيعة ،والقيود الناشئة عن ضعف الانسان ذاته ونقائص كيانه . فالانسان الذي تتحكم فيه قوى الطبيعة وتطغى عليه قيودها وحدودها ، الانسان الذي لا يحسن استغلال الموارد الطبيعية في محيطه ، ولا يعرف كيف يدرأ عن نفسه الكوارث والآفات المادية ، الانسان الذي يتردى ، بنتيجة هذا العجز ، في الفقر والمرض — هذا الانسان لا يزال عبداً للطبيعة ، لم يكتسب نصيباً هاماً من حريته وكرامته . ومن ناحية ثانية ، ان الانسان الذي يتحكم فيه الجهل ، فلا يدرك كنه الاشياء ، ولا يميز بين جواهرها واعراضها ، ولا يدرك تفاوت قيمها ، او الذي يخضع لظلم الغير واستبداده واستغلاله راضياً مستكيناً ، او الذي تطغى عليه شهواته واطماعه فيستعبد سواه ويسخره لاغراضه — ان هذا او ذاك من الناس وامثالهم — افراداً كانوا أو

جماعات أو امماً – لم يتحرروا من نقائص طبيعتهم ، ولم يحققوا جوهرهم الانساني الذي فيه حريتهم وكرامتهم .

ان سبيل هذا التحرر هو الكد المتصل والجهاد المستمر : الجهاد للتغلب على قيود الطبيعة وحدودها ولاستثمار مواردها ، والجهاد لدفع ظلم الانسان وعدوانه : الفردي والجماعي ، والجهاد للتخلص من النقائص الذاتية العقلية والخلقية والروحية التي تكمن وراء هذه المساوىء والشرور كلها . واذ يسلك الانسان هذا السبيل ويتقدم فيه ، يتحول تحرره تدريجاً من وجوهه السلبية الى وجوهه الايجابية ، فاذا به لا يكتفي بمجرد الرغبة في التحرر من العوائق والقيود الطبيعية والبشرية ، بل يطمح الى ان يكون هذا التحرر في سبيل غاية تتعدى دائرته الضيقة ، واذا به يميز بين الغايات ويتعدى القريبة السهلة منها الى البعيدة الشاقة ، ويحيا تحت وطأة الضمير والمسؤولية ، بل اذا بحريته تنقلب الى احساس شامل دقيق بالواجب والمسؤولية فينزع الى ان تكون حياته تجسيداً لها واعراباً صافياً عن معناها .

والآن نتساءل : ما هي القابليات في الانسان ، التي اذا نماها بالجهاد المتصل ، مكنته من سلوك هذا السبيل ومن التقدم في مراحله المتتابعة ؟ هذه القابليات هي العقل والروح . فبالعقل يحاول الانسان ان يدرك الاشياء ، وان يميز بين جواهرها واعراضها ، ويربط بين اسبابها ومسبباتها . بالعقل يلاحظ وينسق ، ويستخرج ويستنتج ، ويشك ويختبر ويحقق ، وينظم ويخطط ويطبق . بالعقل يتخذ هذه وامثالها من الخطى التي تسمح له بان يفهم الطبيعة ويستكشف اسرارها ويتسلط على قواها ومواردها . وبه كذلك يستطيع الانسان ان يتدرج في ادراك نوازع نفسه وقيود طبيعته ، وان يميز بين الغايات ويصنف القيم ، وان ينفذ الى مزايا العقل ذاته وفضائله ومآثره ، والى الحدود التي يقف عندها ويعجز عن تخطيها .

وبالروح يتشوف الانسان الى رؤى الجمال ومراقي الخير ، ويتسنم الذرى الشامخة التي لا تلوح للعين الناظرة . بالروح يغوص في اعماق

كيانه ، ويختبر كوامن حياته : يتألم ويفرح ، يكفر ويؤمن ، ييأس ويأمل ، ينحط ويتسامى ، ينقسم بين الشر والخير ، يتأرجح بين العدم والوجود ، يعيش منفعلاً منقاداً او مختاراً فاعلاً . ويكون من نتيجة هذا التشوف الى الرؤى والانجذاب اليها والاقتباس منها ، وهذا الاختبار العميق لمكنونات الحياة ، آيات الابداع المختلفة في الفن والادب ، ومراتب الرقي الذاتي في الخلق والسلوك والدين .

وتبعاً لهذا يبدو لنا ان اهم المقاييس التي تمكننا بها قدر الابداع والتقدم الحقيقي في حضارة من الحضارات ، وبالتالي ادراك العناصر الصحيحة في تلك الحضارة وتمييزها عن العناصر الفاسدة ، بحيث نتوصل الى الحكم فيها وفي التاريخ الذي تجسدت به — ان اهم هذه المقاييس هي التالية :

١ — مقدار ما بلغته تلك الحضارة في فهم اسرار الطبيعة ودفع غوائلها عن ابناء المجتمع ، واستثمار مواردها لخيرهم . وبمعنى آخر : مقدار ما احرزته من التطور العقلي المنصرف الى الفهم والتنفيذ ، والمتجلي في شتى مظاهر التكنولوجيا والعلم التطبيقي .

٢ — ولما كان هذا العلم التطبيقي لا يحصل الا بجهاد فكري مستمر لمعرفة جواهر الاشياء وعللها ، ولتلبية نداء العقل الى الوقوف على الحقيقة من اجل الحقيقة ذاتها ، فان من مظاهر الابداع في اية حضارة من الحضارات مقدار الذخيرة الصحيحة التي حصلتها من العلم النظري المحقق المنتظم ، ومن الاجتهاد الفلسفي الرامي الى ربط نتائج هذا العلم وسواها من الاختبارات الانسانية في نظرات شاملة معللة للكون والحياة .

٣ — ومن مظاهر هذا الابداع ايضاً ما اكتسبته الحضارة من تطلعها الى رؤى الجمال وسعيها لاقتناص صوره وجهدها للتعبير عنها ، وما تمثل به هذا الكسب كله من ادب رائع وفن ملهم .

٤ — وكذلك من مظاهر هذا الابداع ما وعته الحضارة باختبار ابنائها الروحي وجهادهم النفسي من مراتب الخير وغاياته ، وما استطاعت

تمييزه بين هذه المراتب والغايات ، ومقدار ما حققه ابناؤها في تسنم المراتب الرفيعة وبلوغ الغايات الشاقة البعيدة .

٥ — ان هذه التحقيقات المبدعة ، في ميادين الحق والخير والجمال ، هي من نتاج الافراد والفئات المبدعين . ولكن ثمة نوعاً آخر من الابداع : هو في تعميم هذا النتاج ونشر فضائله بين سائر ابناء المجتمع ، ومكافحة كل ما يقف في طريقه ، والجهد لتنمية القابليات له والقدرة عليه في نفوس افراد الشعب ، بل في نفوس ابناء الانسانية جمعاء . ويتجلى هذا الابداع في ما يحققه هذا الجهاد من نجاح في رفع مستوى المعيشة المادية ، وفي مكافحة الطغيان ، وفي احراز الحرية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية ، وفي كفالة العدل ونشر العلم والمعرفة ، وسواها من مظاهر التحرير والتنظيم المنصرفة الى تعميم الفوائد المكتسبة بالجهد العقلي والروحي ، وانماء الصفات المؤهلة لهذا الجهد . فكلما كانت دائرة التنعم بهذه الفوائد اوسع وكلما كان انتشار هذه الصفات اعم ، كانت الحضارة ارفع في مراتب الرقي .

ويمكننا ان نعود فنلخص هذه المظاهر كلها بالمظهر الاساسي الذي يعمها وينبث فيها جميعاً ، وهو : مرتبة الحرية والكرامة التي باغها ، فكراً وعملاً ، الافراد والفئات المبدعون في المجتمع ، ومدى انتشار هذه الفضيلة الانسانية الاصيلة بين ابنائه وفي سائر جماعاته وطبقاته .

ونعود فنؤكد ان هذه الفوائد والفضائل ، التي تتلخص في الحرية والكرامة ، انما هي نتيجة جهد شاق وسعي متماسك . ولذا فان الحكم في نتاج اية حضارة من الحضارات هو ايضاً حكم في مقدار تنبهها للحاجة الى هذا الجهد ، وفي الصفات التي يتجلى بها جهدها : صدقاً ، واستنارة ، وشمولاً ، واستمراراً .

•

ان المآثر الحقيقية لاية حضارة من الحضارات تتألف من المعاني الصحيحة للحرية والكرامة التي تتوصل الى ادراكها ، ومن اسهامها ، بالاشكال

الخمسة التي ذكرناها وأمثالها ، في تحقيق هذه المعاني في حياة ابنائها وعن طريقهم في الحياة الانسانية عامة . ومجموع هذه المآثر هو « تراث » تلك الحضارة الايجابي الباقي . ولكل حضارة تراثها ، وهي تختلف عن سواها من الحضارات بنوع هذا التراث وصحته وضخامته ومقدار تغلغله في الحضارات الاخرى وأثره فيها .

هذا التراث هو الذي يبقى اذا استقطرنا تاريخ اية امة بحوادثه الجزئية المتعددة ومظاهره المتفرقة . فحري بالأمة ان تسعى اليه ، وان تحرص على استخراجه خالصاً نقياً ، لأنه ذخرها الذي يسبغ على حياتها معناها وقيمتها والذي يقويهـا ويسندها في الملمات ويكون منطلقها لتحقيقات جديدة في الحاضر والمستقبل .

ومن مجموع هذه التراثات ، التي ولدتها الحضارات المختلفة، يتألف التراث الانساني العام . وليس معنى قولنا هذا ان هذا التراث الانساني هو مجموع اصطناعي لأشياء متفرقة ، لا يربطها رابط ، وان التاريخ العالمي يتألف ، كما يعتقد البعض ، من وحدات حضارية مستقلة تدور كل منها في فلكها الخاص . فما دام العقل الانساني في جوهره واحداً، وما دامت النزعات الانسانية تعود الى أصول متماثلة ، وما دامت الشعوب تتلاقى وتتصارع ، وتأخذ وتعطي، فلا بد من ان تكون ثمة وحدة اصيلة في التراث الانساني تشمل خلاصة تحقيقاته ومآثره من ضمن مظاهرها المختلفة وأشكالها المتنوعة . والمؤرخ المدقق الواسع النظر يرى هذه الوحدة في الاختلاف ، ويلحظ كيف ان الشعوب جابهت المشكلات الأساسية ذاتها ، ومرت في اطوار متشابهة ، وكان في معالجات كل منها لهذه المشكلات — وما تجلى في هذه المعالجات من ابداع — خلاصة تراثها ومقدار اسهامها في الرقي الانساني العام .

وتتجلى هذه الوحدة بصفة خاصة في المظاهر الحضارية التي هي من نتاج العقل : في العلم والاختراع ، وفي انتشار الافكار وتفاعلها ، وفي

الجهود الرامية الى التنظيم السياسي او الاقتصادي او الاداري او غير ذلك. فمن خصائص العقل انتظامه وتماسكه وتكامله . وحيثما وجدت انتظاماً وتكاملاً ، فأنت واجد وراءها ، ولا شك ، عقلاً منتظماً متكاملاً ، ينتقل من خطوة الى التي تليها ، ويضع لبنة فوق لبنة . ولذا ، فان وحدة التراث وترابطه وتكامله هي أقوى وأوضح ما تكون في التقليد العلمي ، وفي التقليد العقلي بوجه عام . فالسلسلة هنا متماسكة الحلقات ، قوية الأواصر ، والأمم تختلف فيما بينها بمقدار تلمسها للحلقات التي صاغتها الأمم السابقة وقبضها عليها واضافة حلقات جديدة اليها . ولا مراء في ان التقدم العجيب الذي نراه في ميادين العلم في العصر الحديث راجع ، الى حد بعيد ، الى اشتداد الصلات بين الشعوب — وهذا الاشتداد هو ذاته من آثار تطور العلم — والى ازدياد امكانات الاطلاع على النتائج المحصلة وتبادلها ، وبالتالي الى تمكن العقل من ان يستثمر اوفر استثمار ميزاته في التواصل والتكامل والتراكم حتى غزر انتاجه بهذا الشكل العجيب الذي يبهرنا في هذه الايام .

هذا من جهة العقل . اما الروح فلا نجدها قابلة لمثل التطور والتقدم اللذين يلازمان العقل ، ولا تنمو نماء هذا بالتراكم والتكامل . فما تطلعات الفنانين والشعراء ، واحداس المتصوفين واختبارات المتعبدين ونزعات سواهم من الجاهدين في مسالك الروح — ما هذه اليوم بالضرورة اعظم من سابقاتها في الماضي ، او مرتبطة بها ارتباط النتائج العقلية والاستنباطات العلمية بعضها ببعض . ومع هذا ، فهل نقول انها متنافرة متناكرة ، وانه ليس ثمة خيط او خيوط تجمعها وتشدها بعضاً الى بعض؟؟ لسنا من الذين يقولون بذلك. وانما نقول بأن المآثر الروحية والأدبية والفنية لأية حضارة من الحضارات ، على ما قد يكون بينها من تباعد ، متلاقية ، متضامنة متماسكة ، وانها على اختلاف مظاهرها تؤلف تراثاً موحداً ، بل ان المآثر المتعددة المنبثقة من الحضارات المختلفة هي وجوه للتراث الروحي الانساني الذي

يضمها جميعاً .

والناس يختلفون فيما بينهم بمقدار مشاركتهم في هذا التراث بنطاقيه: القومي ، والانساني . فمنهم من ليسوا ابناء امتهم الا بالاسم فحسب ، لأن جذورهم لا تتصل بالمنابع التي ولدت ابداع امتهم في الماضي ، ولا تتغذى بهذا الابداع فتتقوى به وتنطلق منه الى ابداع جديد . ومنهم كذلك من لا يشاركون في التراث الانساني ، فتكون منابعهم ضئيلة محدودة ، وثقافتهم ضحلة ، واصالتهم رقيقة هزيلة . بل نقول ان حسن المشاركة في التراث القومي يقتضي المشاركة في التراث الانساني . ولذا ، فكل فرد ، وكل امة ، مدعوان الى ان يتساءلا : ابن من انا ؟ باسم من اتكلم واحكم ؟ ما هو التراث الذي يفعل في فكري وعملي وحياتي ؟ ولا شك في ان جدارة كل منا وابداعه يتوقفان على مدى وعيه لهذه الأسئلة وعلى اصالة التراث الذي يتمثل فيها وصحته وضخامته .

●

ومن هنا يتبين ان عملية الحكم في التاريخ تنتهي آخر الامر الى استخراج التراث الايجابي الذي يتضمنه ، والى تمييز هذا التراث عن العناصر السلبية الماضية التي اضعفت الابداع وعطلته وأعاقت نمو التراث وامتداد نطاقه واثره . وعلى هذا ، فان كل شعب حي مدعو ، في كل وقت ، الى تقييم تاريخه واستخلاص تراثه . وعملية التقييم والاستخلاص هذه عملية مستمرة لا تتوقف ولا تنتهي ، ما دام العقل يستمر في طلب الحقيقة ، وما دامت حقيقة الماضي تتكشف له بدرجات ومراحل متتابعة ، وبوجوه جديدة .

هذه الحاجة الى تقييم التاريخ واستخلاص التراث تقوى وتشتد في الادوار التي تنهض فيها الشعوب الى حياة جديدة ، والتي يعظم فيها أثر قراراتها واختياراتها . فيجدر بها في هذه الادوار ان تحرص على سلامة احكامها وصحة تقييمها ، كي تكون الخطى الحاسمة التي تقبل عليها

بوحي من هذا التقييم صحيحة الاتجاه مضمونة العواقب . والشعوب العربية هي اليوم في هذا الوضع من التنبه والتحفز والاقدام . فهل هي واعية لتراثها الصحيح ، وهل لهذا التراث فعله الحي فيها ؟

اننا مدعوون الى النظر الناقد الحاكم في كل مظهر من مظاهر الحضارة العربية . ومقياسنا ، كما ذكرنا ، هو مقدار ما كشفت عنه هذه العناصر من معاني الحرية والكرامة وما حققته من هذه المعاني في نفوس ابناء هذه الحضارة . لنأخذ الحياة السياسية مثلاً : الى اي حد حقق الحكم العربي للذين دخلوا في نطاقه امكان الفعل السياسي ، وسبل المشاركة في بناء الدولة، ووسائل التغلب على العصبيات الضيقة والانسجام في رابطة اوسع منهـا وأقوى ؟ لماذا كان هذا الحكم اسلم وأثمر في ادوار منه في ادوار اخرى ؟ بماذا يمتاز عن انواع الحكم السابقة او المعاصرة ؟ ما هي المعاني الجديدة في السياسة والحكم والادارة التي تتجلى فيه ، والتي دخلت في التراث الانساني العام ، او التي اذا أحييناها اليوم كان منها فائدة لنا ولسوانا؟

وفي الحياة الاجتماعية : ما هي مظاهر التقدم في هذه الحياة ــ في تلمس حقوق الافراد والجماعات ، وفي صيانة حرمتها ، وفي العمل على توسيع مدى حريتها وتعزيز كرامتها ؟ ماذا كانت نظرة المجتمع الى المرأة ، والى الطبقات المحرومة ، وما هو مبلغ جهده لكفالة العدل الاجتماعي وتخفيف اثقال الفقر والمرض والجهل عن عواتق ابناء المجتمع ؟ ومن وراء هذا كله ، ما نظرة هذه الحضارة الى الانسان ، وما نصيبها من الصحة، ونصيبها من الخطأ ، وماذا كان أثر هذه النظرة في التعامل الاجتماعي، وفي تنمية المواهب والقابليات الانسانية او في اضعافها وتعطيلها ؟

وفي الحياة العقلية : ما هو جوهر الابداع العربي في العلم، والفكر، والفلسفة؟ ما هي الاضافات الجديدة التي اضافها الى التراث العلمي والفلسفي؟ وما هي الصفات التي اكتسبها العلماء والمفكرون فأتاحت هذه الاضافات وهذا الابداع ؟ ولماذا قويت هذه الصفات ونما فعلها في ادوار وضعفت وهزلت

في ادوار ؟ ما هي العوامل التي أدت الى انطلاق الفكر وحريته وقيامه بفعاله الاصيل ، وتلك التي قيدته واستعبدته ومنعته عن الفعل ؟ متى ، ولماذا ، تغلبت الروح على الحرف فأحيت ، ومتى ، ولماذا ، تغلب الحرف على الروح فقتل ؟

وفي الحياة الادبية والفنية : ما هي الرؤى الجديدة التي رآها ابناء هذه الحضارة العربية ، واي نجاح اصابوا في اقتناصها وتصويرها ؟ ما هي مظاهر الروعة والابداع التي تميزوا بها عن سواهم ، والتي يستطيع ان يستلهمها اي انسان بما هو انسان ، والتي تتعالى عن ظروف المكان والزمان؟ وما هي الأسباب التي أدت الى انكشاف الرؤى ، وتجلي الروعة والابداع ، والاعراب عن المعاني الانسانية الاصيلة ، وتلك التي نشرت الغشاوات وكثفت الحجب وحالت دون انطلاق النفس الى الأجواء الرحبة الرفيعة .

وأخيراً ، في الحياة الخلقية والروحية : الى اية اغوار من الاختبار الروحي غاص ابناء هذه الحضارة ، والى اية مراق من الخير ارتفعوا، احساساً وفكراً وعملاً ؟ ما هي الفضائل التي استجلوها ، وتلك التي تجسدت فعلاً في حياتهم ؟ وما هي النقائص التي لم يستطيعوا ان يتجردوا منها ، او ان يتعالوا عنها ، فظلوا عبيداً لها ، وفعلت فعل السوس في بناء مدنيتهم ؟ ما هي التطلعات الروحية التي تفوقوا بها على سواهم ، والذرى التي تسلقوها ، فأصبحت ، او يمكنها ان تصبح عندما تفهم على حقيقتها ، مصدر وحي وإلهام لسواهم من الشعوب ؟

هذه وسواها من اعمال التقييم يجدر بنا ان نقبل عليها اذا ما اردنا ان نستخلص جوهر تراثنا القومي الايجابي : هذا الجوهر الذي يجب ان يكون صلتنا الأساسية بماضينا ، وعنوان اعتزازنا وفخرنا لأنه مصدر القوة الحقيقية التي تجلت في تاريخنا وخلاصة الكسب الذي احرزناه والذي شاركنا به في التراث الانساني العام . والتراث القومي هو ايضاً افعل حافز لنا في جهاد الحاضر والمستقبل . ذلك ان المعنى الاخير لجهادنا القومي

هو في اشاعة الحرية والكرامة في مواطنينا والجهد في اشاعتهما في العالم اجمع . فتراثنا الذي يتضمن إسهامنا الماضي في هــذا الميدان الأساسي الانساني — وهذا الإسهام هو خلاصة ابداعنا — يغدو منطلقنا الى الاعمال الابداعية المقبلة التي نتطلع اليها والتي بها نسهم مجدداً في تقدم البشرية ورقيها .

ومن الواضح ان هذا التقييم لتراثنا القومي لا يكون صحيحاً الا اذا نظر الى هذا التراث من ضمن نطاق التراث الانساني الاوسع . وذلك لأنه ، كما قلنا ، ليس منفصلاً عما سبقه وعاصره وتلاه ، بل اتصل وشارك وتفاعل ، واخذ واعطى . فأصالته الابداعية لا تتجلى الا على ضوء هذا الاتصال والتفاعل . ثم ان هذه الاصالة الابداعية التي تؤلف جوهره هي قيم انسانية تهم كل انسان من حيث هو انسان وتتعالى عن ظروف المكان والزمان . ولا تبرز هذه القيم واضحة الا في نطاق التراث الانساني العام .

ولرب معترض يعترض بأن هذا العمل — عمل الحكم والتقييم — لا يأتي سليماً اذا لم يبنَ على دراسة علمية نقدية شاملة لتاريخنا، واننا لم نبلغ بعد من هذه الدراسة مبلغاً يسمح لنا بأن نقوم به . والجواب عن هذا هو اننا لا نفتأ نعود الى الماضي ونعتز بمآثره ونستلهم مفاخره ومآتيه، فخليق بنا ان نبدأ تصنيف هذه المآثر والتمييز بينها والفصل بين صحيحها وباطلها ، كي يكون عودنا هادياً مرشداً لا خادعاً ، وكي يكون استلهامنا منتجاً مثمراً لا مجدباً او معيقاً معطلاً . ثم ان عمل التقييم هذا هو عمل مستمر لأنه يتوقف على مدى اطلاعنا وشمول معرفتنا ، ومع ان الاحكام التي نطلقها اليوم قد تتبدل بظهور حقائق جديدة ، فلسنا — فيما نعتقد — بالغين يوماً نستطيع ان نطلق فيه احكاماً نهائية لا تتبدل ولا تتغير . فلا يخيفننا هذا العمل اذن ما دمنا مخلصين للحقيقة ، منفتحي الصدر ، مستعدين دوماً لأن نعدل نتائجنا واحكامنا حسبما يتبين لنــا من اضواء جديدة .

والمهم في هذا كله ان يتولد فينا نزوع صادق لأن نكون ابناء حقيقيين لماضينا ، وورثة الذخيرة الخالصة الباقية من تراثنا . ولا يتيسر لنا هذا الا اذا عمدنا ، باخلاص وبهدي كل ما لدينا من معرفة ، الى الحكم في تاريخنا ، فاستوحينا منه الصحيح الباقي الذي يبعث على الابداع الحقيقي، وأدركنا في الوقت ذاته الفاسد المعطل ، فانطلقنا من الأول وتعالينا عن الآخر. ولنقل اخيراً ان هذا العمل الحكمي ، اذا وفينا شروطه وقمنا بواجباته ، يرفعنا عن مجرد الانقياد الطيع للتاريخ ، ويغدو هو ذاته مظهراً من مظاهر فعاليتنا الايجابية ، ولوناً من ألوان الابداع الذي نتطلع اليه . والابداع – كما قلنا – حقيقة صلتنا بالماضي ، وقيمة جهدنا في الحاضر ، وجدوى اثرنا في المستقبل .

د. حكم التاريخ فينا

ادراك الماضي يؤدي الى الحكم فيه . والحكم في التاريخ ضرورة قومية ومزية فكرية . وهو ، بعد ، مظهر لوعينا وجدارتنا وفعلنا . ولكننا نخطىء اذا اعتقدنا ان التاريخ ينقاد الينا انقياداً يسيراً ويرضى بأن نصدر احكامنا فيه دون ان يكون له حكم فينا . بل انه ليحكم فينا سواء أحكمنا نحن ام لم نحكم .

قال الشاعر الالماني شيلر : « ان تاريخ العالم هو محكمة العالم » ، فأصبح قوله مأثوراً ، وردده من بعده فريق كبير من الفلاسفة والمؤرخين وسواهم. ونجد هذا القول ذاته عند هيجل الذي جعل منه ركناً من اركان فلسفته التأريخية ، وشرح في مواضع متعددة من كتبه كيف ان العقل المطلق ، المتجلي في اشكال التاريخ ومؤسسات المجتمع ، هو سيدها والحكم الاخير فيها . وقد شاع الحديث في «حكم التاريخ» في الآونة الاخيرة باشتداد اهتمام الناس ، تحت تأثير تطورات المدنية الحديثة ، بالحركة والتغير والتقدم وأمثالها من مظاهر الحياة ، وبتيقظ الوعي التاريخي بوجه عام . ولم يقتصر هذا الحديث على فلاسفة التاريخ والمؤرخين ، بل نجد الاشارة الى التاريخ وحكمه تتردد في الكتب والمقالات ، وتدور على ألسنة الساسة والخطباء ، وتنطلق في شتى المناسبات . ولما كانت هذه العبارة — حكم التاريخ — تستعمل في احيان كثيرة بمعنى غامض ، او بمعان مختلفة او متناقضة حسب مفاهيم اصحابها ، فانه يحسن بنا هنا ان نوضح مقصودنا منها والدلالة التي لها عندنا .

يعني التاريخ هنا ، اول ما يعني ، المستقبل . وفي هذا المعنى — او في ظاهره على الاقل — تعارض وتناقض . اذ كيف نطلق على المستقبل لفظة مرادفة للماضي ؟ ولكن هذا الغموض او التعارض الظاهر هو في الواقع دليل آخر على رقة الفاصل القائم بين الماضي والمستقبل ، وعلى انطلاق الفكر عفواً من احدهما الى الآخر ، وعلى التأثير المتبادل باستمرار بينهما .

ان حكم التاريخ هنا معناه حكم الاجيال القادمة : ما ستقوله ومــا ستكتبه عنا ، عن مدى جدارتنا وصحة افكارنا واعمالنا وقيمة النتائــج التي توصلنا اليها . فكما نحكم نحن اليوم في من سلف ، سيأتي من بعدنا خلف يحكم فينا . والانسان الذي يتهيب حكم التاريخ ، انما يتهيب الاحكام التي ستصدرها هذه الاجيال فيه شخصياً ، وفي امته ، وفي الجيل الانساني الذي ينتمي اليه .

على ان هذا الحكم ليس مقصوراً على الاجيال القادمة ، بل ان للماضي ايضاً حكمه . ويتوقف هذا الحكم على مقدار مــا يكون الانسان واعياً لهذا الماضي ، نافذاً الى جوهره ، مخلصاً لتراثه .ولكن مَن من الماضي هو الذي يحكم ؟ ان في الماضي عناصر تتفاوت قيمة ومرتبة . فيه الصالح والطالح ، والصحيح والفاسد ، والمثمر والمجدب . فمن نختاره منهم ليحكم فينا ؟ قد ينقاد بعضنا للضعيف الهزيل الذي لم يبلغ الا ادنى المراتب فيرتضي حكمه ويكتفي به ، ثم تأتي النتائج فتثبت جدب هذا الرضى والاكتفاء . ان الذين يحق لهم ان يحكموا هم الذين ابدعوا ، فكراً او عملاً . هم الذين كشفوا عن معانٍ جديدة للحرية والكرامة الانسانية او الذين حققوا هذه المعاني في ذواتهم او في سواهم من بني الانسان . وكلما كان ابداعهم اعظم وارفع ، اي كلما كان اسهامهم في استجلاء هذه المعاني او في تحقيقها اضخم واجزل ، كانوا اكثر اهلية للحكم ، وكانت احكامهم اصح وابقى . ونحن اذا استعرضنا الماضي وجدنا فيه قمماً وذرى : قمماً من الفكر

والرؤيا والاختبار ، وذرى في الكسب الخلقي والتنفيذ العملي والجهاد في سبيل الحرية والكرامة . هذه القمم والذرى تتمثل في الافراد المبدعين والفئات المبدعة . وليست هذه القمم مستقلة بعضها عن البعض الآخر ، او متباعدة متناكرة ، على رغم ما يفصل بينها من فواصل الزمان والمكان ، بل هي متعارفة مؤتلفة ، يتوق بعضها الى بعض ، ويرتبط بعضها ببعض ، وتتفق كلها في تساميها وتعاليها وابداعها . ولئن هي بلغت درجات متفاوتة من سمو الابداع ، وحققت الواناً مختلفة منه ، فانها بمجموعها – المتكامل في جوهره المتماسك في نتائجه – خلاصة التراث الانساني ولب كسبه ومبلغ رقيه .

وهكذا نعود الى التراث الانساني : الى تحقيقاته المبدعة المتكاملة المتراكمة في تعزيز الحرية والكرامة بمختلف مظاهرهما – نعود اليه لنجد فيه ، كما تكوّن في الماضي وكما نتصور انه سيتكوّن في المستقبل ، ضمير التاريخ الذي يصدر حكمه فينا ، والذي يجب ان يظل ماثلاً امام اعيننا ، مالئاً فؤادنا هيبة وروعة ، مشيعاً في نفوسنا روح المسؤولية ، حافزاً ايانا على الحياة الجديرة به والجديرة بنا عندما ننتسب اليه ونشارك فيه .

ان نوع حياة الانسان وانتاجه وقيمته تتوقف الى مدى بعيد على من يستلهمه هذا الانسان وعلى من يتطلع اليه ليحكم فيه وفي اعماله . وكذلك شأن الامة . فاذا حرصنا على ان يكون حكم التاريخ فينا حكماً صالحاً وان يكون مشرّفاً لنا رافعاً لشأننا ، وجب علينا ان نسعى الى القمم ، وان نتهيبها ، وان نحيا تحت وطأة الحكم الذي ننتظر ان تصدره فينا . فليسأل كل منا نفسه ، ولنسأل انفسنا كمجموع : بنور من ، ومن اجل من ، وخشية حكم من نحن نفكر ، ونعمل ، ونحيا ؟

●

ولحكم التاريخ معنى آخر : هو معنى الحياة في اندفاعها وفي ارتباط اسبابها ونتائجها . فالحياة ليست مجموعة صدف ومناسبات واحداث

متناثرة ، وانما لها سننها وقوانينها التي تربط بين احداثها والتي لا يستطيع الانسان تجاهلها او تخطيها دون عقاب له او لاجياله القادمة . فالارض القاحلة المهملة لا تنبت شجراً مثمراً ، والشر لا يولد الخير ، والجهل لا يكشف حقيقة الاشياء ، والظلم لا يبقى على الزمن . بل ان للاعمال نتائجها التي ان لم تبدُ عاجلاً فستبدو آجلاً وسيكون فيها وفي فعلها حكم الحياة ، او حكم التاريخ . والمرء او المجتمع الذي يزري بهذه النتائج ولا يحسب لها حساباً ، او الذي يعتقد انه لن يكون لها اثر فيه او في من يأتي بعده ، انما هو جاهل مخطىء ، او ضال مستهتر ، ولن ينجو من الحكم الذي سيصدره فيه التاريخ المقبل .

ويقوم هذا المفهوم لحكم التاريخ على معنى انساني اصيل . وهو ان للمرء حريته واختياره ، واثره الخاص في ما يقدم عليه من فكر وعمل . فلو كان وليد الاسباب والعوامل الطبيعية فحسب ، وليس له يد في تحويلها او توجيهها — لو كان كله نتيجة حتمية وليس بشكل من الاشكال فاعلاً مسبباً ، لما كان ثمة موجب لاي حكم يصدر فيه ، بل لم يكن ثمة من يصدر هذا الحكم . كذلك لو كان مسيراً في حياته كل التسيير مجبراً على كل عمل من اعماله ، لضاع معنى الحكم وما يتضمنه من ثواب او عقاب .

ان حكم التاريخ ، بل اي حكم يصدر من اية سلطة ، يتنافى مع الحتمية او الجبرية المطلقة ولا يقوم الا اذا اعترف للانسان بحريته واختياره ، وبمقدرته على تحقيق هذا او ذاك من الامكانات الكامنة في ذاته او المنفسحة امامه . وما الخشية التي نحس بها مما سيقوله التاريخ فينا او مما ستجلبه اعمالنا من نتائج الا اعترافاً ضمنياً منا بحريتنا الذاتية . وكلما أنمينا بذور هذه الحرية ، ووسعنا مجالاتها ، بتقدم مقدرتنا العقلية وبتسلطنا على الطبيعة ، اصبح فعلنا اقوى واثرنا ابلغ ومسؤوليتنا اعظم ، وغدونا بالتالي اكثر استحقاقاً لحكم التاريخ . وهكذا نرى ان التاريخ وحكمه مرتبطان ارتباطاً متماسكاً محكماً بهذا المعنى الانساني الاصيل — معنى الحرية . فبهذا المعنى

— بمقدار انكشافه وتجليه وتحقيقه في النفس وفي السوى — يتلخص جوهر الجهد الانساني المتمثل في التاريخ . وبهذا المعنى ايضاً يستطيع الانسان ان يحكم في التاريخ ، وان يفصل بين التراث الايجابي الباقي الحافز والتراث السلبي الزائل المعيق ، كما يصبح هو نفسه خاضعاً لحكم التاريخ بقدرته على الاختيار وعلى الفعل والتأثير ، وبما تستتبع هذه القدرة من تبعة ومسؤولية .

●

هذه هي المعاني التي تلوح لنا عندما نحاول استنطاق التاريخ واستكشاف امكانات حكمه فينا واشكال هذا الحكم . ولنتساءل الآن : في ماذا يحكم التاريخ فعلاً ؟

انه يحكم في نوع مجابهتنا للمشكلات التي تعترضنا ، سواء أكانت مشكلات فردية ، ام قومية ، ام انسانية . ترى ، أندرك هذه المشكلات على حقيقتها وفي جوهرها ، ام نخلط بين الاصول والفروع وبين الجواهر والاعراض ؟ أننفذ الى اسبابها العميقة البعيدة ، ام نكتفي بالاسباب الظاهرة القريبة ؟ أننظر اليها في اطارها الواسع الذي يظهر ارتباطاتها وتفاعلاتها ، ام نحصر نظرنا في حيز ضيق ، فيضيق فهمنا ويخطىء ؟ ترى أيحدث تحدي هذه المشكلات اثراً في عقولنا وصدى في نفوسنا ، فنسعى لتفهمها تفهماً صحيحاً وننهض لمعالجتها بأوفر ما لدينا من جهد وابلغ ما نملك من قوة ؟

كذلك يحكم التاريخ في الغايات التي ننصبها امام اعيننا ونتوجه اليها : في مقدار تمييزنا بين انواع هذه الغايات ومراتبها . فقد لا نرى الا الغايات السهلة القريبة ، او قد نحس بما هو ابعد منها ولكننا لا نتشوق اليه ولا نسعى لاستكشافه ولا نطمح الى بلوغه . قد نعيش في الاجواء الواطئة ، ولا نلمح ما وراءها ، ولا تثور فينا الرغبات في ان نخترقها ونحلق فوقها ونتسامى يوماً بعد يوم ، او لا نقدر على الجهد الذي يتطلبه هذا الاختراق والتحليق والتسامي .

ويحكم التاريخ في نوع الاسئلة التي نسألها . فقد نسأل ولا نتساءل .

قد نتوجه باسئلتنا الى الطبيعة والى الجماعات البشرية التي تحيط بنا . وهنا قد تختلف اسئلتنا صحة وخطأ ، وعمقاً وسطحية ، واتساعاً وضيقاً ، وخطورة وتفاهة . نسأل لنلقى جواباً هيناً قريباً ، لاننا نرضى بالهين القريب ولا نطمع في الشاق البعيد او لا نقوى عليه . واذا ما تحولنا من الخارج الى أنفسنا وذواتنا فقد نقوم بمتطلبات التساؤل او لا نقوم ، قد نمتلك الجرأة الضرورية لنقد الذات ومحاسبة النفس او لا نمتلك ، وقد يكون لنا من رجاحة الفكر وصواب الرأي ما يؤهلنا لحسن التساؤل والنقد والحكم على انفسنا او لا يكون . ما هي الاسئلة التي تثور في داخلنا وتقض علينا مضجعنا : ما نوعها ، وقيمتها ، وخطرها ، والى اي حد هي فعلاً ثائرة مقلقة باعثة ؟ هـــو ذا مجال من المجالات الهامة التي يحكم فيها التاريخ .

ويحـــكم التاريخ ايضاً في اصالتنا وعراقتنا : في مدى تبيننا للتراث الباقي من ماضينا القومي والانساني ، وتلمسنا للاعمال المبدعة التي كونته وتكاملت فيه ، ونوع الصلة التي تربطنا به ، ومقدار امانتنا له وحرصنا عليه . فابناء من نحن ؟ ما هو الماضي القومي الذي ننحدر منه ، ونستقي من منابعه ، ونعتز بمآثره ومفاخره ؟ ما هي دائرته وما هي حدوده ، اين يبدأ واين ينتهي ؟ ثم ما هي حقيقته ولبه وجوهره ؟ ما هي وجوه الابداع التي تجلت فيه ، ومعاني الحرية والكرامة التي كشف عنها وحققها ، والقيم الايجابية التي يمثلها ؟ ما هو التقاليد الذي نقبله ونرضى بحكمه وننطلق منه ؟ وما هي صفة تعلقنا بماضينا : أهو تعلق وهم وتخيل ، ام تعلق ادراك وتمييز ؟ وما هو مبلغ تركزنا في الجوهر الباقي من هذا التاريخ ؟

وكما انه يجب ان تكون لنا اصالة قومية قائمة على التركز في التراث القومي الايجابي المبدع والاعتزاز به والاستمداد منه ، كذلك يجب ان تكون لنا اصالة انسانية منبثقة من جذورنا الممتدة الى اعمق اغوار التراث الانساني والى مختلف جذوره واشكاله والمستقية من منابع الحق والخير والجمال حيثما كانت . والافراد والامم ، كما قلنا ، يتفاوتون في اصالتهم

القومية ، وعراقتهم الانسانية ، فتتفاوت بذلك قيمهم الذاتية ونتائج جهودهم ومساعيهم . فحكم التاريخ في اصالتهم وعراقتهم انما هو حكم في صفة اساسية من صفاتهم وفي مزية فاعلة مؤثرة من مزاياهم .

وكما يحكم التاريخ في مقدار التركز الايجابي في التراث المكتسب ، كذلك يحكم في مدى الانطلاق من القيود التي اعاقت الابداع والتقدم في الماضي والتي تؤلف في مجموعها التقليد السلبي . فثمة تقليد ايجابي يجب ان نتأصل فيه ، وثمة تقليد سلبي يجدر بنا ، خصوصاً في ادوار التيقظ والنهضة ، ان نتحرر منه ونتخطاه . والفرق بين التقليدين هو في الابداع : ففي التقليد الايجابي تتمثل نتائج الابداع والتحقيقات في مجالات الحرية والكرامة ، والبواعث التي ادت الى الابداع والتحقيق ، وفي التقليد السلبي تتمثل العوائق التي اعاقتها والقيود التي حددتها والمساوىء والشرور التي افسدتها . ان العمل التاريخي الذي تقتضيه النهضة ، والذي ليس لها بدونه معنى ، هو في الوقت ذاته عمل تركز وانطلاق ، وتأصل وتحرر . وفي نوع هذا العمل ، بكل من وجهتيه ، وبهما معاً ، يحكم التاريخ .

ان التمييز بين الايجابي والسلبي من التراث او التقليد ينطوي على الحكم في عناصر التاريخ . وليكون هذا الحكم من جانبنا صحيحاً يقتضي ان تكون مقاييسنا دقيقة ، ومعاييرنا سليمة ، وقيمنا خالصة منتظمة . فما هي المقاييس التي نستخدمها في هذا التمييز ، ومن اين استمددناها ، وكيف صنفناها ؟ وما هي القيم التي نتمسك بها ونتخذها معايير لنا في احكامنا ، وما هو مصدرها او مصادرها ؟ لقد قلنا مثلاً ان مقياس العمل التاريخي هو الابداع ، وان الابداع بدوره يقاس بمقدار المساهمة في تعزيز الحرية والكرامة ، كما اننا قلنا ان للحرية درجات ومراتب . فمن اين جئنا بهذين المقياسين ، وكيف نصنف مراتب الحرية ؟ لقد استمددنا هذا كله من فهمنا للسعي الانساني المتمثل في تراثه الايجابي ، ومن القيم التي حاولنا ان نستضيء بنورها . فقد نكون اخطأنا الفهم ،

او لعلنا اخطأنا النور الذي كان يجب ان نستضيء به . لعله كان يجب ان نخرج من دائرة التراث ذاته لنستمد قيمنا ومقاييسنا واحكامنا من النظر الفلسفي البحت ، او من الوحي المستقل عن التاريخ المرتفع فوقه ، او من مصدر آخر . في هذا سيحكم التاريخ علينا او لنا ، كما يحكم دوماً في الافراد والجماعات حسب صدقها وجهدها في تحري منابع القيم وفي صوغ المقاييس والمعايير وتطبيقها .

واخيراً ، يحكم التاريخ في مدى تهيبنا لحكمه ، اي في مقدار ادراكنا ان للحياة قوانينها التي لا يمكننا ان نستهتر بها او نتهرب منها ، وان للنتائج اسبابها ومقدماتها ، وان للافراد والامم امكانات الحرية ومجالات الاختيار ، وان ما نحن عليه اليوم هو ، الى حد بعيد ، نتيجة الاختيارات التي قام بها اسلافنا ، وان ما ستكون عليه اجيالنا القادمة سيكون الى حد بعيد ايضاً حصيلة القرارات التي نتخذها في هذه الآونة والخطى التي نقدم عليها والسبل التي نتبعها . ولذا فان حكم التاريخ هذا هو ، في نهاية الامر ، حكم في مقدار ادراكنا لحريتنا ومقدار تحقيقنا لها ، وفي مدى ما تصبح هذه الحرية المدركة المحققة تهيباً وشعوراً بالمسؤولية وتصرفاً تحت وطأة هذا الشعور . ولعل هذا هو اخطر الاحكام التي يطلقها التاريخ فينا .

●

هذه هي بعض جوانب حياتنا التي تخضع لحكم التاريخ . وثمة جوانب اخرى عديدة تتعلق أو تتأثر بها بمقادير متفاوتة . ذلك ان الحياة هي ، كما قلنا ، وحدة مترابطة لا يمكن الفصل بين اجزائها ونواحيها . وهذه النواحي التي ذكرناها متصلة بعضها بالآخر تؤدي الواحدة منها الى غيرها . فادراك المشكلات التي تجابهنا مرتبط بنوع الغايات التي نستهدفها ، وبطبيعة الاسئلة التي نتساءلها ، وهذه كلها تؤثر وتتأثر بمقدار تأصلنا في التاريخ ، وتحررنا منه ، وحكمنا فيه ، والقيم التي نتخذها اسساً لهذا الحكم . وهكذا شأن نواحي حياتنا الاخرى .

واذا ما حاولنا ارجاع هذه الامور الى جذورها ، وجدنا لها جذرين رئيسيين ، احدهما عقلي والآخر خلقي . اما العقلي فهو نوع الادراك الذي نتمتع به : اي الذخيرة العلمية التي جمعناها ، كمية وكيفية ، مادة واسلوباً ، والصفات التي اكتسبناها في تحصيلها وقابلية هذه الصفات للنمو والارتقاء . فهذه الذخيرة وهذه الصفات هي التي تؤهلنا لفهم اسرار الطبيعة والتحرر من قيودها واستغلال مواردها ، وهي التي تساعدنا على التدرج في معرفة الطبيعة الانسانية والعلاقات البشرية ، وعلى قدر المشكلات التي تجابهنا ، واعادتها الى جذورها ، وتبين نتائجها ، والتمييز بين الهام والتافه منها . وهي التي تمكننا ايضاً من تحديد الغايات التي يجب استهدافها ، وتعيين القيم التي نتخذها اسساً لاحكامنا ، وتصنيف هذه القيم والغايات في مراتبها . ليس هذا فحسب ، بل إنها هي التي تعين ، آخر الامر ، مقدار صحة نظرنا ، ورجاحة فكرنا ، وسلامة عملنا ، ونوع النتائج التي سيحصدها وطننا والانسانية في المستقبل ، فتحدد بالتالي حكم التاريخ فينا .

اما الجذر الخلقي فهو صدقنا واخلاصنا : في التشوق الى الحق ، وايثار الخير ، والترفع عن الهوى ، وفي اكتسابنا الفعلي للقيم التي تبيناها بادراكنا العقلي . وليس هذا كله بالامر الهين ، وانما يتطلب القدر الكثير من جهاد النفس ، ومن التروض على الحرمان والمشقة ، ومن البذل والتضحية ، في سبيل ما نعتقد انه حق وما نؤمن انه خير وفضيلة .

وهكذا يصبح حكم التاريخ في جوهره ونهايته حكماً في جدارتنا : جدارتنا العقلية ، وجدارتنا الخلقية — حكماً في فضائلنا التي تتلخص بمجموعها في مبلغ احرازنا للحرية والكرامة . اذ نعود فنقول ان كرامة اي فرد ، او اية امة ، هي حصيلة الحرية الحقيقية التي يتمتع بها الفرد او تنعم بها الامة . وهذه الحرية هي بدورها نتيجة تحقيق القابليات التي يتميز بها الانسان ، وهي قابليات الادراك العقلي والسمو الخلقي والروحي ، والفعل المبدع الناتج عنها .

ان التاريخ حاكم جاد لا يهزأ ولا يستهتر ، ولا يسمح بان يهزأ به او يستهتر . انه حاكم عدل منصف لا يجور ولا يظلم ، ولا يمالیء ولا يداهن . فحري بنا كأفراد، وكأمة ، ان نقبل على المهام الجسيمة التي اخذناها على عواتقنا ، وقد امتلأت نفوسنا تهيباً لها ، ولما تتطلبه ، وشاع في صدورنا الاحساس بثقل التبعة وعظم المسؤولية .

اننا الآن في خضم هبة قومية عارمة . لقد وضعنا امام اعيننا غايات التحرر السياسي ، والاتحاد ، والعدل الاجتماعي ، والكسب الحضاري . وامامنا قوى هائلة تقف دون تقدمنا الى هذه الغايات ، او تجرنا نحو غاياتها وتستغلنا لمصالحها . وفي داخلنا قوى يدفعها الجهل او التعصب او الشهوة والانانية فتشدنا الى الوراء او تبث فينا التفرقة والانقسام . وليس لنا من عدة في سبيل التغلب على هذه القوى الخارجية والداخلية الا مبلغ ما نتحلى به — افراداً وامة ، قادة وجمهوراً — من صحة نظر ، وسلامة فكر ، وحسن تخطيط وتنفيذ ، ومن ايمان وصدق ، وعزم وبذل وتضحية . وبايجاز : ان ضماننا الوحيد هو ذخيرتنا العقلية والخلقية . هو مقدار ما اكتسبناه من حرية ذاتية : حرية العقل المكتشف المنتظم المنظم المتكامل المتفاعل ، وحرية الخلق المتعالي عن الهوى ، الصلب المنيع ، الدافع الى ابعد الغايات واصعب المسالك ، المحقق لأصفى معاني الكرامة القومية المغروسة جذورها في الكرامة الانسانية .

ان ضماننا هو في صدق عزمنا على ان لا نظل منقادين منفعلين ، يفعل فينا الغير ويحكم علينا التاريخ ، ولا نفعل نحن ولا نحكم . انه في جلال طموحنا الى العمل التاريخي المبدع . انه في حدة توقنا الى ان يكون حكم التاريخ لنا ، لا علينا . انه ، اولاً واخيراً ، في مبلغ تقديرنا لما تتطلبه هذه الغايات الرفيعة من شروط ولما تلقيه من تبعات ، وفي صدق استعدادنا للبذل المطلوب . انه في مدى ارتفاعنا الى مستوى التحدي الرائع الجلل ، والرد عليه بما هو اجل واروع .

ففي هذا التحدي يتجلى واقعنا التاريخي ، وفي نوع ردنا عليه تظهر درجة اصالتنا في التاريخ ، وتحررنا منه ، وتحكمنا فيه ، ويتجسد ، آخر الامر ، الحكم الذي سيطلقه هو فينا .

فعسى ان تكون علاقتنا بالتاريخ علاقة تفاعل ايجابي مستمر ، وعسى ان تكون تحدياته لنا دوماً حافزة مستثيرة وردودنا عليها رفيعة مبدعة ، وعسى ان نتمكن في هذا الظرف الرهيب من حياتنا من ان نرد على تحديه الضخم الخطير بأصفى ما نمتلك من فكر ، وانفذ ما نقدر عليه من عمل ، واروع ما نحن اهل له من خلق وابداع .

بهذا يؤدي موقفنا التاريخي الحاضر خير معانيه ، ويرتفع الى اسمى ذراه . بهذا نجل ونعظم ، نحن والتاريخ .